OPPOSITE OF ALWAYS

رواية

عكس عقارب الساعة

"تصبحين على خير،
يا جزئي المفضّل من اليوم."

جاستين أ. رينولدز

ترجمة
سلمى الحافي

مكتبة
Telegram Network
عصير الكتب
للنشر و التوزيع

«مكتبة ♔ النخبة»

لمزيد من المعلومات عن عصير الكتب www.booksjuice.com

العنوان الأصلي: Opposite of always

طبع بواسطة: Katherine Tegen books
An imprint of Harper Collins

حقوق النشر © [illegible]

Copyright [illegible] LLC

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

حقوق الترجمة: سلمى الحافي

جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز استنساخ أو طباعة أو تصوير أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة
من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر

جستن أ. رينولدز

عكس عقارب الساعة: رواية / جستن أ. رينولدز، ترجمة سلمى الحافي - القاهرة: عصير الكتب للنشر والتوزيع ٢٠٢٠

٤٣٦ ص، ٢١ سم

I.S.B.N: ٩٧٨-٩٧٧-[illegible]

رقم الإيداع: ٢٠٢٠/[illegible]

الطبعة الأولى: يناير ٢٠٢٠

تنسيق داخلي: [illegible]

تصميم الغلاف: [illegible]

مدير الحقوق الأجنبية: [illegible]

المدير العام: محمد شوقي — مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
00201150636428

مراسلة الدار: Email: [illegible]@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جاستين أ. رينولدز

عكس عقارب الساعة

ترجمة

سلمى الحافي

محاولة إنقاذ فاشلة

ينهرس خدي على صندوق سيارة شرطة، بينما تموت (كيت) للمرة الثالثة. العلبة التي من المفترض أن تنقذ حياتها مدهوسة ومرمية عند قدميّ.

تعلمت عدة دروس مؤخرًا.. مثلًا، تعلمتُ ألا أهدر وقتًا في انتقاء ملابسي.

الجو بارد ومناسب لارتداء سترة شتوية.. وأنا ألبس سترةً بأكمام قصيرة وسروالَ بيجاما منقوشًا وحذاءً مهترئًا ألبسه عادة حين أجز العشب. حذائي رطب من الداخل وأشعر بحكة في أصابع قدمي اليمنى، بسبب حزمة من العشب، لم أجد وقتًا لارتداء جواربي. الجوارب، واللباس المناسب للطقس، هذه رفاهيات.. تتطلب وقتًا.. ولا وقت لدي لأضيّعه هذه الليلة، ولا في أي وقت لاحق.

لأن أول درس هو، أننا مهما سافرنا عبر الزمن، لن نستطيع إنقاذ من نحب.

قبل ٤٥ دقيقة

الشرطة قد وصلت.

وهناك سيارة تحمل علامة ما، تتجول بقرب مدخل غرفة الإسعاف. من المحتمل أنهم هنا من أجلي، لكن ما من مجال للتراجع الآن.. أجزاء الثواني قد تحدث فرقًا. أتناول علبة صغيرة متوضّعة على المقعد بجانبي، وأخرج من سيارتي.. أمزق العلبة وأدفع محتواها في حذائي. أسرع في مشيتي.

كان عليّ أن انطلق في وقت أبكر.

كان عليّ أن أقوم بكل شيء بشكل مختلف هذه المرة.

أدفع الباب وأدخل وأنا أردد: «إلى المصعد، عليّ أن أصل إلى الطابق الرابع»، ثم يصطدم وجهي بجدار صلب.. أو من الممكن القول إنني اصطدمت بأكثر من مئة كيلوجرام من اللحم وهراوة.

لا بد أنه السائق.

أكاد أنهار على الأرض المبللة، لولا أن قبض الشرطي على سترتي بإحكام.

«أمسكت به،» يغمغم في جهاز اللاسلكي المثبت على كتفه.. «عُد إلى الخارج،» يأمرني، ويدفع الباب بيدٍ، بينما تحكم يده الأخرى الإطباق على مسدس.. «تحرك يا فتى، هيا».. تراودني أفكار كثيرة، وأرغب بالقيام بأعمال غاية في البطولة والشجاعة.. أفكر في دفع الشرطي والاتجاه نحو السلالم، أو الانزلاق داخل المصعد قبل أن ينغلق.. إلا أن ساقيّ كانتا متباعدتين، ويديّ مكبّلتان خلف ظهري. أتساءل لوهلة وآملُ أن يكون ما يحصل هو المطلوب.. أن يكون هذا الحل.. أن يكون من الأفضل ألا أتواجد هناك.. قد تعيش إن لم أكن هناك.

يعددون ما اقترفتُ من جنايات، ولا أعود أسمعهم بعد «الاقتحام عنوة».. لا أكلّف نفسي عناء الشرح، كيف قد أشرح أنني من المستقبل؟

«... أنت على اطلاع على حقوقك»، يقولون بلهجة إقرارية أكثر مما هي استفهامية. أومئ برأسي مجيبًا وأشعر ببرودة ألومنيوم صندوق السيارة ورطوبته على خدي.

«هل تملك أي شيء غير قانوني؟ سلاح أو مخدرات أو ما شابه؟».. يسألني الشرطي الضخم.

«لا»، أجيب كذبًا لأنه ليس باستطاعتي أن أقول الحقيقة.. ليس الآن.. تتحرك يدان شديدتان صعودًا ونزولًا على جسدي.. ترنّ مفاتيحي، بينما يسحبها من جيبي.. ثم يأخذ محفظتي.

«ما من شيء مهم»، يقول الشرطي الضخم لزميلته.

«اجعله يخلع حذاءه؟».. تقترح.

وترتعد ركبتاي حتى تكادان تلتصقان.

«أرجوكم، أتوسّل، «دعوني أدخل.. حبيبتي تحتضر. راجعوا أطباءها وممرّضيها.. أرجوكم.. ارأفوا بي.. دعوني أراها لخمس دقائق فقط، ثم ارموا بي في زنزانة وأضيعوا المفاتيح، لا فرق.. أرجوكم.. فكّروا بأطفالكم.. ألديكم أطفال؟ إن كانوا يموتون، هل كنتم لتتركوهم وحيدين؟ أرجوكم.. أرجوكم».. أحاول أن أركع، إلا أن الأمر صعب لكوني مقيّدًا. ينظر الشرطي الذي كبّلني إلى الشرطية، امرأة ذات شعر أشقر داكن وعينين تحتقنان بالدم، وتتنهّد بتلك الطريقة التي تتعلمها كل الأمهات في يومهن الأول في مدرسة الأمومة.. ثم تومئ برأسها، وتنفك الأصفاد.

وهذا ضرب من الجنون.

«لا تتصرف بحماقة يا فتى».. يقولها بطريقة تُشعرني بأنه يعتقد أنني سأتصرف بحماقة.

«خمس دقائق».. تقول هي.. «خمس دقائق فقط».

وبينما نمشي على الأرض المشمعة الزلقة وندخل المصعد الذي لم تطغ فيه رائحة المبيّض على البول، يمشيان إلى جانبيّ، ويؤكّدان لي أنهما لن يترددا في تلقيني درسًا إن كنت أخدعهم.. لكنني لن أهرب.. أتفقد ساعتي مجددًا، قد ينجح الأمر.

إلا أن المصعد يتردد لمدة عشرين ثانية قبل أن يلفظنا أخيرًا.. ثم نُجبر على العودة نحو الردهة؛ لأن عامل الصيانة يمسح الأرضيات، وعلى ما يبدو فهو لا يتهاون إطلاقًا عندما يتعلق الأمر بمسح الأرضيات؛ لأنه شرع بالصراخ والقفز صعودًا ونزولًا.

يتمتم الشرطيان بالاعتذارات، لكن الرجل يكتفي بالإشارة بغضب إلى طريق بديل، وكأنه لا يريدنا أن نصل.

أحاول أن أشرح أننا لا نملك وقتًا لطريق آخر، ولا للمصاعد المنهكة، ولا لعلامات الأرضيات المبللة، لكن ما من مصغٍ.. وحين نصل، يكاد يكون ذلك بعد فوات الأوان.. (كيت) تكاد تموت.

«انظروا من أتى»، يرمش جفناها.. في الزاوية يتوضع كرسي فارغ تشغله والدتها عادةً، وبطانية مكومة على الأرض بجانبه، وكأس ستايروفورم ملطخ بأحمر الشفاه على حافة النافذة.

«مرحبًا».. أقول متفاجئًا بسبب صغر حجمها.. لا يشوب هدوء الغرفة إلا هسيس الأكسجين، الذي يُضخ إلى أنفها وأزيز المحاليل الوريدية الموصولة إلى ذراعها. «كم الساعة؟»، تسأل وهي تحدق.. حتى في الثالثة صباحًا، وهي

محتجزة في سرير مشفى، تبدو جميلة.

«لم يتبق لنا الكثير من الوقت».

يلوي الارتباك عضلات في وجهها.. «عم تتحدث؟».

تميل بجسدها إلى الأمام، وتلقي نظرة خلف كتفي.. «أحضرت الشرطة معك هذه المرة.. خطوة مثيرة للإعجاب.. ظهورك مسرحيّ دائمًا أيها الملك (جاك)». أنظر خلفًا نحو الشرطيين.. «أعتذر بشأنهم».

«أنت مجنون حقًا».

«باستطاعتي أن أرى لمَ تظنين ذلك»، أقول مبتسمًا.

«خمسة»، تقول الشرطية لتذكّرني.

تهز (كيت) برأسها.. «(جاك)، لمَ أنت هنا؟ لا أفهم.. ألديك هوس مرضيّ بالمستشفيات؟ أم تثيرك الفتيات المريضات؟».

«أتيت لأقول لك...»، يضعف صوتي لأنني لم آتِ لأقول شيئًا.

«ماذا، يا (جاك)؟».

«أظنني أعرف الآن ما عليّ فعله.. أظنني وجدتُ طريقة أخيرًا».

«حسنًا»، تقول ويرتفع حاجباها.. يبدو أنني أُربكها وحسب.. بالطبع سترتبك، فكل هذا غير منطقي.

«ستكونين بخير يا (كيت).. سيكون كل شيء بخير».

تشيح بوجهها.. «الكل يرددون هذا، لكنهم يكذبون.. لا تكن كاذبًا يا (جاك). لا تكن مثل...»، تتوقف حين ترى ما في يدي.

وجدت أصابعي طريقها إلى حذائي، خلال العشرين ثانية الأخيرة، والآن أمسكها بيدي.

«(جاك)»، تقول ويعلو صوتها.. «(جاك)، ماذا بحق السماء...؟»، وقبل أن تكمل جملتها، أرفع أغطيتها وأدفع محتويات الحقنة في فخذها.. تندفع نحو الأمام، كما لو أنني صعقتُها بالكهرباء.

يثبّتني الشرطي أرضًا وهو يوزّع الشتائم والصراخ ما بين أذني وفضاء الغرفة.

«ماذا.. ما الذي فعلته بحق السماء يا فتى؟ ما كان ذلك؟».

«فليساعدنا أحد»، تندَه الشرطية راكضةً نحو الردهة.. «نحتاج طبيبًا هنا! نحتاج طبيبًا!».

يضغط الشرطي بشدة على وجهي ليلتصق بمشمع أرضية الغرفة، حتى تكاد عيناي تخرجان من محجريهما.. تتدافع الأرجل والأقدام نحو الغرفة.. يعلو الصراخ والصياح، بينما يهزّني أشخاص ويسألونني عن الدواء الذي حقنتها به. والحقيقة هي أنني ما كنتُ لأعرف كيف أشرح الأمر لهم حتى لو أردتُ ذلك.

وعلى كل حال، لا أريد أن أقول شيئًا لأنني قمت بكل ما باستطاعتي فعله، ما من طريقة أخرى.

ينتشر الأطباء، محاولين إنقاذ حياتها، ويجرّني الشرطيان عبر الأرض المبللة، وخلال الردهة، ثم نحو الليلة المظلمة في الخارج مجددًا.

أعرف أن أقل حركة أقوم بها، حتى ولو كانت التنفس بعمق أكثر، فسينتهي بي الأمر ميتًا بطلق ناري، أو غائبًا عن الوعي على الأقل.. ولا يهم ذلك على أية حال، لأنني لمحتُ الساعة أثناء خروجي من غرفة (كيت).. وإن تكرر ما جرى سابقًا، فإما أن تعيش (كيت)، أو يبدأ كل شيء مجددًا في أية لحظة.

الشرطي مهووس بسحق وجهي، إذ إن خدي ملتصق بالسيارة مجددًا.. أظنه يريد تفتيشي بدقة أكثر هذه المرة.

«إذا ماتت تلك الفتاة، فسوف...».

لكنني أشعر بالحالة تغمرني قبل أن ينهي كلامه.. أغمض عينيّ.. يبدأ الهواء بالتدافع من حولي، وتتخلى عني الجاذبية، كما لو أنني أقوم بهبوط مظلّي. ارتعاشي أكثر شدة هذه المرة.. بالكاد أستطيع الوقوف على قدميّ، ويتحول جسدي إلى رجفة لا تنتهي.

«هل أنت بخير يا فتى؟».. يهتف طالبًا من زميلته أن تجلب النجدة، فتنطلق بأقصى سرعتها، لكن هذا لن يغير شيئًا.. لن تصل في الوقت المناسب.. لو كان باستطاعتي التكلم، كنت لأقول لهم ألا يقلقوا، أنني لا أحتضر بل أحاول صد الأذية عن (كيت) وحسب، إنني كنت أحاول إنقاذها.. ما كانوا ليستوعبوا الأمر، أنا نفسي لا استوعبه.. عندما حصل الأمر أول مرة، ظننت أنني ميت لا محالة. والآن، لا أعرف كيف أصف ما يجري تمامًا، لكنه أشبه بتأهب جسدي لينطلق كما لو أنه مكّوك فضاء بإمكانه السفر عبر الزمن، لا الفضاء وحسب.

«اسمعني يا فتى! كلّمني! أظنه يعاني نوبة.. يا فتى! يا فتى!».

الدرس الثاني: السفر عبر الزمن مؤلم.

•••

الفصل الأول

البداية الحقيقية

تجربة انعدام التجارب

يحب الناس أن يرددوا أن هناك شريكًا مناسبًا لكل شخص.. إنها إحدى الجمل التي ترددها الأمهات أملًا بتهدئة أولادهن بعد نهاية أليمة لعلاقة عاطفية، أو قد يتمتم بها الآباء غير القادرين على التعبير عن مشاعرهم عمومًا، بينما يربّتون على ظهور أبنائهم، ثم يقررون أن ذلك كان «نقاشًا مثمرًا».. وعلى كل حال، الجملة صحيحة غالبًا، فإن أخذنا بعين الاعتبار عدد البشر في هذا الكوكب، لا بد أن الشريك المثالي هو أحدهم، أليس كذلك؟ الشريك الذي يجعل القلب يقول أشياء غريبة جدًا مثل، «سأحبك إلى الأبد»، و«أنا متحمس للقاء والديك»، و«بالطبع أريد اسمينا موشومين على رقبة كل منا»..

المشكلة تكمن في أننا نمضي معظم حياتنا البائسة في ملاحقة الشريك المثالي لشخص آخر، وإن حالفنا الحظ، فسنعيش مع الشخص المقدّر لنا فعلًا ثلث الوقت الذي كان بإمكاننا قضاؤه معه، لا أكثر.. هذا إن لم نفوّت فرصة لقائهم بالأصل، كما هي الحال معي.. أنا متخصص في تفويت الفرص: مع فتاة أحلامي، وفي التفوق في الدراسة، وفي الانضمام إلى أي نوع من الفرق الرياضية (جربتها كلها، حتى إنني، في لحظة يأس، قمت بتجربة أداء للقيام بدور جالب الحظ، لكن تبيّن أن «لاري» الملقّب بـ«المشعِر»، يقوم بشقلبة بهلوانية أفضل مني بكثير).. أما بالنسبة للنشاطات خارج المنهج الدراسي، فقد جربتها، وكدتُ أنجح بها هي الأخرى. وهذا غريب لأنني لطالما ظننتُ أنه بإمكان الجميع أن ينضموا إلى نادٍ مدرسي ببساطة بالغة (وهذه نقطة تُضاف إلى القائمة الطويلة للأشياء التي كنت مخطئًا بشأنها تمامًا).. المغزى هو أنني فوّت على نفسي فرصًا كثيرة في مجالات متعددة، وكاد أغلبها يتحقق، حتى صرت قامة مهمة في الأمور التي «تكاد تحدث»، بما يقارب الثمانية عشر عامًا من الخبرة لأضيفها على سيرتي الذاتية.

جولة في سقيفتي تكفي لتوضيح ذلك، فهي عرش مجازٍ لجملة «محاولة جيدة»، أو كما أحب أن أدعوها، «متحف (جاك) العظيم لكل ما كان على وشك الحدوث، إلا أنه لن يحدث أبدًا».. فهناك لوح تزلج بحالة ممتازة، تذكار من صيف كدت أصبح فيه هاوي تزلج، وآلة خياطة كنت أقول للجميع إنها تخص والدتي، لكنها كانت تخصني، فقد كنت مهتمًا لفترة دامت عدة مواسم ببرنامج «بروجكت رانواي». وهناك عدة للعبة «فريسبي غولف»، ومجموعة رخام أثري، وصندوق مليء بالدارات الكهربائية غير المكتملة، وصندوق يحوي كل لعبة «سوبر ننتيندو»، تم ابتكارها.

وصندوق بحجم تابوت كان محاولتي الأولى والأخيرة لصنع آلة زمن (ما من داعٍ للأسئلة!) ومجموعة غير مستعملة من نجوم النينجا (أكرر، ما من داعٍ للأسئلة!).

كلها مشارع كدت.. كدت، أتقنها، كما هو واضح.. أقول على سبيل المزاح إن والديّ قرآ طالعي حين أسمياني (جاك إلسون كينغ).

(جاك)، ذو الصنائع السبع.. (كينغ)، المتنازل عن عرش الريادة في كل منها.

إلا أن أمي تذكرني دائمًا بأنني سُميت (جاك إلسون كينغ) تيمنًا بـ(جاكي روبنسون)[1]، الذي كسر الحاجز العنصري المتعلق باللون في الرياضات الاحترافية، و(رالف إلسون)، الكاتب والباحث الذي نال شهرته، من خلال تحفته الفنية، كتاب «الرجل الخفي».

أنا وحيد لوالديّ، وقد أنجباني بعمر متأخر بعد محاولات جاهدة استمرت سنوات، وحين سيطر اليأس عليهما، أتيت إلى الحياة.. أرادت أمي أن تسميني (ميركل) (بمعنى معجزة)، لولا أن تدخّل أبي (الذي لا يمثّل صوت المنطق عادة، إلا في حالات استثنائية كهذه) وقال، «هل تريدين أن يتنمّر الجميع على «المعجزة» يوميًا يا عزيزتي؟».

وهكذا صار اسمي (جاكي إلسون).

وهذا برأيي خير مثال على التربية الأمثل والأسوأ.

فمن جهة، من الرائع معرفة أنني سُمّيت تيمنًا بهذين الرجلين المذهلين، إنه شرف عظيم وامتياز.. وفي المقابل، لعلّ والديّ لم يستوعبا الضغط الهائل الذي ألقيا به على عاتقي منذ صغري.

بكل الأحوال، أنا (جاك كينغ)، الشاب ذو اللحية الخفيفة، الذي يرتدي سترة صوف قديمة في حفل مزدحم، أجلس بالقرب من أسفل سلّم غرفة المعيشة، وأمسك كأسًا فارغة، وأشاهد بطرف عيني مباراة كرة سلة تُعرض على التلفاز، لكنني أحدق بالمطبخ، أنظر إلى... الفتاة ذاتها دائمًا، جيليان.

عندما أدرجنا اسمينا لزيارة الجامعة التي سنختارها، ظننت أننا سنقضي أوقاتًا بمفردنا، وأننا سنمضي عطلة نهاية الأسبوع سويًا، وأنها سترى أنني جذاب (نوعًا ما) ولطيف (قليلًا) ومثير للاهتمام (نسبيًا)، إنني أصلح لغير الصداقة.. وبدل ذلك، ها أنا أجلس وحيدًا، منذ نصف ساعة.. لست وحيدًا كليًا، للأمانة.. يرتطم بي عدد لا بأس به من الناس بينما يصعدون وينزلون عن السلم.. أقسم أنني لست غريبًا ولا انطوائيًا هكذا عادة.

فـ «لأشرح الأمر».

•••

حكاية قصيرة حول إعجاب شديد.

(جيليان) وأنا، صديقان مقربان.. تقابلنا في السنة الأولى في الثانوية، عندما تعثّرنا ببعضنا حرفيًا (يا له من مشهد مبتذل، صحيح؟) تبعثرت محتويات

حقيبتينا في الردهة. ساعدتها لتجمع كتبها وحاولنا تجنّب اصطدام رأسينا ببعضيهما، ونحن نقف على أقدامنا.. إلا أنني دست على حزام حقيبتها لحماقتي، مما أردى بها أرضًا لتقع على مؤخرتها، وكأنني تركت مسدس الإحراج يطلق رصاصة بلا كاتم صوت.. توقف بعض الطلاب ليحدّقوا ويضحكوا، أما أنا فكنت أُمطر (جيليان) بوابل من الاعتذارات.

وببساطة بالغة، وقفت على قدميها، وهتفت للجمهور: «تحرّكوا من هنا»، وعرّفت عن نفسها.

«(جاك) و(جيل)»، قلتُ بعد أن لاحظت الأمر.

«ها»، ابتسمت.. «يبدو أنه كان من المقدر أن نلتقي».

«أعتذر لأنني لم «أقع بعدك».. «تسرّعت في ردّي المتذاكي وأدركت بعد عدة ساعات أن الأغنية تقول إن (جيل) هي من وقعت بعد (جاك) حسب الأغنية.

لم تتأثر (جيليان) بالخطأ الذي اقترفته، وقالت، «بإمكاننا أن نحاول مجددًا»، وزاد الانحناء في ابتسامتها وهي تضيف، «أقصد الجزء المتعلق بالوقوع».

عرفت حينها أن شيئًا رائعًا من المحتمل أن يحصل بيننا.. لكن استكمالًا لقائمة الأمور التي «كادت» تتحقق في حياتي، لم يحسم الأمر، إذ صار لدى (جيليان) حبيب بعد ذلك بثلاثة أسابيع.

وقد تكون النصيحة في حالات كهذه، «لم تهتمّ لوجود حبيبها يا (جاك)؟ أخبرها عن مشاعرك ودعها تقرر»، لكن وجود حبيب هو حصن منيع، حصن منيع مع قناصين على الأسطح، وليزر مستشعر للحركة، ودیناصورات مدربة على الهجوم، وخندق تغلي به الحمم البركانية.. حصن غير قابل للاختراق.

لأن التغيير الجذري في مجرى الأحداث يكمن في أن (فرانسيسكو هوجان)، حبيب (جيليان)، الملقّب بـ(فراني) هو صديقي المقرب الآخر.

الأمر معقّد، أعرف ذلك.

وليته باستطاعتي القول إنها حكاية حول حبيب سيئ لا يقدّر ما لديه ويعامل حبيبته بطريقة سيئة، أو أنه لا يستحقها، أو أنه غدر بي بكل مكر، وسعى خلف الفتاة التي أحب.. إلا أن (فراني) لا يعرف حتى إنني أحبها. (فراني) شاب جيد في الواقع، لا بل شاب رائع.. لو كان على اختيار شخص آخر سواي ليكون مع (جيليان)، أقصد لو كنا معًا أنا و(جيليان) ولعبنا تلك اللعبة؛ حيث على كل منا أن يختار أحد أصدقائه ليأخذ مكانه في حال وفاة الآخر المؤكدة، كنت لأختار أن يكون (فراني) مع (جيليان) بالطبع. كان ليهتم بأمرها ويحبها (هذه لعبة مريضة، أليس كذلك؟ لن ألعبها مجددًا.

وعلى كل، إنهما حبيبان، حبيبان رائعان، وأنا سعيد لأجلهما. ما كنت لأفعل أي شيء قد يضر بعلاقتهما.. إطلاقًا.. أدعم العلاقة العاطفية بين (فراني و(جيليان).

العجلة الثالثة في العلاقة، الإصبع الحادي عشر الذي لا قيمة له، الحلمة الثالثة الزائدة عن الحاجة.

حتى هذه الليلة.

غالبًا.

ربما.

ربما لا.

إطلاقًا.

ما يميز السلالم، أنها مصممة للصعود والنزول في آنٍ واحد.

«عفوًا يا فتى، أنت تسد طريق السلّم»، قال صوت خلفي.

«ماذا؟»، قلتُ وأنا استدير.

كانت فتاة ذات عينين لامعتين وشعر مجعّد يصل إلى كتفيها، ترتدي قميصًا شبيهًا بالسترة، ليس سوى سترة واسعة للغاية في نظري، ومشدود على خصرها بحزام رفيع.. تذكرت أنني رأيتها سابقًا، كانت مرشدة جولتنا التي عيّنها مركز الطلاب.

«أنت تسدّ طريق السلّم مثل سد بشري فعّال للغاية».

«أعتذر».. تمتمتُ.

ابتعدتُ عن الطريق، فهتفت بحماس: «إنه سدّ متحرك، يا للروعة!».

قلت: «يا لها من مفاجأة».

انتظرتُ أن تكمل طريقها نزولًا عن السلم، لكنها لم تتحرك.. «إن كنت معجبًا بها لهذه الدرجة، فعليك أن تجرب التحدث إليها».

«ها؟».

«تقول الشائعات، إن التحدث إلى البشر غالبًا ما ينبههم لوجودك، وهذا أمر لا يفعله الاكتفاء بالتحديق بهم مثل قاتل متسلسل مضطرب».

«كما لو أنه هناك قاتل متسلسل غير مضطرب».. قلت دون أن استدير.

«وجدتُها».. فرقعت بأصابعها.

عبستُ قائلًا: «لم أفهم قصدك».. كنت أعرف قصدها تمامًا، إلا أن قراءتها لحالي بهذه السهولة أزعجتني.

«يا فتى، كنت تتعلّق بها خلال الرحلة بأكملها».

«حقًا؟».

«كنت ملتصقًا بها كالأشنيات على الصخور».

«يا للهول، شكرًا».

ابتسمت وقالت: «أظنه عليك أن تدخل المطبخ وتكلّم الفتاة».

«لست مضطرًا لفعل ذلك، أكلّمها دائمًا، فهي صديقتي المقربة».

«أنتما صديقان مقربان إذًا، لكنها لا تعرف أنك مغرم بها؟».

كان صوت تلك الفتاة مرتفعًا للغاية، وهذا عادي لأننا كنا في حفلة، إلا أن صوتها كان عاليًا مثل إنذارات الخطر.

كدتُ أمنعها من الكلام، إلا أن الحق بالكلام هو حق لا تنازُل عنه، حقّ يرافق الحق في السعي نحو السعادة.

همستُ: «لستُ مغرمًا بها، حسنًا؟».

دنت مني قائلة: «ماذا؟».

كررتُ: «لستُ مغرمًا بها».

«لا أسمعك، لماذا تهمس؟».

تابعت كلامي بصوت عادي نورمال «قلت إنني لست مغرمًا بها.. إنها لطيفة جدًا، هذا كل ما في الأمر».

«من الواضح أن هذه مشكلتك، أنت لطيف أكثر من اللازم.. تنتظر الفرصة الملائمة لتبوح لها بمشاعرك، وقد انتظرت لمدة..»، انتظرتني لأكمل الجملة.

«ثلاث سنوات».

ضربت جبينها براحة كفها.. «تحبها منذ ثلاث سنوات من دون علمها؟».

«أحب التأني في الأمور».

«بالطبع، بهذا المعدل، عليك أن تأمل أن يجدوا طريقة لتجميد أجسادنا حتى يعيدوك للحياة بعد مئتي عام، وعندها بإمكانك أن تطلب مواعدتها، بعد أن تتصنع التثاؤب والمطمطة، وتضع يدك حول كتفيها (دون قصد).. تلك هي الحركة المثالية طبعًا، لن تتوقع ذلك أبدًا».

«هاها.. اسمعي، أقدّر أنك تحاولين تشجيعي، لكن من فضلك..».

عندها، بدلًا من أن تتابع تلك الفتاة نزول السلم، جلست بجانبي.. ومع تضافر قوانا، تم سدّ الطريق إلى الطابق الثاني رسميًا، لن يتبول أيّ كان طالما نحرس هذا الدرج.

«أنا (كيت)»، قالت وهي تمد يدها، وكان ذلك غريبًا لأنني لم أستطع مدّ يدي بالمقابل، بسبب ضيق المساحة على السلم.

«(جاك)»، قلتُ وأنا أحاول أن أصافحها، أضعف مصافحة تم تسجيلها في التاريخ البشري.. «(جاك كينغ)».

«هل تُخبر الناس دائمًا باسمك الكامل عندما تقابلهم؟».

«لا، أُفصح عن اسمي الكامل فقط عندما أقابل مرشدي جولات لطيفين».

«أها».. ابتسمتْ.. «سررتُ بلقائك يا (جاك كينغ)».

•«سررت بلقائك يا..».

•«(كيت)».

•«(كيت) فقط، هه؟».

•«مؤقتًا».

•«هذا مؤلم».

•«علينا أن نحافظ على الغموض، أليس كذلك؟».

•«لا أعرف، أظنني أكره الألغاز.. غالبًا ما أفضّل أن أكشف كل أوراقي».

«(جاك) و(كينغ) معًا، إنه اسم مميز».

«أبحث عن ملكتي».. قلتُ وندمتُ على ذلك حالًا.

انفجرت ضاحكةً.

احمرّ خداي وقلت: «أقسم بأنني لم أقل ذلك من قبل».

هزت رأسها: «لكنك قلتها بسرعة هائلة، لذا...».

•«أنا جادّ».

•«لا أظنه باستطاعتي تصديقك يا (جاك)».

•«هذا رائع، لم يلزمنا أكثر من خمس عشرة دقيقة حتى يظهر الشك في علاقتنا، أحاول أن أتجنبه عادة حتى اللقاء الثاني، لكن..».

ضحكتْ وقالت:

•«اسمع يا (جاك كينغ)، لا أحاول أن أظهر بمظهر العارفة بكل شيء، لكن أظن أن النصيحة من شخص يفهم الإناث قد تفيدك».

•«وباستطاعتك أن تعرفيني على شخص يفهمهنّ؟».

«أنت!».. ولكمتني على كتفي.. آلمتني، لكنني اكتفيت بهزّ كتفي كما لو أنني لم أتألم.

•«حسنًا إذًا يا طبيبة العشاق، ماذا تقترحين؟».

ضحكت (كيت) مجددًا وقالت:

•«بصراحة، لست بهذا الاحتراف، مازلتُ طبيبة مقيمة في اختصاص الحب».

«لم أخبرك بالجزء الأهم بعد»، قلت لها.. كنت أضحك بدوري، لأن التعقيد في علاقتي مع (جيليان) لا يحتاج شخصًا غريبًا ليؤكّده، ولأنني إن لم أضحك، فقد أبكي.

«ما الجزء الأهم؟».. سألت (كيت) وهي تشبك يديها ببعضهما.

•«إنها تواعد صديقنا المقرب المشترك».

انفجرت بالضحك مقلّدة ضحكات الأشرار.

• «يا لك من شخص وضيع!».

•«أعرف.. أنا أكثر الأشخاص وضاعة في العالم».

•«على رسلك يا فتى، لا تمتدح نفسك كثيرًا.. أظن أنك وضيع اعتيادي على أفضل تقدير».

•«هذا أسلوب حياتي بأكمله».

•«ما هو؟».

لم أقصد أن أقولها لكنني كنت محبطًا وقتها:

•«اعتيادي على أفضل تقدير».

فتحت فمها لكنها لم تقل شيئًا، وكنت ممتنًا لهذه المعجزة الصغيرة. راقبنا فتى يرتدي سترة بياقة واسعة للغاية، وهو يجرم بحق أغنية «بوب»، بينما ترافقه في العزف على البيانو فتاة لديها وشم «هيلو كيتي» على رقبتها. كانت شفتا (كيت) تتحركان وهي تدندن اللحن بصوت خافت.. رنّ هاتفي، وكانت رسالة من (فراني).

فراني: أرجو أنك تحظى بوقت ممتع يا رجل! أعرف أنه ما من داعٍ لأقول هذا، لكن اعتنِ بـ(جيليان)، واحرص على أن يبقى أولئك السكارى الوضيعون بعيدًا عنها!

أنا: سأفعل.

أعدتُ وضع هاتفي في جيبي.. توقفت (كيت) عن الغناء، فحاولت أن أفكر بشيء أقوله؛ لأنني لا أريدها أن تتوقف عن الكلام.

«هل تشمين رائحة السلم المقززة؟ أظن أن الكثير من الناس قد تقيأوا وتبولوا هنا».

هزت برأسها موافقة وقالت: «جلوسنا هنا يُعتبر مشاركة في حفل التاريخ الغابر إذًا».

ضحكتُ: «تعجبني طريقة تفكيرك».. فابتسمَت ابتسامةً خبيثة مذهلة.

لعلّ أضواء الحفل الراقصة أثّرت على تفكيري، أو ربما هي نغمات الجيتار التي انبعثت فجأة من مكبرات الصوت، أنا ضعيف أمام صوت الجيتار. أو لعلني أشعر للمرة الأولى منذ ثلاث سنوات، أن استحالة ارتباطي مع (جيليان) ليس أمرًا سيئًا.. بضع دقائق على سلم مهترئ كانت كافية لتفتح عيني فجأة على مستقبل مختلف.. نهاية مختلفة، أو نهايتان.

أو لعل السبب هو أن كل ما حولنا دار في دوامة مبهمة في لحظة، تاركًا (كيت) العنصر الوحيد الواضح في بؤرة التركيز.. كما لو أن عيني كاميرا ترصد

وجهها فقط.

ابتلعت ريقي بصعوبة، وهو أمر لا أظنني قد فعلته سابقًا.. «هل أستطيع أن أطرح عليك سؤالًا يا (كيت)؟».

ابتسمت (كيت) وقالت بصوت قصّدت أن تجعله رسميًا جدًا:

•«نعم، (جاك)، باستطاعتك أن تطرح سؤالك».

•«لكنها معضلة صعبة، وجب عليّ تحذيرك».

•«تم أخذ تحذيرك بعين الاعتبار».

تنحنحتُ، وتلك عادتي حين أكون متوترًا، أو على وشك قول/ فعل شيء غبي.. «كيف تقترحين أن ينتقل شاب، من الحديث عن فتاة تعجبه، لكن علاقتهما مستحيلة، إلى الحديث عن فتاة أخرى جذابة جدًا، أو إلى مغازلة تلك الفتاة الجذابة جدًا، رغم أنه علاقتها معها هي الأخرى مستحيلة حاليًا؟».

•«أوه، إنها معضلة صعبة حقًا».

•«أخبرتك».

«أنا متأكدة أن مناورة كهذه مستحيلة تمامًا».. قالت.

•«ظننت ذلك».

•«لكن إن كان عليّ أن أقترح استراتيجية..»..

ابتسمتْ كما لو أنها على وشك أن تكشف عن تكتيك سري للغاية.

انحنيت نحوها وقلت:

•«أنا مصغٍ».

•«فستكون أن تبدأ بجلب مشروب لتلك الفتاة، وحين تعود ستخبرك بأنها لا تبحث عن علاقة جدية؛ لأنها تُعاني من مشاكل كثيرة في الالتزام، ولا قدرة لها الآن على حلها إطلاقًا، ولأنها هربت من علاقة كارثية منذ مدة قصيرة، وتكره كل البشر حاليًا».

•«حسنًا، سنعود إلى هذه الفكرة دون شكّ، لأنني دون شك ذاهب لجلب مشروب لتلك الفتاة، اتفقنا؟».

ابتسمت وقالت:

•«اتفقنا».

•«لا تتحركي من هنا.. عليك أن تحرسي هذا السلم بكل قوتك».

«لن أرحم من يصعد هذا السلم يا سيدي».. قالت.

•«ما هذا الصوت؟».

انكمشت وغطت وجهها بيديها ضاحكة: «محاولة لتقليد اللكنة الأسكتلندية».

«ذلك كان لكنة أسكتلندية؟».. قلت مبتسمًا ابتسامة عريضة.. «ربما عليك أن تُحسّني أداءك، أو ألا تفعلي ذلك مجددًا، إطلاقًا».

«هل كانت بذلك السوء؟».

قلت مستهجنًا ومازحًا: «الأسوأ».. فهزت برأسها قائلة: «أحب الفشل الذريع، لذا لا أمانع الأمر».

«في هذه الحالة، تم تحقيق المهمة بنجاح.. يسرّني أنني ساعدتُ في ذلك».

«أنا أيضًا».. أيّدتْ.

«إذًا..».

«إذًا».. كرّرت مبتسمة.. «فلنستأنف احتفاءنا بخيباتنا على الشرفة الخلفية حين تعود مع المشاريب؟».

حدّقت بها لوهلة وقلت: «أظنه عليك أن تتخذي كل قراراتي بدلًا عني من الآن وصاعدًا».

مدّت (كيت) يدها نحوي، وكانت النتيجة مصافحة أفضل بكثير هذه المرة، وقالت: «اتفقنا يا (جاك)».

انحشرتُ بين الجمع ووجدت طريقي نحو المطبخ، كانت المشروبات مبعثرة على المنضدة الطويلة.. شعرتُ بنقرة على كتفي.. «مرحبًا».

كانت (جيليان)، سألتني: «هل تستمتع بوقتك؟».

هززت كتفيّ غير مبالٍ وقلت: «أنت؟».

- «لا بأس.. أظنني سأرحل باكرًا».
- «حقًا؟».
- «قد أتناول البرجر».

قلت:

- «نعم، بإمكاننا القيام بذلك.. كنتُ على وشك..».

أشارت برأسها إلى زجاجة النبيذ في يدي وقالت:

- «إلى أين تأخذ هذه؟».
- «لا آخذها إلى أي مكان».
- «ماذا؟».
- «بالطبع آخذها إلى مكان ما، يا لسذاجتي! كنت ذاهبًا إلى الشرفة، الشرفة الخلفية».

«عليك ألا تشرب لوحدك يا (جاك)».. قالت مبتسمة.

«لم أكن أخطط لفعل ذلك».. قلتُ وأنا أُخلي حلقي.. «كوّنت صداقة، على ما

أظن».

ظهر تعبير على وجهها لم أستطع قراءته، وأخفته قبل أن أفهمه.. قالت «أوه» مع ابتسامة مختلفة نوعًا ما، «(جاك) كوّن صداقة جديدة».

•«ليس بالأمر المهم».

«لا، أنا سعيدة لأجلك يا (جاي)».. قالت.

«شكرًا، (جاي)».. أجبتُها.. وهذه طريقة اعتدناها لمخاطبة بعضنا.. «مازال بإمكاننا تناول البرجر، أقصد أنني جاهز لأي شيء، دعيني فقط..».

«لا»، هزت برأسها وهي تتراجع مستعدة للذهاب، «تابع ما كنت تخطط فعله، أظنني أعود إلى المهجع على كل، وعليّ أن أتصل بـ(فراني)».

•«بالطبع، حسنًا».

«حسنًا».. هزت رأسها، «استمتع بوقتك».

«أنتِ أيضًا، أوصلي سلامي إلى (فراني)».. قلت وأنا أحاول أن أجد ما أقوله، ولعلها المرة الأولى التي تخوننا فيها الكلمات.

•••

بعد خمس دقائق، كنت أشرب مع (كيت) من زجاجة نبيذ أحمر مقزز، بينما نتقاسم الملكية العقارية على سلم الشرفة المهترئ.. أصبح لدينا قاسم مشترك، السلالم.. لكن هذه المرة، لم يكن علينا نفسح مكانًا للناس طوال الوقت، لا حين تنتهي الحفلة، ولا حين تنطفئ كل الأضواء عدا أضواء الحراسة، ولا حتى حين يصبح القمر همسة في أذن السماء.

«أظننا الوحيدين المستيقظين في هذا المنزل».. قالت (كيت).

«يا للهول، كم الساعة؟».. قلت وأنا غير مهتم فعلًا بالوقت.

«الوقت غير مهم، أليس كذلك؟».. قالت (كيت) وهي تتثاءب.

لا نبالي بشأن أي شيء أو أي شخص.

«حدثيني عن عائلتك».. قلت لها.

«مثل ماذا؟».

«أي شيء».. قلت.. «كل شيء».

صمتت، قاطعت ساقيها ثم باعدتهما.. أعطتني النبيذ، فرشفتُ منه، مازال سيئًا، إلا أنه أقل سوءًا من قبل.

«والداي أصبحا محترفين في المشاجرات هذه الأيام، وأنا السبب الأكبر في ذلك».

«أوه».

«من الغريب أن الشخصين اللذين أذكر أنهما كانا متحابين للغاية، واللذين كانا لا يكتفيان من بعضهما، صرت استيقظ صباحًا واستلقي في سريري متسائلة متى يبدأ شجارهما».

•«قلتِ إنهما يتشاجران بسببك؟».

•«نعم».

•«لماذا؟».

هزّت كتفيها قائلة:

•«لا يستطيعان الاتفاق حول كيفية الاهتمام بي».

•«هذا سيئ، أنا آسف يا (كيت)».

«لم تتأسف؟»، سألتني وعضت شفتها، ومدت يدها نحو الزجاجة ووضعتها على فمها، لكنها لم تشرب.. أعادتها إلى الأسفل لتستقر بين ركبتيها.. «أنا من عليه أن يأسف».

لم أكن واثقًا أنه بإمكاني أن أسألها عن معنى ذلك، رغم أنني أردت أن أسأل، فآثرت الصمت لأترك لها مجالًا لتكمل حديثها لو شاءت.

«لا أعرف، قد يستمران معًا ربما لمجرد أن البدء من نقطة الصفر أمر مخيف ومعقد وفوضوي، ومن قد يرغب بذلك في عمرهما؟ أو من قد يرغب بذلك في الشباب حتى؟».. أخذت رشفة وأعطتني الزجاجة، وتلامست أصابعنا فشعرت بكهرباء تسري بداخلي.

«نعم».. قلت وأنا مازلت مأخوذًا بلمستها.

•«ماذا عنك؟ أخبرني عن عائلتك».

•«أنا ولد وحيد، كبداية».

أشارت برأسها قائلة:

•«هذا يفسر كل شيء».

•«أنتِ!».

•«ملاحظة وحسب».

•«دعيني أحزر، ترتيبك هو الأوسط بين إخوتك».

التفتت نحوي بصعوبة؛ لأننا كنا قريبين، وكاد وجهانا يتلامسان.. «كيف عرفت ذلك؟».

هززت كتفيّ.

«لا يهم، لكنك محق.. لديّ أخت أكبر مني، (كيرا).. إنها مهتمة بالأزياء، ولا أعرف كيف نجحت بذلك، إلا أن لديها ما يقارب المليون متابع على «يوتيوب»، يترقب الناس مقاطعها بشوق.. الأمر غريب، لكن من اللطيف أنها تقوم بشيء

تحبه».
«ربما بإمكانها جعلي أنيقًا».. قلت وأنا أمسّد ياقة سترتي، «أحتاج مساعدة في ذلك».
«لست متأكدة».. قالت وهي تلمس ياقتي بأصابعها، «لا بأس بك».
«شكرًا».. لم أكن بهذه السعادة؛ لأنه «لا بأس بي» سابقًا.. «ماذا عن أختك الصغرى أو..».
•«أخي، المزعج».
•«أوه».
•«لا، ليس سيئًا، لديه فرط في النشاط فقط».
•«أنا أيضًا أعاني في التركيز أحيانًا».
•«لا، ليس لديه فرط نشاط.. يتدخل في شؤون الجميع دائمًا، لكنه متخصص في التدخل في شؤوني».
ضحكتُ قائلًا:
•«أتمنى أحيانًا لو أن عائلتي أكبر، حتى ولو كانوا مزعجين، تكفيني مجرد معرفة أنهم بجانبي.. والداي رائعان فعلًا، ويحبان بعضهما حتى الآن بطريقة تبدو غريبة.. لكنني أشعر أحيانًا بأنهما يترقبان أمورًا عظيمة مني، ويخططان لأن أفعل الكثير من الأشياء الرائعة، وأظنني خائف من أن أخيب ظنهما، فلقد وهباني الكثير من طاقتهما ومحبّتهما، وحاولا جهدهما ألا يُفسدا الأمر.. ومع ذلك أشعر بأنني مجرد فشل على وشك الحصول.. يا إلهي، لا أصدق أنني بحت بكل هذا».
•«يسرني أنك فعلت.. وهذا الشعور بالفشل يا (جاك)؟ أظنه يدعى مرحلة الشباب».
•«نعم، قد يكون كذلك».
•«وعلى كل، مجرد أنك تهتم بأمرهما هو مؤشر جيد، معناه أنك ستحاول جهدك ألا تخفق.. لكن عليك ألا تنسى طموحاتك وأحلامك الخاصة بك».
•«إلام تطمحين وبم تحلمين؟».
•«أريد أن أعيش فقط».
•«أن تعيشي الحياة إلى أقصاها؟».
•«نعم، هكذا».. تقول مترددة.
•«ماذا أيضًا؟».
•«أريد أن أصبح مهندسة معمارية».
•«ما الذي جعلك تختارين هذه المهنة؟».

ابتسمت قائلة:

•«ستظن أن الأمر مبتذل للغاية».

•«بالطبع لن أفعل».

•«بلى، ستفعل، وستكون محقًا لأنه مبتذل فعلًا.. لكن.. لا أعرف.. أحب فكرة تصميم شيء سيظل قائمًا بعد موتي بوقت طويل، شيء من بنات أفكاري وسيستمر وجوده لسنوات عديدة، وعقود، وربما أكثر.. هذا يكفيني نوعًا ما».

•«هذا أقل الأشياء ابتذالًا من بين كل ما قلتيه الليلة.. لا أظنك تفهمين معنى الابتذال.. إطلاقًا».

تضحك وتميل بكتفها نحوي قائلة: «توقف».

•«أتكلم بجدية.. أنتِ ممنوعة رسميًا من استخدام هذه المفردة».

•«لا تستطيع منعي».

•«لسنا مضطرين للمنع التام، لكن علينا أن نفرض حظرًا مؤقتًا».

•«أوه حقًا؟».

•«نعم، أنتِ محظورة عن استخدام كلمة «مبتذل» لمدة أسبوعين».

•«سنرى».

•«أنا آسف، لكن لجنة الكلمات قد أصدرت قرارًا».

• «أعترض على القرار إذًا».

•«سوف تأخذ اللجنةُ اعتراضك بعين الاعتبار».

•«لدي شعور بأنها لجنة مؤلفة من شخص واحد فقط».

•«لا تفصح اللجنة عن أعضائها».

•«لستُ متفاجئة».

«سياساتنا صارمة».. أحني كتفيّ وأقرب الزجاجة إلى شفتي لأجدها فارغة.

•«لقد قضيت عليها».

•«لدي شريك في هذه الجريمة».

هزت رأسها قائلة:

•«حان دورك الآن».

•«بمَ؟».

•«ما هي أحلام (جاك) وطموحاته؟».

•«لا، من المستحيل أن أجاري ما قلتيه».

•«حاول على الأقل».

«حسنًا، دعيني أفكر».. تنحنحتُ وشبكتُ يديّ ببعضهما وقلتُ: «لنرى.. أظنني أريد أن أكتب كتابًا، أو عدة كتب».. ثم ضحكتُ؛ لأن الفكرة بدت مبتذلة حين قلتُها، ولو كان باستطاعة الجدران أن تتكلم، كانت لتردّد: «لن يحصل ذلك يومًا.. لم يحصل ذلك يومًا».

لم تتردد (كيت) وقالت:

•«أي نوع من الكتب؟».

•«روايات، أدب شباب ربما».

•«لم تحدد الشباب؟».

•«سأخبرك، لكن تذكري أنك محظورة عن استخدام مفردة مبتذل، لذا...».

•«أخبرني».

•«حسنًا، لطالما أحببت المطالعة، لكن الكتب المتواجدة للشباب في عمري قليلة، وأؤمن بأن الشباب يستحقون كتبًا تشبههم.. لذا.. بإمكانك أن تضحكي الآن».

•«لمَ الضحك؟ لديك الكثير من الأفكار، أليس كذلك؟».

•«نعم، أحلل الأمور أكثر من اللازم».

•«ها.. أنا أيضًا.. اعتدتُ أن أمضي الكثير من الوقت وحيدة مع أفكاري».

•«يا لها من أفكار محظوظة».

•«أفكار محظوظة؟».

هزّت رأسها قائلة:

•«ذلك كان مبتذلًا بحق».

إلا أنها حدّقت بي بطريقة جعلتني أشعر لوهلة أنها قد تقبّلني.. وتخيلتُ الإحساس بشفتيّ (كيت) على شفتيّ.. لا بد أنني انفصلتُ عن الواقع؛ لأنني تفاجأت بـ(كيت) تفرقع أصابعها أمام وجهي وتقول: «من الأرض إلى (جاك)، من الأرض إلى (جاك)».

•«ها؟ نعم؟ ماذا؟».

ابتسمت (كيت) وقالت:

•«كنت أقول، أعرف أنني أسأل متأخرة، لكن هل ولت صديقتك إلى منزلها بأمان البارحة؟».

«صديقتي».. كرّرتُ قولها.

•«صديقتك المقربة، التي كنت تحدّق بها معجبًا منذ ساعات فقط؟ الحب

الحقيقي الوحيد في شبابك؟».
نظرتُ نحو السماء، هل تحادثنا طوال الليل حقًا؟ بالكاد أذكر رؤية القمر، والآن ها هي الشمس قد ظهرت مثل نار مخيم معلقة فوق رؤوسنا.
•«نعم، عادت إلى المهجع لتحادث (فراني)».
•«(فراني) هو حبيبها؟».
•أومأت بالإيجاب.
•«صديقك المقرب الآخر؟».
أومأت مجددًا.
شبكت يديها ببعضهما، وقالت:
•«سؤال أخير لاختبار مقدار انسجام (كيت) و(جاك) كصديقين، موافق؟».
قلتُ وأنا أتوجه نحوها بجسدي متحضرًا للسؤال: «إليّ به».
«أيّ فيلم من أفلام «العرّاب»، هو المفضل لديك على الإطلاق؟».
•«هذا سؤال صعب».
•«ليس صعبًا أبدًا».
•«لا، أقصد أنني لم أشاهد..».
•«أيَّ جزءٍ لم تشاهد؟».
•«... أيًا منها».
وانصدمَت كما لو أنني قلتُ لها إنني لا أؤمن بالقمر.
«أنت تمزح، أليس كذلك؟ علينا أن نشاهدها كلها بأقصى سرعة ممكنة يا (جاك) المحارب».. وعدَتني.
فقلت: «حددي المكان والزمان».
«لستُ متأكدة متى».. قالت، «مستقبلًا في منزلي».
ولم يبدُ المستقبل أبعد يومًا.

•••

سمعنا ضجيجًا خلفنا، قادمًا من المنزل، إذ بدا أن أشخاصًا يتحركون في المطبخ، ويحركون الكراسي، ويغلقون الخزائن، ويستخدمون الأواني.
«هيا بنا،» قالت (كيت) وهي تقف.
«هل تعرفين هؤلاء الأشخاص؟».. سألتُها.
«تعال وحسب».

تبعتُها نحو المطبخ، حيث كانت بقايا حفلة البارحة مبعثرة في الأرجاء، أكواب بلاستيكية، ومقرمشات جبنة مدهوسة، وأغلفة مختلفة.. وجلسَت هناك فتاة متكاسلة على الكرسي، مرخيةً شعرها الأزرق والأشقر، مع وعاء أمامها، وفتى بنظارة بلاستيكية سوداء يكاد وجهه ينغمس في الوعاء.. رفعا نظرهما نحونا.

«من أنتما؟».. سألت الفتاة وهي تأكل، كما لو أن وجودنا مسلّ، لا مخيف.

«نحن جائعان للغاية».. قالت (كيت) وهي تمد يدها نحو علبة حبوب الفطور. «هل تمانعان؟».

«لا بأس».. قال الفتى وهو يمسح شارَب الحليب.. «حبوب فطور للجميع».

ظهر وعاءا حبوب فطور وملعقتان بطريقة سحرية أمامنا، وتساءلتُ من أين أتت هذه الفتاة المدعوة (كيت)؟ وكيف أجعلها تبقى؟

•••

بعد الفطور، ركبنا سيارة قالت (كيت) إنها لشريكتها في السكن. إلا أننا لم نذهب بها إلى أي مكان، بل جلسنا في موقف السيارات، وتبادلنا الأدوار في تشغيل الأغاني المتواجدة على هاتف كل منّا.. أعجبها هوسي بموسيقى «هيب هوب» التسعينيات، وعرّفتني على الكثير من الأغاني، التي لم أسمع عنها مسبقًا، وأظن أن أحدًا لم يسمع عنها سابقًا، وأحببتُ معظمها.

«أنت غريب».. قالت.

«شكرًا» قلتُ ضاحكًا.. «أُقدّر لك ذلك».

•«كان ذلك إطراءً أيها السخيف.. أنت غريب بطريقة محببة».

•«الأشياء المحببة جيدة».

•«الأشياء المحببة رائعة يا (جاك) المحارب».

وبطريقة ما، صارت الموسيقى فجأةً أحلى.

«كيف تتخيلين نفسك بعد عشر سنوات؟».. سألتُها بينما كانت تبحث في هاتفها عن الأغنية التالية.. «أين تريدين أن تكوني، وكيف تريدين أن يكون أسلوب حياتك؟».

•«أنت مهووس بالمستقبل».

•«دعيني أحزر، أنت واحدة من أولئك الذين يكرهون التخطيط؟ تفضلين أن تعيشي الحياة بطريقة عفوية وغامضة!».

قلتُ ذلك مازحًا، وانسجامًا مع الروح المرحة التي جعلتنا نتبادل المزاح طوال الليل، إلا أن هذه المزحة لم تكن موفقة.

أطفأت (كيت) السيارة، وسحبت مقبض بابها قائلة: «أحتاج هواءً نقيًا».

«اسمعي، لم أقصد أن...»، لكنها خرجت وجلست على حافة السيارة.. جلستُ بجانبها وسألتها «هل أنت على ما يرام؟».

«الأمر جنوني، صحيح؟ أننا نتنفس ذات الهواء الذي تنفس منه كل البشر الذين عاشوا قبلنا؟ ملكة سبأ، آن فرانك، روزا باركس.. نولد ونموت، لكن الهواء هو ذاته».

أدركتُ أنها تتقصّد تجاهُل ما حدث، أيًا كان، فتناسيتُه..

•«نعم، الأمر جنوني فعلًا».

مشينا في حرم الجامعة، وكان الجو هادئًا، والظلال والباني الحجرية القديمة متوزعة على ميل من العشب الأخضر.

تثاءبت (كيت) بكل جوارحها، وتمطّت متنهّدة.

«كان ذلك ممتعًا يا (جاك) المحارب».. قالت. أحببت أنها اختارت لي اسمًا مستعارًا، لأن ذلك يعني.. لعله لم يكن يعني شيئًا بعد.

حان وقت افتراقنا، إلا أنني لم أكن مستعدًا لذلك.

«هل استسلمتِ بهذه السرعة؟».. قلتُ مبتسمًا ومتحديًا.

نظرت (كيت) إلى ساعتها.. أحببتُ أيضًا أنها تلبس ساعة يد حقيقية، بدلًا من الاعتماد على هاتفها لمعرفة الوقت.

«لم يمضِ سوى تسع ساعات يا (كيت)».. قلت. «أين عزمك؟».

دلّكت فكّها وقالت: «ما الذي تخطط لفعله؟».

هززتُ كتفيّ قائلًا: «كوت عن النت».

«من الواضح أنك لم تشاهد العراب».. قالت ضاحكة.

«هل كان ذلك سيئًا لهذه الدرجة؟».. قلت وأنا أشعر بالدماء تتصاعد إلى خدّي خجلًا.

«بل أسوأ».. قالت.

«أستطيع القيام بأداء أفضل».. أكّدتُ لها.. «(كيت).. حسنًا، لا أستطيع القيام بأداء أفضل».

ازداد ضحكها وقالت: «يا إلهي، كيف لي أن أرفض بعد هذا؟».

«باستطاعتك ألا تفعلي، كما آمل».

تخلل ضحِكُ (كيت) ابتسامة.

وعَلا صوتٌ واحد في رأسي: «أرجوك يا (جاك)، لا تُفسد الأمر، أرجوك».. ثم أخذت بعين الاعتبار معرفتي لنفسي وأن الأشياء الجيدة لا تجد طريقها إليّ، صرت أقول: «أو على الأقل لا تفسد الأمر بهذه السرعة.. تماسك نفسك يا (جاك)، تماسك قدر المستطاع».

«عليّ أن أذهب فعلًا».. نظرت إلى ساعتها مجددًا وقالت: «يجب أن أسلّم وظيفة ضخمة بعد أقل من أربع وعشرين ساعة، ولم أنهِ قسم القراءة حتى.. كما أنه عليك أن تعود إليّ....».

«إيليتاون»، قلت.. «بلدة «إيليتاون» عمليًا.. لأنني أحيا من أجل الناحية العملية.

«هذا صحيح»، قالت ومن الواضح أنها لا تعرف مكانها.. «لا بد أن لديك دوامًا مدرسيًا أيضًا، وأهلُك؟».

ضحكتُ متمنيًا لو كان بإمكاني الظهور بمظهر العابث والعصري، ومدركًا استحالة ذلك، وقلت: «الثانوية أمر بسيط، ما من مشكلة.. ووالداي رائعان ومتحرران.. كما أن الدوام المدرسي لن يبدأ حتى صباح الأحد، ونحن سنعود بعد ظهر اليوم».

«حسنًا».. قالت متبسّمة.. «سُررت للقائك يا (جاك كينغ).. أتمنى لك سنة تخرّج موفقة، استمتع بها، اتفقنا؟».. مدّت يدها نحوي.

«سأبذل قصارى جهدي يا (كيت)».

«أعرف أنك ستفعل».. تركت يدي واستدارت مستعدة للرحيل.

لكنها توقفت واستدارت قليلًا نحوي، وتبعثر شعرها حول خدّيها وقالت: «(جاك)».

•«ماذا؟».

•«لا تخف، واغتنم الفرص.. وحين لا تنجح في ذلك، حاول مرة أخرى».

تساءلتُ إن كانت تقصد أن أفعل ذلك الآن، كما لو.. لتقول: «(جاك)، اغتنم فرصتك معي في هذه اللحظة».. لكنني لم أتحرك من مكاني.. لم تجفل عضلة في جسدي ولم يرفّ لي جفن، حتى كان ليحسدني مقدّمو عروض الإيماءات. ودخلت (كيت) بناء السكن، من خلال الجدار الزجاجي، وفجأة استدركت أمرًا.

ضربت الزجاج، فاستدارت (كيت) متفاجئة وعلى وجهها علامات التعجب، صِحت: «كيف أتواصل معك؟».. ضاغطًا شفتيّ على الجدار الزجاجي حتى تكاثفت سحابة من البخار على الزجاج.

ابتسمت قائلة: «لا تقلق، سنتقابل مجددًا».

بعدها رحلَت ببساطة.

وراودني شعور لم أستطع تجاهله، بأنها لن تكون آخر مرة.. أراقبها بينما ترحل.

•••

يوم الأحد الممتع

كنتُ أخطط للتسلل إلى السكن، الذي كنت مقيمًا فيه، إلا أنني نسيت رمز الباب الخارجي، فاضطررت إلى رن الجرس وإيقاظ مُضيفي، (ألبيرت)، الذي أُرغم على مفارقة سريره والنزول عن سلّم مؤلف من ثلاث رحلات باردة.. لم ينظر إليّ حتى، بل فتح الباب بما يكفي لأُدخل قدمي، وهو يتمتم أشياء تتعلق بـ»صداع هائل»، و»المسؤولية».

دخلتُ إلى الغرفة خلفه، حشر نفسه تحت ثلاث طبقات من الأغطية، ورميتُ نفسي في كيس النوم الخاص بي.

لكن النعاس لم يراودني.. إطلاقًا.

وصار دماغي مضمارًا تتسابق فيه الأفكار.

كدت أندَه (ألبيرت) لأسأله إن كان يعرف (كيت)، وإن كان يفعل، فما مقدار معرفته بها؟

هل لدي فرصة؟ أقلّ فرصة؟

سأسعَد بالقليل.

لستُ طماعًا، القليل من الأمل كافٍ.

لكنني سمعتُ صفيرًا قادمًا من شطيرة الأغطية النائمة، فاحتفظت بأسئلتي لنفسي.. رنّ هاتفي في جيبي، صوتُ الإشعار برسالة، تخيلتُ لوهلة أن تكون قادمة من (كيت)، إنها تريد أن تراني الآن، وأنها تنتظرني خارج المهجع، ولتذهب الدراسة والنوم الهانئ إلى الجحيم.. لكنها بالطبع لم تراسِلني، فهي لا تملك رقمي.

جيليان: مرحبًا، هل أنت نائم؟

أنا: لا، أنتِ؟

جيليان: لا كما هو واضح هاها، ماذا تفعل؟

أنا: لا أستطيع أن أنام، أفكّر.

جيليان: بم؟ دعني أحزر.. بالشخص الذي تشاركتَ معه النبيذ!

أنا: كما لو أنك تعرفينني.

جيليان: ما اسمها؟

ترددتُ قبل أن أجيب.

أنا: (كيت).

جيليان: (جاك) مغرم بـ(كيت)، (جاك) مغرم بـ(كيت).

أنا: هذا طفولي للغاية.

أنا: كأننا في روضة الأطفال.

جيليان: ها! اعترف أنك مغرم بها!
أنا: هل استمتعتِ بوقتك البارحة؟
جيليان: نعم، لكنني أردتُ أن أقضي معك وقتًا أكثر.
أنا: كنتِ جميلة الحفل.
جيليان: بالكاد! ظللتُ أراقبك، أردتُ أن نتمشى قليلًا، وحين كدتُ أنتهي من العمل في المطبخ، كنت تستعد للاختفاء يا هوديني.
أنا: تعرفين أنني لا أعرف كيف أحتفل.. أنا آسف.
جيليان: لا تعتذر، يسرني أنك قضيت وقتًا ممتعًا.
جيليان: وبالتأكيد تعرف كيف تحتفل!
أنا: هل تكلّمت مع (فراني)؟
جيليان: إنه مستاء لأنه لم يستطع المجيء معنا.
أنا: نعم، بعث إليّ ٢٠ رسالة.
جيليان: ٢٠ فقط؟ هاها.
أنا: على أقل تقدير.
جيليان: أقل تقدير ممكن، بالطبع.. بدأت أنعس، محادثة لطيفة، شكرًا.
أنا: في أي وقت.
جيليان: نَم أيها العاشق! سنرحل بعد ساعات معدودة!
أنا: تصبحين على خير يا (جاي).
جيليان: تصبح على خير يا(جاي).
كدت أُقفل شاشة هاتفي، لكنني ضغطتُ أيقونة زرقاء بدلًا، وحدّدتُ خيار البحث، وكتبتُ «(كيت)».
لكن ما اسم عائلتها؟ ومَض المؤشر مستعجلًا إياي.. لم أستطع أن أتذكّر اسم عائلة (كيت)، أو تذكُّر إن كنتُ أعرفه أصلًا، فبحثتُ عن اسم «(كيت)» بكل الأحوال، مضيفًا «جامعة ويتير» لتضييق نطاق البحث، لكن لم يحالفني الحظ مع «فيس بوك» في ذلك الصباح، وبقيت (كيت) لغزًا بالنسبة لي.
وليزداد الطين بِلة، صفير (ألبيرت) المزعج قليلًا، تطوّر إلى أصوات أشبه بحشرجة الموت، وعرفت أنّ اجتماع شخيره مع انشغال دماغي المتزايد بـ(كيت)، سيحرماني من النوم.. حدّقت في السقف، ثم في النافذة، وتساءلتُ إن كانت (كيت) تقوم بالمثل، تنظر نحو سقف ملطخ باللون البني ونقشة الفوشار، شبيه بهذا، وتحدّق في ذات السماء، في شمس الصباح الباكر ذاتها، وتفكر بي.

ولستُ متأكدًا متى أغمضتُ عينيّ في النهاية.
لستُ متأكدًا من أي شيء.

•••

«استيقظ».. قالها ملحّنةً شخص ما فوقي.. حاولتُ فتح جفوني، لكن لم تساعدني عضلات عينيّ، أرادتا المزيد من النوم أيضًا.

«هيا يا (جاك)».. قالت (جيليان)، وهي تفتح سحاب كيس نومي قائلة: «علينا أن ننطلق، تعرف أن أمي تكره أن أقود في الظلام».

«كم الساعة؟».. سألتُ وعيناي لاتزالان مغمضتين.

«الثانية».

«الثانية صباحًا؟».. قلتُ متعجبًا ومستدركًا في الحال أن ذلك غير منطقي، لكن كنت أعاني من التّوهان الذي يرافق بداية الاستيقاظ.

«بل بعد الظهر.. لا أظنك خرجت من الحفلة قبل الثانية صباحًا».

«أين (ألبيرت)؟» قلتُ وأنا أنظر نحو كتلة الأغطية الشبيهة بالسيول الثلجية على الأرض بجانب سريره.

«غالبًا يقوم بدوره كبشريّ فعّال في مكان ما».

«جسدي بأكمله يؤلمني».

«هذا طبيعي أيها العاشق.. اسمع، انهض واستحمّ لأن رائحتك شبيهة برائحة الصبيان الصغار، كما أنه عليك أن تستيقظ، إن أسرعنا فسنكسب وقتًا لتناول لطعام في مركز الطلاب، وتعبئة الوقود قبل أن ننطلق على الطريق السريع المؤدّي إلى المنزل».

كانت رؤيتي لاتزال ضبابية إلا في المركز، حيث كانت (جيليان) تحوم فوقي مثل ملاك ما بعد الظهر، وكانت قلادتها تتأرجح ذهابًا وإيابًا فوق ذقني، قلادة النخلة الفضية التي أهديتها إياها في عيد ميلادها الأخير، وأنا أقول لها: «لا أحد يحب الشاطئ كما تفعلين، والآن ستحملينه معك دائمًا»، وراقبتها وهي تفتح العلبة الرقيقة، مع تعبير وجه غير مألوف، وكان ذلك غريبًا لأنني كنت أظن أنني أعرف كل تعابير وجهها.. قلتُ حينها خجلًا دون أن أنظر نحوها: «هذا سخيف للغاية، أليس كذلك؟».. لكنها طبعت قبلة رقيقة على خدي قائلة:

•«على العكس تمامًا».

•«لكننا لا نستطيع الرحيل الآن، هناك شيء على فعله».

•«أعتذر يا فتى، ليس لدينا وقت».

•«سوف أُسرع، أعدك بذلك».

ابتسمت (جيليان) ابتسامة عريضة وقالت: «(جاك)، نحن الفتيات لا نحب أن يكون ذلك الشيء سريعًا».

«أنتِ مضطربة».. قلتُ وأنا أرمي وسادتي نحوها، لكن (جيليان) تجنّبتها، فحلّقت في الغرفة دون أذية.

«استحمّ يا جاك».. هتفَت وهي تقف على قدميها، «ومن المحتمل عندها أن نكسب بضع دقائق لنطارد حبيبتك الجديدة».

كان أسرع حمام في حياتي.

حسنًا، لعل ذلك مبالغ به، لكنه بالتأكيد كان أسرع حمام هادفٍ في حياتي.

•••

«كيف سنجد المدعوة (كيت) إذًا؟».. قالت (جيليان). كنا واقفين في ساحة الكليّة أو على الأقل هذا ما ظننته، فقد كنا واقفين في جزء مزدحم من حرم الجامعة، وبدا ذلك غريبًا لأنه كان يوم أحد، لكن ما أدراني بكيفية قضاء الجامعيين لعطلة نهاية الأسبوع؟ كان الطلاب متوزعين على المساحات الخضراء، بعضهم يقرأ باستخدام أجهزتهم اللوحية، وقِلّة منهم يحملون كتبًا حقيقية، وبعضهم يتحدثون على هواتفهم، وتبادَل شابّان رمي قرص «فريزبي»، بينما أدّت فتاة سلسلة من الشقلبات الهوائية بخفة فصفّق أصدقاؤها بحماس.

«سأتعرّف على البناء حين أراه».. قلتُ لـ(جيليان)، «إنه مكسو بالزجاج، والحجر، وهناك باب أمامي».

ضربت على رأسها قائلة: «ظننتك رافقتها إلى منزلها».

•«لقد فعلت».

•«ولا تتذكر مكان سكنها الجامعي».

•«كنت أفكر بأمور أخرى».

•«حقًا؟ مثل ماذا؟».

هززت كتفي دون مبالاة.

غمزتني قائلة: «بمَ كنت تفكّر إذا؟».

•«لم أكن أفكر... بذلك الأمر!».

•«لا تستطيع حتى تسمية الأمور بمسمياتها.. يا للهول يا (جاك)، لا أصدق أنك لم تأخذ رقمها على الأقل».

•«أعرف، ما من داعٍ لقول ذلك»، قلت ثم استدركت: «هوثورن».

•«ماذا؟».

•«هذا اسم مسكنها الجامعي، كما أظن».

دققت (جيليان) في خريطة الجامعة ذات الثلاث طيّات ثم قالت: «آسفة، ليس هناك سكن باسم هوثورن».

«اللعنة».. قلتُ، بينما جنَح قرص «فريزبي» عن مساره واستقرّ عند قدميّ.. ناداني اللاعبون لأرميه إليهم، فاستجمعت كل مهارتي ورميتُه، ثم راقبته، وهو يحلّق ما يقارب العشرين مترًا من فوق رؤوسهم.

قال أحدهم ساخرًا: «شكرًا».

لكن حنى حماقتي مع قرص «الفريزبي»، لم تكن مهمة، لأن كل ما أردتُه هو أن أرى (كيت).

حاوطت (جيليان) كتفيّ بذراعها قائلة: «لكن هناك هوكثورن».

«أنتِ تعبثين معي، أليس كذلك؟ أرجوكِ قولي إنك لا تعبثين معي».

قالت مبتسمة: «أحب فعلًا العبث معك، لكنها كانت لتكون مزحة سيئة للغاية».

«أحبك».. قبّلتها على خدها.. «أحبك كثيرًا».. انتزعتُ الخريطة من بين يديها وركضتُ نحو ما كنت أظنه ساحة الكلية.

نادتني (جيليان): «لا تترك من سيوصلك إلى البيت وراءك!».

لكنني كنت أشقّ طريقي نحو سكن «هوكثورن» الجامعي.. وبالطبع، حين وصلت، لم أجد (كيت).. قالت لي زميلتها في الغرفة إنها «خرجت لتدرس».. وحين سألتها إن كان لديها فكرة عن مكانها، أجابت بالنفي وهي تُعيد وضع سماعاتها.. ثم سمعتُ أحدًا ينادي باسمي.

«(جاك)، ماذا تفعل هنا؟».. كانت (كيت)، جميلة ومشرقة كعادتها.. كان شعرها الأسود مشدودًا نحو الخلف، وتناثرت بضع خصلات مجعدة عند صدغيها.. كانت مثالية.

تشنّجت حنجرتي وتأتأتُ قائلًا: «أبحث، أبحث عنكِ».

«ظننتُك عُدت إلى بلدتك».. قالت مبتسمة.

«أردتُ أن أودّعك، وأن أقول.. لكِ.. كم أنا.. البارحة كانت جدًا.. رائعة.. أقصد، عظيمة. كانت رائعة وعظيمة.. وأردتُ أن أعطيكِ معلومات التواصل معي، إن كنتِ ترغبين بذلك؟».

دخلَت إلى غرفتها وعادت مع قلم وورقة.

«بإمكاني أن أبث لك برسالة، إن أعطيتني رقمكِ».

ابتسمَت قائلة: «يا لها من حركة سلِسة يا (جاك)، أنا متأكدة من أن فتيات بلدتك مغرمات بك».

ضحكتُ وقلت: «على العكس تمامًا».

«أفضّل القلم والورقة.. هناك شيء شاعريّ في الكلمات على ورق حقيقي».

أشرتُ برأسي، لأنني أحب الورق بدوري، وبالأخص الورق الذي يجعل (كيت) تقول «شاعريّ». «العودة إلى التفاصيل التقليدية، أنا مُعجب».. قلتُ بطريقة هزليّة وكأنني أتقصّد أن أبدو غبيًا.

ضحكَت، وكان عليّ أن أفترض أنها تضحك بسبب سخافتي.

كتبتُ رقمي وعنوان بريدي الإلكتروني مسرعًا، فأخذتها مبتسمة: «سرَّني أنك أتيت، ستكون مقابلتك في الجامعة السنة المقبلة أمرًا رائعًا.. قد نتناول المزيد من حبوب الفطور من ناس غريبين».

- «يروقني ذلك».
- «أنا أيضًا».

ولا بد أنّ تعبيرًا ظهر على وجهي، لأنها أضافت: «بمَ تفكّر؟».

- «بصراحة؟».
- «بصراحة».
- «السنة المقبلة بعيدة».

بقينا صامتين لعدة ثوانٍ، حتى ضحكت زميلتها في الغرفة، كانت سماعاتها مرخيّة على رقبتها، ثم ضحكت (كيت)، وعرفتُ أنه عليّ أن أرحل. لوّحتُ بيدي بضعف مودّعًا ثم اتّجهت نحو المخرج، وتمنّيت لو كان لدي جملة حكيمة أقولها لها مع الوداع.. شيء مثل «تذكّري ألا تخافي من اغتنام الفرص يا (كيت)».. لكنني لا أملك أية حكمة، ثم استدركتُ أنني لم أكتب اسمي على الورقة.. ماذا لو نسيَت لمن معلومات الاتصال تلك ثم رمَتها؟ ماذا لو أرادَت الاتصال بي أو مراسَلتي بالبريد الإلكتروني، ثم غيّرَت رأيها؛ لأنها لا تذكُر اسمي؟ (أعرف أن الاحتمال الثاني غير مرجّح).

استدرتُ ببطء قائلًا: «أظنني نسيتُ أن أكتب اسمي..».. فرفعت (كيت) دفترها، كانت قد كتبت اسمي ورسمت خطوطًا محيطة به.. اسمي، مسلّطًا عليه الأضواء من قِبل خطوط أحادية الأبعاد، على دفتر (كيت)، بين يديها، وللمصادفة، في تلك اللحظة، بالقرب من قلبها.

مالَت نحو الباب وقالت: «قُد بحذر يا (جاك) المحارب».. احمرّ خداي، وأومأت برأسي، ثم بذلتُ كل جهدي في التركيز على المشي دون أن أتعثّر.

ركَنَت (جيليان) السيارة أمام سكَن «هوكثورن».. جلستُ في المقعد الأمامي، وأوقفتني قبل أن أضع حزام الأمان.

«لا،» قالت، «لقد تركتني وحيدة هنا، قُل لي على الأقل أن ذلك لم يكن عبثًا».

لكنني كنتُ كمن وقع في غيبوبة، أو كمن أحكِم إغلاق شفتيه بأحدث التقنيات، وما عاد بإمكانه التحدث عن أي شيء.

«مرحبًا، نداء إلى (جاك كينغ)،» قالت (جيليان).. «كيف جرى الأمر؟».

كنت أسمع طنين أذنيّ، وشعرتُ أنني متوهّج لدرجة أنني ولو كنت واقفًا على الشاطئ، لكان باستطاعة السفن استخدامي لتجنّب الارتطام بالصخور.

«لقد جرى».. أجبتُها. «المؤكّد أنه قد جرى».

ولا يهمني كيف.

•••

في رحلة العودة إلى المنزل، كانت جامعة «ويتير»، محور حديث (جيليان)، إنها متشوقة لإنهاء الدراسة الثانوية، وللبدء بحياتنا الجامعية الجديدة.. إنها متأكدة من أننا مُقبلان على أهم مرحلة في حياتنا، وظلّت تردد أنها «سنواتُ تكويننا»، إنها سعيدة للغاية لأننا سنخوض ذلك معًا، وأنها لا تستطيع مشاركة تلك التجربة مع شخص آخر.. كدتُ أسألها «ماذا حبيبك وصديقي المقرّب (فراني)؟».. لكنني كنتُ مأخوذًا بفرحة جامعة «ويتير» بدوري، لذا تركتُها تتابع حديثها الشّغوف بلا مقاطعة.

لكن الحديث قادها إلى (فراني) بكل الأحوال.

«أشعر بالأسى تجاهه؛ لأنه لم يستطع القدوم».. قالت (جيليان).

«منذ انتقل إلى ثانوية «إليتاون» معنا، حاول كثيرًا رفع علاماته، يستحق فرصة».

وكانت محقة، أحيانًا أنسى كم عمِل (فراني) بجدّ، ومازال.. قبل أن تتولى (جيليان) أمر توصيله بسيارتها، كان يقضي أربعين دقيقة في باص المدينة، في طريق الذهاب فقط إلى المدرسة.. من الغريب أن السكن في أقل من عشرين كيلومترًا، يجعل كل شيء، المدارس والبيوت والمتاجر، مختلفة كما لو أنها من عالم آخر.. وقد تنقّل (فراني) ما بين العالمي خلال السنوات الأربع الماضية.

«الأمر مزعج، لكن مازالت فرصة قبوله قائمة».

«فرصة ضئيلة».

«ستيت» جامعة جيدة، ولديهم برنامج رياضة أفضل بكثير، وأعرف أنه مهووس بذلك.. كما أننا سنكون على بعد أقل من عشرين كيلومترًا عن بعضنا، وهكذا يستمر ثالوث صداقتنا».

«صحيح».. قالت(جيليان)، لكنني شعرتُ بأن شيئًا ما يزعجها.

«هل أنتِ على ما يرام؟».. سألتُها.

«كل شيء يتغير بسرعة، أقصد، أنت مثلًا، مضت نهاية الأسبوع، وها أنت تواعد فتاة جامعية منذ الآن».

«لم نتواعد».

«هذا غريب وحسب، ما الذي سيتغيّر أيضًا؟ من الغريب أن كل الأشياء التي نظنّ أننا نعرفها، الأشياء المؤكدة، تصبح غير مؤكدة فعلًا».

«ما الذي تتحدثين عنه بالتحديد؟».

عبثَت (جيليان) بأزرار على المِقود وسألتني: «هل ستكلّمها إذًا؟».

«أكلّم من؟».

رمقتني (جيليان) بنظرة استنكار.

«لا أملك رقمها».. نظرتُ نحو النافذة في الوقت المناسب لتمرّ عائلة من الغزلان أمام ناظري بمشهد سريع.

«وحتى لو كنت أملكه، لا أريد أن أبدو يائسًا».

ضحكت (جيليان) قائلة: «ألستَ كذلك؟».

«أنتِ!».

«أعبث معك.. أنت لا تدرك الأمر، لكن هناك الكثير من الفتيات المعجبات بك لدرجة خيالية في «إليتاون»، وأنت لا تدرك ذلك».

ضحكتُ وقلت: «إن كنتِ تقصدين أنّهن خياليات، فأنتِ محقة، لم أنتبه».

حافظَت على تعبير وجهها جامدًا، وحدّقَت في الطريق أمامها: «أتكلّم بجدية، أنت فقط لم تعطِهنّ فرصة».

لم أعرف ماذا أقول؛ لأن (جيليان) تعرف أن ذلك غير صحيح، تعرف أكثر من أي شخص آخر لأنني أخبرتُها، ولأنها كانت أول الحاضرين لمسرحية «كيف انكسر قلب (جاك)». والعارفة بكل ما يجري وراء الكواليس أيضًا.. بحتُ لها عن شعوري الهائل بالوحدة مرارًا، والآن تدّعي أنني أُخبّئ «كازانوفا» تحت جلدي.. بالطبع خضتُ عدة علاقات عاطفية، لكنها لم تستمر.. كان بالي مشغولًا بشخص لا يمكنني أن أكون معه، بشخص لم يرغب بي بدوره.

«يبدو أنك لا تدرك مدى روعتك يا (جاك). أنت رائع فعلًا، وذكي ومضحك وشاعريّ بطريقة ليست مزعجة، بل محببة للغاية».

«محببة؟».. يبدو هذا مديحًا تقوله الجدّات... يا للروعة يا (جاك)، أنت محبب للغاية».

«أتكلم بجدية.. هل تستطيع أن تكون جادًا لمرة لعينة واحدة؟».

«على رسلك»، قلتُ وأنا أرفع يدي كما لو لأعلن استسلامي.. «ما المشكلة؟».

مدّت يدها لتعدّل مرآة الرؤية الخلفية وقالت: «لا شيء، لا شيء على

الإطلاق».

«هل هذا بسبب (كيت)؟».

قالت ساخرة: «هل تعرف اسم عائلتها حتى؟».

رفعت صوت الراديو، وكدتُ أُخفضه، لكنني تمالكتُ نفسي؛ لأنني لستُ واثقًا من سبب انزعاجها، أو كيف احتدّ النقاش بهذه السرعة.. كنا نخطط لحياتنا الجامعية معًا، وفجأة ما عادت تستطيع النظر إليّ حتى.. ولوهلة تركتُ أفكاري تأخذني إلى احتمال محدد.

لكنني ألغيتُه حالًا، لأن البشر لم يكتشفوا بعد الكوكب الذي تحبّ فيه (جيليان) (جاك). غِصتُ في مقعدي محاولًا الاسترخاء مع الموسيقى، والاستمتاع بالطريق.. كانت (جيليان) تقود السيارة أسرع من العادة، ووصلنا قبل الوقت المتوقع.

أخذتُ حقيبتي من المقعد الخلفي وقلت: «أراكِ غدًا صباحًا».

«حسنًا»، قالت وهي تهيّئ السيارة للعودة للوراء قبل أن أتمكّن من إغلاق الباب، «فلنعُد إلى حياتنا الرائعة في المدرسة الثانوية».

«ابعثي لي رسالةً لأطمئن أنك وصلتِ إلى منزلك سالمة».

أومأت برأسها وقادت سيارتها بعيدًا عن ممر السيارات.

كنتُ بالكاد قد أدخلتُ مفتاحي في الباب، حين سحبني والداي نحو المنزل وأمطرا عليّ أسألتهما.. وبعد أن أرضيتُ فضولهما وتناولتُ العشاء الذي أعدّته أمي، استقررتُ في سريري وفتحتُ هاتفي، لأجد رسالة وحيدة من (فراني): «أهلًا بعودتك».. ولا رسائل من سواه.

«شكرًا، سعيدٌ لعودتي».

شعرتُ بالأسى تجاه (فراني)، وأنّبني ضميري أيضًا، ولم أفهم تلك المشاعر لأنني لم أقم بأي شيء سيئ.. قد فكّرتُ بأمر الاعتراف لـ(جيليان) بخصوص مشاعري المتّقدة لها، لكنني لم أفعل شيئًا.. وعدم القيام بالأفكار السيئة أمر جيد على ما أظن.

فتحتُ محادثتي مع (جيليان) وكتبتُ: «هل وصلتِ إلى منزلك سالمة يا (جاي)؟».

ورأيتُ النقاط الثلاث، التي تُشير إلى أنها تردّ على رسالتي بعد ثانية، لكن لم يصلني شيء، لم تردّ.

ولعلّ صمتها أبلغُ من أي شيء.

التفكير الزائد بخصوص التفكير الزائد

أمضيتُ الأيام الثالثة التالية في انتظار رسالة، أو بريد إلكتروني، أو اتصال من (كيت). تفقّدتُ بريدي الإلكتروني (لا شيء سوى البريد العشوائي)، وأرسلتُ

بضع رسائل للتأكد من أن هاتفي يعمل (تبيّن أنه يعمل)، وتفقّدتُ هاتف المنزل الأرضي، رغم أنه من المستحيل أن يكون رقمه مع (كيت) (ما كنتُ لأعرف)، ولم يصلني أي شيء.. لا بد أن من قال إن الصمت يصمّ الآذان، كان ينتظر أن تتصل به (كيت) هو الآخر.

ولزيادة بِلة الطين الذي أسبح فيه مثل الفاشلين، عرضُ (جيليان) الذي تُقيمه تحت عنوان «أنا منزعجة من (جاك) للغاية».. لايزال يُعرض في كل المسارح، ولا يبدو أنه سيتوقّف قريبًا. حاولتُ أخذ مشورة (فراني)، لكن لم يكن ذا فائدة، كل ما قاله كان: «كانت غريبة منذ عدتما، هل حدث شيء ما هناك؟».

أسوأ ما في الأمر هو أن (جيليان) موجودة في كل مكان، نحضر أربعة صفوف معًا، وأجدها في قاعة الدراسة، وتوصلني أنا و(فراني) من وإلى المدرسة، مما يعني أنني أتعرّض لجرعات مكثّفة من صمتها المطبق، وهو بالتأكيد أكثر الأشياء صخبًا من بين كل ما خبِرتُه في حياتي.

رجُوتُها لتكلّمني، ولم تنبس ببنت شفة.. حين تركُن سيارتها عند الرصيف المقابل لمنزلي، أحرص على أن أضع رزمة نقود لا بأس بها في منفضة سجائرها مقابل الوقود، وأجد الأوراق النقدية محشورة في الجيب الأمامي ذي السحاب لحقيبة ظهري.. توقّفت عن الرد على معظم رسائلي، وحين كانت تفعل، فكانت ردودها مؤلفة من كلمة ضئيلة واحدة، وهذه تصرفات من يريد أن يقول «اتركني وشأني أيها الوغد»: نعم.

لا أعرف.

ربما.

لا.

وفي النهاية، ذهبتُ إلى منزلها دون موعد، ومعي بسكويت الشوكولا المفضّل لديها، والفيلم الذي نعتبره متعة محرمة، «مغامرة مجالسة الأطفال».. فتحَت (جيليان) الباب بما يكفي لتُخرج رأسها فقط، لم تبدُ سعيدة لرؤيتي على الإطلاق.

«ماذا تفعل هنا؟».

«أردتُ أن أراك وحسب،» قلتُ.. وحين لم تتزحزح، قدّمتُ لها البسكويت قائلًا: «أتيت في سلام».

«هذا ليس وقتًا مناسبًا».. قالت وهي تستعدّ لإغلاق الباب.

«(جاك)، هذا أنت؟».. قال صوتٌ داخل المنزل.. «(جيليان)، دعي (جاك) يدخل».

«أمي».. قالت (جيليان) معترضة.

فُتح الباب، وكان الظلام مطبقًا في البيت، حتى جاءت السيدة (آندرسون)،

مرتدية ثوبًا بلون أزرق مخضرّ ورافعة شعرها الغامق، ومعها شمعة مشتعلة، وقالت: «لا أظن أن (جاك) يخاف من الظلمة، صحيح يا (جاك)؟».

أومأت برأسي دون أن أفهم تمامًا ما الذي يجري، إلا أنني قد أوافق على أي شيء تقوله السيدة (آندرسون)، لسببين، الأول هو لكنتها الإيطالية الساحرة، والثاني هو أنها واحدة من أنقى الناس الذين قابلتهم في حياتي.

«ادخل، ادخل»، قالت السيدة (آندرسون) وهي تستخدم شمعتها لتضيء أخرى وتعطيها لي. تبعناها أنا و(جيليان) إلى المطبخ، وبأيدينا شمع كالمشاعل الصغيرة، وزحفت ظلالنا على الجدران متكسّرةَ الأضلاع.

«انقطعت الكهرباء عن منزلكم؟».. سألتُها.

لم تُجب (جيليان)، لكن أساها كان واضحًا حتى في الظلام.

«تظنّ شركة الكهرباء أننا لم ندفع الفواتير، لكنني فعلتُ».. قالت السيدة (آندرسون)، ثم تنهّدت ووضعت يدها على رأسها قائلة: «مال بالي مشغولًا بالكثير من الواجبات، ولعلّني تأخرتُ في الدفع قليلًا، إنما ليس لدرجة...» وتقطّع صوتُها.

أومأتُ برأسي كما لو أنني فهمتُ وقلتُ: «أمور كهذه قد تحصل».

«لكن هذا رائع»، قالت السيدة (آندرسون) بتلقائية، «الحياة من دون إنترنت أو تلفاز أو...».

قاطعَتها (جيليان): «أو ماء ساخن، أو براد، أو فرن».

«كنتُ سأقول دون «مُشتَّتات» يا (جيليان)، وأخبرني العمال في شركة الكهرباء أنهم سيعيدونها الليلةَ في السادسة».

«تكاد تكون الساعة الثامنة، متأكدة من أنك اتصلتِ بهم؟».

«ما الذي تقصدينه؟ أخبرتك للتو أنني اتصلتُ بهم».

«صحيح، حسنًا»، قالت (جيليان).

شعرتُ فجأة بأنه لا يجدر بي التواجد هناك، وخطر لي أن (جيليان) قد لا تكون منزعجة بسببي إطلاقًا، وأنها كانت تمرّ بمشاكل أكبر دون أن ألاحظ ذلك.

عبسَت السيدة (آندرسون) قائلة: «ما قصدك؟ قلتُ لك إنني اتصلتُ بهم و...».

«حسنًا يا أمي».

قالت السيدة (آندرسون) بصوت خافت: «كلنا نرتكب أخطاءً يا (جيليان)».

«أمي».

«حتى أنتِ».

«أمي!».

«أعرف أنني لستُ مثالية، لكنني أحاول، أحاول ما بوسعي يا (جيليان)».
رقّ صوت (جيليان) وقالت: «أعرف أنك تفعلين يا أمي، أعرف».
تبادلتا النظرات في المطبخ المُضاء بالشموع، حتى أنهَت السيدة (آندرسون) الصمت قائلة: «اشتريتُ مؤخرًا صابونًا رائعًا من متجر والدتك يا (جاك)، كيف حالُ والديك؟».
وقبل أن أُجيب، لمعت الأضواء عدة مرات، ثم أُنير المنزل وعاد للحياة، وعَلت ضجة الآلات.. قالت السيدة (آندرسون) وهي تُشير إلى ضوء السقف وتداعب شعر (جيليان) بأصابعها: «هل رأيتِ يا عزيزتي؟ أخبرتُكِ أنني سأهتم بك دائمًا».

•••

«كيف حال والدتكِ؟».. سألتُ وأنا متّكئ على طاولة المطبخ، بعد أن كانت قد صعدت السيدة (آندرسون) إلى الطابق العلويّ.
أعطتني (جيليان) وعاءً كبيرًا، وأفرغت فيه فشارًا طازجًا.
«على حالها، تأخذ نصيبها من الأيام الجيدة».
«نعم،» قلتُ وأنا أهزّ الوعاء لأوازن الفشار بداخله، «وكيف حالكِ أنت؟».
نظرَت (جيليان) نحوي كأنني شخص غريب، كأنها قابلَتني للتو وقررت أنها لا ترتاح لي، وقالت: «لا خيار لدي يا (جاك). لا أملك رفاهية التحجج بالأيام العصيبة».
شعرتُ بالغباء لأنني أعرف ذلك، ولأنني أريد أن أحل مشكلة (جيليان)، لكنني لا أعرف ما هي المشكلة حتى، ولو عرفتُ فأنا متأكد من أنني لا أملك الأدوات لحلّها.
«أنا آسف يا (جاي)،» أخليتُ حلقي وسألتُ مترددًا: «هل مازال والدك..».
وضعَت مكعّبي ثلج في كأسَينا ثم قالت: «ظننتُك أتيت لنشاهد فيلمًا».
«هذا صحيح، لكن.. أقصد.. إذا..».
«فلنشاهده إذًا»، قالت ومشت نحو غرفة الجلوس.
كنا في منتصف الفيلم، جالسَين على طرَفي أريكة واسعة، حين ضغطتُ زر الإيقاف المؤقت.
«قل لي إنك لا تريد الذهاب إلى الحمام مجددًا يا (كينغ)».. لا تناديني باسمي الأخير إلا أن كانت متضايقة.
«عليكِ أن تكلّميني يا (جاي)».
شبكَت ذراعَيها وقالت: «ها أنا أكلّمك».

«لا، أنت تتكلمين متجاهلة وجودي، وأحيانًا تعِظينني، لكنك لا تكلّمينني أبدًا.. مهما كان ما فعلتُه فعليك أن تعرفي أنني متأسف للغاية».

ساد الصمت لبرهة، أو أكثر، حتى تنهّدت (جيليان) وقضمت نصف قطعة بسكويت، مضغت ومضغت وحين بلعتها، نظرت نحوي وقالت: «أظنني كنتُ خالدة».. دون أن تتّضح لي الكلمة الأخيرة.

«كنتِ خالدة؟ لا أفهم.»

تنهّدت وقالت: «خائفة يا (جاك)،» ردّدت بصوت خافت وواضح، «لقد كنتُ خائفة.»

«ممّ كنتِ خائفة؟.»

«كل شيء يتغير.»

«ما الذي تغيّر؟.»

«كل شيء». أخذَت نفسًا عميقًا وقالت: «بدأ الأمر مع عائلتي، ويبدو أن ما بيني وبينك يتغير بدوره.. منذ أيام، في رحلة العودة من جامعة «ويتيرخ» خطر لي أنك قد لا تكون بجانبي للأبد.» صمتُّ لأنني كنت أظن أن تلك أشياء لا يفكر فيها سواي.. لطالما بدَت (جيليان) واثقة في نفسها للغاية، وبمشاعرها، لذا كان من الصعب أن أتخيل أنها تعاني من أية مخاوِف.. لكنها ذكّرتني لحظتَها بأنها بشرية وحسب، أننا جميعًا بشر وحسب.

«الأمر غريب».. قالت، «أعرف ذلك.. أنت صديقي المقرب، وستكون كذلك إلى الأبد، لكن أظن أنني رسمتُ تصوّرًا حول الطريقة التي سنقضي بها آخر شهور لنا في الجامعة، أننا سنمضي وقتًا أكثر معًا، وسنقوم بنشاطات السنة الأخيرة سويًا، مثل حفل التخرج، و...وكل هذه الأشياء المبتذلة التي تُفرض علينا لكننا نجد طريقة لنتسلى كما نفعل دائمًا.. ثم نتخرج ونترك كل هذا الهراء خلفنا ونمضي نحو مستقبلنا في الجامعة معًا.. أن نفتح صفحة جديدة، أن تنتهي هذه المرحلة إلى الأبد، لكن.. كنتَ متحمسًا للغاية بشأن (كيت)، لقضاء الوقت معها.. ومن أجلها، رفضتَ تناول البرجر مع صديقتك المقربة».. حاولت أن تضحك، لكنها كانت ضحكة مخنوقة. «كنتَ في قمة الحماس لمجرد احتمال أن تكلّمها.. لا أذكر آخر مرة رأيتك متحمسًا هكذا».

وكدتُ أقول لها، «لو أنك لاحظتِ الطريقة التي كنتُ أتصرف بها حين تكونين بجانبي، كيف كنتُ أتحمس وأفرح لمجرّد التواجد في ذات الغرفة معك»، لكنني لم أقاطعها.

«أظن أن ذلك جعلني أشعر بأنني أعني لك أقل مما كنتُ أفعل، وهذا مؤسف لأنك تعني لي.. أكثر».

اقتربتُ منها، مُقلّصًا المساحة بيني وبينها، وكدتُ أوقع صحن البسكويت أثناء

ذلك، وقلت: «(جاي)، أنتِ أفضل صديقة لدي لأنك أفضل شخص أعرفه، لا شيء سيُغيّر من ذلك».

أدمعت عيناها متأثرة، وكان جانبًا لم أرَه سابقًا، كأنها أصبحت متوترة وغير واثقة بسبب وجودي.

«حقًا؟ هل تعدُني بذلك؟» قالت.

«أقسم بحياتي».

تبادلنا النظرات وتذّكرتُ لمَ أحببتُها (كما لو أنه بإمكاني أن أنسى يومًا).

«(جاك)».

«نعم».

«أنتَ أيضًا أفضل شخص أعرفه».

أعدنا تشغيل الفيلم، وجلسنا على نفس الطرف من الأريكة.. شعرتُ برعشات تنفّسها الهادئة والدافئة.. تذكرتُ ذلك اليوم الذي ارتطمتُ فيه بـ(جيليان)، منذ أربع سنوات، حين أعطتني، أنا الفتى الساذج المهووس بالدراسة القادم من «إليتاون»، فرصة للفوز بقلبها حين قلت: «أعتذر لأنني لم ألحق بك».

فابتسمت: «بإمكاننا أن نعيد المحاولة لاحقًا».

سمعنا طرقة على الباب الأمامي، لكننا لم نتحرك حتى تكرّرَت، نهضَت (جيليان) محرّرة نفسها من بين يديّ لتفتح الباب.. وحين عادت، لم تكن لوحدها.

«ليس هذا الفيلم جديدًا». تململ (فراني).. «لم أصعد على متن وسيلَتي نقل حتى أشاهد فيلمًا مبتذلًا». رمى بنفسه على الأريكة، في المكان الذي كنا نتشاركه أنا و(جيليان) منذ لحظات. جلسَت (جيليان) بجانبه، فشدّها ليضمها بقوة.. ضحك قائلًا: «هل هذه رائحة البسكويت بالشوكولا؟».. وتمامًا حين وضَع (فراني) قطعتي بسكويت بين فكّيه شعرتُ باهتزاز في بنطال الجينز، فسحبتُ هاتفي من جيبي.

«مرحبًا، أعتذر لأنني تأخّرتُ في التواصل معك.. أنا (كيت)».

لوهلة فكرتُ في التأني في الرد، لا أريد أن أبدو متحمسًا أو متعلّقًا بها للغاية، لكنني لا أطيق صبرًا حتى أتحدّث معها.

«لا تأسفي، توقيتُ رسالتك مناسب جدًا».. طمأنتُها.

«من بعث لك برسالة؟».. قال (فراني)، واقتنص الهاتف من بين يديّ بأصابعه الكبيرة.. «أيًا كان، فقد جعلك شاعريًا بطريقة مبتذلة للغاية».

حاولتُ عبثًا أن استردّ هاتفي: «أعِده إليّ».

لكن الوقت كان قد فات، قفز عن الأريكة، وكاد يوقع كأس الحليب الخاص بي، ثم ابتسم متفحّصًا شاشة الهاتف وقال: «أخبرتك أنها سوف تتواصل معك».

ارتفع حاجبا (جيليان): «إنها (كيت)».

«إنها هي فعلًا».. أكّد (فراني).

«رائع».. نظرت نحوي مجبرة نفسها على الابتسام.. «الجميع سعداء الآن».

أعاد لي (فراني) هاتفي وقال: «ماذا تنتظر؟ أطلِق سهامك».

المشكلة في إطلاق السهام.

المشكلة تكمن في أنني سيئ في المبادرة، أنا من النوع الذي ينتظر المبادرات.

وقد يتساءل القارئ: «وهل كان ذلك مفيدًا لك يا (جاك)؟».

وأعترف «مطلقًا».

ولهذا قررتُ أن أجرّب طريقة جديدة مع (كيت).

سوف أبادر.

تبًا للاستسلام للأمر الواقع.

تبًا للجمود.

تبًا لأسلوب الحياة القائم على الحد الأدنى من الجهد.

أطلق سهامك الآن يا (جاك)، أسمعُ القارئ يقول.

اعتبر الأمر منجزًا، عزيزي القارئ.

أمسكتُ هاتفي، وحام إبهامي حول دائرة صورة (كيت) الفارغة، والظل الذي لا يحدد جنس صاحب الصورة، ترددتُ.. ترددتُ طويلًا.

لأن السؤال الذي منَعني عن المبادرة منذ قابلتُ فتاة أعجبَتني في روضة الأطفال، مازال يعذبني بعد أكثر من عقد: «ما الذي من المفترض أن أقوله؟».

قلتُ لنفسي: «(جاك)، تصرّف على طبيعتك.. أو على الأقل تصرف على طبيعتك بالحد الذي تقدر عليه».

كتبتُ: «مرحبًا، أنا في الجوار.. هل تريدين تناول حبوب الفطور معي؟».

حبوب الفطور.

كان عليّ استعارة سيارة أمي، لأن سيارتي بها عطلٌ يجعلها تصدر الدخان، وهذا غالبًا مؤشّر سيئ.

«وأين ستذهب بسيارتي؟».. سألَت أمي.

«للخارج»، قلتُ وأنا أفقد السيطرة على وجهي، الذي يبدو أنه يريد أن يبتسم

ابتسامة واسعة، «سأتناول حبوب الفطور».

رمقتني أمي بنظرة كمل لو لتقول «ما الذي يجري مع ابني؟»، وأعطتني المفاتيح قائلة: «نفد الحليب لدينا أيضًا».

لعله كان عليّ أن أخبرها أنني سأتناول حبوب الفطور على بُعد تسعين دقيقة شرقَ المنزل، لكن إن سألها أبي عني، فستحميها ما تسميه حكومتنا «سياسة الإنكار».

وعلى كل حال، انطلقتُ في طريقي، وتجاوزتُ مسرعًا سيارة دورية على الطريق السريع للولاية متوقفة منتصف الطريق، كنتُ مسرعًا، فإما أنه كان يستريح، أو أنه تفهّم أنني في أقوم بمَهمّة هامّة، لأنه لم يرمش حتى.

أما أنا، فوجدتُ نفسي أركن السيارة بعد رمشة عين واحدة.. بعثتُ لـ(كيت) رسالة تقول: «مرحبًا، لقد وصلت.»

شعرتُ بقلبي يتكوّر ليصبح كرأس قذيفة، ويُشعل فتيلته، لينفجر في صدري كسماء من الألعاب النارية بين ضلوعي.

ولم أكن قد رأيت (كيت) حتى.

مجرد التفكير بها يجعل غدد التعرق لدي تستنفر، ويعلني أغرق في مقعد السيارة الأمامي. تساءلتُ إن كان الوقتُ قد تأخر عليّ أن أنسحب، أن أعود إلى المنزل.. بلى، كنت أريد رؤيتها، بشدة، لكنني لا أريد أن أخرّب ما يجري معها.

إلا أن الطريق كان مليئًا بإشارات طرقية تمنع العودة للوراء.. وسمعتُ نقرة على نافذتي.. كانت هناك، (كيت) ذات الخصلات المجعدة البنية الجميلة.. إنحنت نحو النافذة وهي تُشير لي لأُنزل الزجاج.. حاولتُ، إلا أنه كان عليّ أن أُعيد تشغيل السيارة لأن كل شيء في سيارة أمي يعمل على الكهرباء.. حاولتُ أن أدير المحرك بما يكفي تعمل بطارية السيارة دون إعادة تشغيل السيارة بأكملها، لكن لم ينجح الأمر، لذا أعدتُ تشغيل السيارة، وعبثت بأزرار النافذة عبثًا، لأن أمي قد فعّلت قفل الأزرار المخصص للأطفال، لأنها لا تثق بي أو لوالدي لممارسة فعل بسيط كإنزال زجاج النوافذ.. (كيت) كانت غارقة في الضحك.

اكتفيتُ بفتح الباب في النهاية.

هزّت (كيت) رأسها وسألتني: «هل أنت بخير؟».

الجواب كان «لا»، وكان» بالطبع» أيضًا.

•••

جلبنا وعاءَين، وملاعق، والحليب، وحبوب الفطور، وأخذتني إلى مكانها

المفضل، مكان هادئ بين المنخفضات؛ حيثُ تذهب لتقرأ أو لترسم.. «أتأمل هنا»، قالت، «أو على الأقل هذا ما أُقنع نفسي به لأبرّر الوقت الطويل الذي أمضيه هنا».

تمشّينا في ممشى ضيّق، حيث أحاطنا عن الجانبين جدارٌ من الصخور القرمزية.. وراقبنا المياه تنساب حول أحجار ملساء وهي في طريقها إلى مكان لا نعرفه، بهدوء بالغ.. شعرتُ أنني لن أتوقف عن الإنصات، وأن أملّ حتى لو حدّثتني عن أطراف البيتزا لعشر ساعات. لكننا لم نتحدث عن أطراف البيتزا، إلا لنتّفق على أن كلًا منا لا يحب أطراف البيتزا المحشوة بالجبن، وأننا تقليديون فيما يتعلق بأمر أطراف البيتزا من منطلق أنه لا يجب العبث بالأمور العظيمة في الحياة. وتحدّثنا عن أماكن نشأتنا (أصلها من ضاحية بالقرب من «بيتزبورغ»)، وعن أفلامنا المفضلة (اعترفتُ لها أن «مغامرات مجالسة الأطفال»، الذي عرّفتني عليه، لسخرية القدر، مربّيتي السابقة ذات الستين عامًا، التي كنتُ أناديها «ماو ماو»، وقالت (كيت) إنها تحب فيلمًا شاهدتهُ صدفة يدعى «تربية فيكتور فاركاس»، الذي لم أشاهده من قبل).

«أتحدّاك أن تشاهده دون أن «تبحَك»،» قالت.

«أبحَك؟».

ابتسمت قائلة: «أن «تبْحَك»، أي أن تبكي وتضحكي في الوقت ذاته، وذلك لا يحدث إلا بسبب أجمل الأشياء في الحياة».

«ما الأشياء الأخرى التي تجعلك «تبحكين»؟!

«هذا أمر يخصّني، أما أنت..»، وتجرّعت ما تبقى من الحليب في وعائها، تاركة على وجهها أجمل شارِبِ حليب على الإطلاق، ولم يحرجها ذلك، ولم ترمش حين مسحتُه.

وصارت حبوب الفطور طعامي المفضل.. إنها على الأرجح سبب اختراع الأوعية والملاعق.

•••

الحقيقة والعواقب

بالطبع، حين عدتُ من رحلة حبوب الفطور، لم يكن والداي متحمسَين لسماع المسافة التي قطعتُها من أجل وعاء من الحليب المنكّه اصطناعيًا. «فاتك الغداء يا (جاكي) ما الذي كنت تفعله كل هذا الوقت خارج المنزل؟».. سألتني أمي.

«هناك شيء بخصوص الحليب خارج المنزل..»، هززتُ كتفيّ وقلت: «إنه عضويّ أكثر؟».

«هيّا يا (جاك)».. قال أبي بصوته الأبوي المتفهّم والحازم.
«ذهبت لرؤية شخص ما».. اعترفتُ، «أحد أصدقائي».
تبادل والداي النظرات.
«حسنًا، هل نعرف هذا الصديق؟».. سأل أبي.
«لا، لقد تقابلنا منذ مدة قصيرة».
«لماذا لم تخبرنا وحسب؟».. سألَت أمي وهي تهز رأسها.
أخبرتهم بالحقيقة، لا أعرف.
وبدأ النقاش حول معنى أن أكون جديرًا بالثقة، بل تناقش والداي وأنا أنصتُّ وأمأتُ برأسي موافقًا حيت استدعى الأمر.. ولأن أبي أحد جنود اللغة الإنجليزية، فقد كان دورُه في المحاضرة تحليلٌ في علم الدلالات، «هل تفهم معنى أن تكون جديرًا بالثقة يا (جاكي)؟ معناه أنه عليك أن تستحق الثقة، وبهذا تصبح جديرًا بالثقة».. وأعاد ذلك وبدا الضجر حتى على أمي.
قاطعَت أمي: «إذًا، ما اسمُها؟».
تفاجأتُ: «ها؟».
«لا تعبث معي».. قالت أمي بصوتها الصارم.. إن كان أبي المُحاضِر في هذا العرض، فأمي هي المحقق، «صديقتك الجديدة هذه».
«(كيت)».. قلت.
«و..» قالت أمي.
«وماذا؟».
«حدّثني عن (كيت).. من هي؟ كيف تعرّفت عليها؟ ما هو سجلّها الجنائي؟».
«لم تقم بنشاطات إجرامية على حد علمي.. إنها طالبة في السنة الأولى في جامعة «ويتير». قابلتُها أثناء زيارتي للجامعة».
«فتاة أكبر عمرًا،» قال أبي مشجّعًا وساخرًا، «الابن سرّ..».
قاطعَت أمي أبي بنظرة تهديد فتجمّد وانسحب، وقالت: «(جاكي)، ما يزعجنا أنا ووالدك ليس أنك أخذت السيارة إلى «ويتير»، ولا أنك معجب بتلك الفتاة، بل أنك أخفيت ذلك عمدًا، وهذا ليس من طبعك».. وتجعّد جبينها بطريقة تفضحُ قلقها.
أتفهّم أن الأهل يعيشون في قلق لا ينتهي، ويخيفهم أن أقلّ خطأ يقترفه أولادهم هو خطوة متنكّرة نحو عالم الجريمة، أو على أقلّ تقدير، نحو العطالة الأبدية.. فعلى سبيل المثال، ماذا لو تحوّل تدريجيًا فعلٌ مثل أنني استعرتُ سيارة أمي وقُدتها تسعين دقيقة بعيدًا عن المنزل، إلى سرقة السيارات حين يصبح ثلاثة وعشرين عامًا، وانتهى الأمر بي مُطاردًا من قبل الشرطة على

الطريق السريع، لأصل إلى أنبوب صرف صحي كبير، حيث أعيش كملك وجرذ كريه الرائحة؟ أو ماذا لو أدّى تجاوزي لموعد حظر التجوال خارج المنزل إلى عجزي عن إيجاد وظيفة بأجر جيد ومكوثي في سقيفة منزل والديّ حتى الثلاثينات من عمري، برفقة صديقي الخيالي (أوتيس)؟

أتفهّم الأمر.

«لذا، كعِقاب لك، قررنا أنا ووالدتك أن..».. نظر أبي إلى أمي لتقييم مدى توافق الجريمة مع العقوبة.

«وضعك تحت المراقبة».. قالت أمي.

«نعم، وضعك تحت المراقبة».. أكّد أبي، «وهذه طريقة أخرى لقول إنك في وضع خطِر، أي أنّ أيّ خطأ آخر تقترفه في الأسابيع المقبلة، سيعني حرمانك من هاتفك، ومن الحفلات، ومن..»..

«الحياة»، أكملتُ جملته، «فهمتُ قصدك، شكرًا على الحكم مع وقف التنفيذ».

«لا تشكرنا الآن، يتضمن العقاب خدمةً مجتمعية أيضًا».. قال أبي.

قاومتُ أن أتأوه متململًا.

نظر والداي إلى بعضهما مرة أخرى، لإعادة تأسيس التخاطر بينهما على ما أظن، وقالت أمي وهي لاتزال تقرأ وجه أبي: «هذا صحيح، سيكون عليك أن تجزّ العشب في حديقة السيدة (نولان) لمدة شهر..».

«وهذا يتضمن تنظيف فضلات كلابها».. قال أبي.

فتأوهتُ متململًا حينها.. السيدة (نولان) لطيفة، لكنها لا تستخدم مجرفة تنظيف الفضلات، كمية الفضلات أكبر من العشب في فنائها.

«جنَيت على نفسك أيها الفتى».. قالت أمي.. تنهّدتُ.

«تعلم أنه بإمكانك دعوة أصدقائك إلى المنزل يا (جاك).. نريد أن نتعرّف على الأشخاص المتواجدين في حياتك».

«أعرف، لا أعرف بمَ كنتُ أفكر».

«نتمنى أن تكون قد نِلتَ ما تستحقه».. قالا رافعَين حواجبهما.

وللإجابة عن سؤال كهذا، سيكون أشبه بالركض، وأنا أرتدي جوارب فقط، في حقل من الثلج الأسود ومدجّج بالألغام، لذلك أبقيتُ رأسي منكّسًا، وحرِصت على أن أظهر بمظهر يعبّر عن ندمي الصادق.

«أنا آسف»، قلتُ للمرة الألف، «أشعر بالسوء لتخييب أملكما».

«لا بأس طالما أنك تعلّمت من هذه التجربة»، قالت أمي.

هززتُ رأسي وهي تغمرني في عناق، وربّت أبي على رأسي، وظللتُ أهزّه

وهما ينسحبان، حتى توقف أبي أمام باب غرفتي قائلًا: «(جاكي)، هل جلبتَ الحليب إذًا أم لا؟».

تبًا، كنت قد نسيت الذهاب إلى المتجر في طريقي إلى المنزل.. «لا يا أبي، آسف».

قال أبي: «حسنًا، أرغب بتناول حبوب الفطور بدوري».

•••

فراني: مرحبًا، كيف كان موعدك المهم؟

ارتميتُ على سريري وأغمضتُ عينيّ، فأخذتني مخيلتي إلى المنخفضات، ورأيتُ الشمس، والغيوم، وصخور النهر منتفخة كحلوى الخطمي، والسماء متلألئة ببلورات السُكّر، وأشجارًا من الملاعق الفضية تتمايل مع نسمات سُكّرية وتُنشد للحب والسعادة.. ورأيتُ نفسي مع (كيت) في ذلك المشهد، ننساب ببطء في نهر من الحليب، عائمَين على حلقات من حبوب الفطور المنكّهة بالفاكهة، ويدانا متشابكتان، ورأيتُنا نغني طورًا ونضحكُ طورًا، لأننا لا نعرف ماذا قد يحدث حين تتبلل حلقات حبوب الفطور.. لكن ذلك لا يهم، فما الذي قد يهمّنا ونحن معًا؟

أنا: كان يستحق كل الجهد.

فراني: توقّعتُ ذلك.

فراني: أنا.. لدي أخبار مهمة.

أنا: أُصيب كلّ لاعبي فريق «وينتوورث»، بالتهاب الدماغ، وستفوز أنت ببطولة الولاية تلقائيًا؟

فراني: «الكوبون» عائد إلى المنزل.

أنا: هل تمازحني؟

فراني: تظنني قد أمازحك بشأن هذا؟

أنا: خرج إذًا؟ بهذه البساطة؟ أطلقوا سراحه؟

فراني: سيفعلون في نهاية هذا الشهر.

أنا: تبًّا.

فراني: هذا صحيح، تبًّا.

•••

عودة «الكوبون»

«الكوبون» (بمعنى القسيمة[2]) هو اللقب الذي أطلقه (فراني) على والده،

وقد اخترعه في الصف الخامس حين تخلّى عنه والدُه كما يفعل دائمًا، إلا أنه تخلى عنه تلك المرة في الليلة السابقة للمباراة الأولى في حياته.. وكان من المحبط للغاية مشاهدة قلب صديقي المقرب ينكسر مرارًا وتكرارًا، وبالأخص (فراني)، فهو الشخص الأكثر وفاء من بين كل من أعرف، دون أية مبالغة.

بدأت صداقتنا أنا و(فراني) في ساحة اللعب (مثل العديد من الصداقات). تشكّل ساحة اللعب بالنسبة لمعظم الأطفال مكانًا سحريًا يحوي زلّاقات ألمنيوم لامعة وأراجيح بسلاسل صدئة، مكانًا لتكوين الصداقات والركض بحرية.. أما بالنسبة لي، فكانت مكاناً لأخبَر التنمّر، بشكل متكرر، حتى أتى (فراني).

كان (فراني) مخيفًا حتى حين كان مجرد طفل، كان أطول من أغلب الأهالي، وكان صوته في عمر السبع سنوات أعمق من صوت أغلب الآباء، ومن صوتي.. أنقذني من العذاب الوشيك أكثر من مرة، وهو أمر لم أكن أفهمه، فما الذي كان باستطاعتي أن أقدّم له، سوى مشاركة مصاصاتي الحمراء معه، بالإضافة إلى التسبب بخسارتنا في كل سباقِ ثلاثةِ أرجل؟

قال لي مرة حين كنا نلعب كرة القاعدة، بعد أن ضرب بالكرة بعيدًا جدًا وأمضينا كل النهار في البحث عنها: «الفوز في الألعاب سهلٌ بالنسبة لي، وما يعجبني فيك هو أن الفوز لا يهمّك».

كان مخطئًا بالطبع، كان أهتم بشأن الفوز، لكنني أدركتُ أنه ليس نقطة قوتي، فاعتدتُ تدريجيًا على غيابه.. وهذه طبيعة (فراني)، لا يرى سوى قوس القزح حين تمطر.. وهو أمرٌ مفيد، إذ أن حياته تحوي غيومًا سوداء أكثر من أي شخص أعرفه.

•••

«أظنني لم أتوقّع مجيء هذا اليوم»، قال (فراني) وهو يتّكئ على دعامة شرفتي الخلفية.. رمى بحجر من فوق السور إلى حقل الذرة القديم.. اعتدنا أن نَقود درّاجتَينا هناك ونتسابق في الطرقات الوعرة، ونجتاز أكوام التراب، كما لو أننا نجوم سباق دراجات نارية.. ترقّبتُ وقوع الحجر، لكنني لم أسمع صوت ارتطامه بالأرض.

«رأيتَه آخر مرة منذ ست سنوات؟».

«ثمان،» قال (فراني).. رمى حجرًا آخر وقال: «بالكاد أذكره، وما أتذكّره لا يتضمن ذكريات طيبة».

«ما رأي جدّتك؟».

هزّ (فراني) كتفيه لامباليًا وقال: «أنه ابنها، ما يجعلُ الأمر محيّرًا جدًا بالنسبة لها.. أخبرتني إنها لن تدعه يعيش معنا إن لم أرغب بذلك».

«وماذا تريد أنت؟».

«لا أعرف، إنها سعيدة لعودته، لكنها حزينة أيضًا لأنها ترى أنني لم أسامحه.. أعرف ما الذي تتمنى أن أفعله، وتردد دائمًا على مسامعي أنه على أن أتحلّى بالنضج، وهذا مجرد هراء، فقد كان لديه كل الوقت ليُصلح الأمور، وأفسد كل شيء جيد في حياته، وعليّ أنا أن أتخلى بالنضج. ما المنطقيّ في هذا؟».

استلقى على الدّرج وقال: «وحين أطلب منه أن يبتعد، أكون أنا الشخص السيئ.. وإذا تركتُه يعود إلى حياتي، فسأبدأ بالعد التنازلي مترقبًا كيف سيُخرّب كل شيء مجددًا.. شرّان أحلاهما مُرّ، هكذا هو الأمر دائمًا في حياتي، أليس كذلك؟».. ثم ابتسم، إلا أنني أعرف ابتسامته الحقيقية، ابتسامته حين يكون سعيدًا، وهذه ليست ابتسامة السعادة، بل ابتسامته حين يكون عليه أن يكون قويًا ولا يدع الظروف تكسره، وهذه هي الابتسامة المرسومة على وجهه أغلب الأوقات.

«لا تدع آراء الناس تشغلك، عليك أن تفعل ما يناسبك أنت»، قلتُ له وأنا مدركٌ أن قول ذلك أسهل من فعله، لكنه الواقع، مهما كان مكررًا.

«يراودني شعور سيئ».

«ماذا تقصد؟».

عضّ شفته قائلًا: «لا أعرف، كما لو أن شيئًا سيئًا سيحدث».

«ربما عليك أن تخبر جدّتك إنك لا تريده أن يسكن معكما إذًا».

أومأ (فراني) برأسه موافقًا وقال: «هل ستأتي إلى منزلي إن سكَن معنا؟».

وضعتُ يدي على كتفه وقلت: «متى تركنا «الكوبون» يقرر ما نفعله؟».

«أنت محق! فليذهب «الكوبون» إلى الجحيم».. قال ضاحكًا. «أحيانًا أنسى أن هذا جزء من شخصيتك».

«ما هو؟».

«أنك أقوى فتى مهووس بالدراسة أعرفه».

وكان دوري لأضحك: «شكرًا، على ما أظنّ».

نهض (فراني) فامتدّ ظلّه على أرض الفناء.. رمى حجرًا بقوة شديدة، فابتعد لدرجة جعلتني أشعر بأنه ظلّ في الهواء حتى بعد رحيلنا، وقال: «ما من داعٍ للظنون يا صديقي».. وكرّر وهو يشيح بنظره عني: «ما من داعٍ للظنون».

أدخلتُ يديّ في جيبيّ وقلت: «سأظلّ تحت المراقبة لمدة مؤقتة، ويبدو أنني صرتُ راعيَ كلاب الآن».

«لعل هذا يعلّمك ألا تسرق سيارة والدتك».

«لقد استأذنتُها!».

ابتسم (فراني) وقال: «أخبرتني (جيليان) أن (كيت) جميلة جدًا.. هل أنت معجبٌ بها حقًا؟»

«نعم، أظن ذلك»، قلتُ وأنا أحاول أن أبدو مسترخيًا.

«حسنًا، أنت فتى صالح، غالبًا»، قال وهو يعبث بشعري كما يفعل الإخوة الكبار، وهو دور يلعبه معي أحيانًا رغم أنني أكبر منه بأربعة أشهر عمليًا. «أنا متأكد من أن والدَيك سيطلقان سراحك قريبًا بفضل حُسن سلوكك».

«أُصيبا بخيبة أمل كبيرة».

«الخيبة جزء من دورهما كوالدَين، كل شيء تحت السيطرة طالما أنه ما يزال بإمكانك أن تتدرّب».

«نعم، الفرقة».

«جوي توي».. تجلب البهجة.

رغم أنه قد لا يبدو علينا هذا، ورغم أنه لو كان هناك قالبٌ لأشياء كهذه، فغالبًا لسنا مناسبين له، فقد شكّلنا نحن الثلاثة الفرقة، وأقول «الفرقة»، لأنها الفرقة المدرسية.. (جيليان) تعزف الجيتار الكهربائي كالمحترفات، وتولى (فراني) أمر الطبل، وأنا على البوق.. وبصراحة، عزفنا سيئ غالبًا، أو للأمانة، عزفي سيئ.. (جيليان) بارعة حقًا، ويتدبّر (فراني) أموره.. لكن هذا ليس عادلًا؛ لأن عائلة (جيليان) موهوبة موسيقيًا، و(فراني) بارعٌ في كل شيء.. ولهذا، ما أفتقده في الموهبة الفطرية (وهو نقص كبير) أعوّضه عبر بذل جهد في التدريب.. وفي الشهور الثلاثة الأخيرة، تدرّبنا أكثر من أي وقت؛ لأن فرقتنا الجديدة ستقدّم عرضها العالمي الأول بعد عدة أشهر بمناسبة الذكرى الثلاثين لزواج والديّ.. حسنًا، لعله ليس عرضًا عالميًا بالفعل، بل عرضٌ يقدّم في فناء مليء بذوي الخمسين عامًا، ولعلهم ليسوا جمهورنا المستهدف.. وبكل الأحوال، مازال علينا أن نقدّم عرضًا أمام مئة وخمسة وعشرين شخصًا.. ونحن متحمسون جدًا.

لكن أرجو من القارئ ألا يُفصح عن أننا شكّلنا فرقة موسيقية من ثلاثة أشخاص، وأننا نتدرّب بشكل متواصل لشهور، وأن هذه طريقتنا للتعبير عن امتناننا لأروع شخصَين في هذا الكوكب.

إنها مفاجأة.

•••

مراسلات

فكرتُ بمراسلة (كيت)، لكنّني تذكرت أن أمي قالت مرةً إن والدي «أغراها برسائله الخطية المطوّلة»، لكن خطّي رديءٌ، كما أنني أودُّ أن تصلها الرسائل

بغضون هذه السنة.. تناولتُ حاسوبي المحمول ونقرتُ على زر الإنشاء.
مرحبًا (كيت)...
غيرُ لائق.
حذف.
كيف حالك يا (كيت)،
لا.. يبدو هذا مصطنعًا.
حذف.
عزيزتي (كيت)..
هذه خطوة كلاسيكية، أليست كذلك؟

عزيزتي (كيت)..

ما رأيك بالحفلات الطلابية؟ وأخصّ بالذكرِ حفلات الثانوية.. في حال كنتِ معارضةً لها بشدة هل من الممكن أن ترغبي بحضور حفلة، معي مثلًا؟ أعدكِ بأنها لن تكون كما في الأفلام حيث يأتي الفتى الفاشل مع أجمل فتاة في المدرسة ويكون موضعَ حسد لكل متنمّريه، ويصبح فجأة ملك رقصة «السول ترين»، وعندها تبدأ فتيات الثانوية، اللواتي لم يكنّ متاحات سابقًا، بالإعجاب به ويتساءلن متى أصبح (جاك كينغ) جذابًا، ونرى أصدقائه يشجعونه؛ حيث كانوا على دراية بأنه يمتلك هذه الجرأة طوال الوقت.

أنا لا أمتلك شعبية، ولكنني لست مكروهًا، أنا في المنتصف تمامًا.. أعني أن حضورك لن يتسبب بالكثير من الضجة؛ لأن الناس نادرًا ما يلاحظون وجودي، أنا هامشيّ جدًا.

ما أحاول قوله في حال كان أي مما سبق غير واضح: (كيت) هل تودين بالذهاب معي إلى حفلة التخرج؟

أرجو منك وضع دائرة حول الجواب (بعد الطباعة): نعم/كلا/ربما.

مع مودّتي

ج.ك

ملاحظة: لا شك بأن هذا سيذكرك بأنني طالبٌ في المدرسة، أي أنني لا زلت أقيم مع والديّ ومرغَم على الامتثال لقواعدهما، فأنا محكوم على بالخدمة المجتمعية، والمجتمع هو الحي الذي أقيم فيه والخدمة هي فضلات الكلاب، للأسف لقد قرأتِها بشكل صحيح ولا يوجد خطأ مطبعي. سأشرح لكِ عندما نلتقي.

على أي حال.

أرجو منكِ مراسلتي قريبًا، وإلا فقد أموت.

هذا كل شيء.

•••

عزيزي جاك..

أحب اتباع التعليمات (غالبًا)، لذا يمكنك أن تتخيل أني تحمّستُ كثيرًا لطباعة رسالتك ووضع دائرة حول جوابي، لكن لم تجرِ الأمور كما أردتُ، فكما تعلم أنا لا أملك عنوان صندوق بريدك، لذا كان خياري الوحيد أن أحفظ رسالتك على حاسوبي وأعدّلها وأُضيف الدائرة، ومن ثم أن أرسلها إليك عبر البريد الإلكتروني كملفّ مرفق. أعلم أنه من الأفضل ألا نثق بالملفات المرفقة لكن أرجوك لا تكن خائفًا من فتحه إذ إنه،

على حد علمي، خالٍ من البرامج الضارة أو المتفجرات.. على الأقل أثناء كتابتي هذه الرسالة.. لستُ مسؤولة عمّا قد يحصل بعد النقر على زر إرسال.

أود إخبارك بأني لست معارضة بشكل علني للحفلات، وإن كانت حفلات الثانوية، ولكنني أعارض الرقص، أو بالأحرى جسدي يعارضه. على عكس الشائع، لا يولد جميع الأفارقة بأجساد تستشعر الإيقاع وتنسابُ مع اللحن بشكل رائع.. أغلب ما أقوم به على حلبة الرقص هو مزيج بائس من رقصة «الخطوتين»، وحتى عندها قد أخطئ العد. أرجو منك أخذ هذا الأمر بعين الاعتبار عندما (أو إذا كنت) ترغب بدعوتي لأي مناسبة تتضمن موسيقى.. من المؤسف أن تقوم بخدمات مجتمعية، لكن بوسعك الاستفادة من هذا الوقت للتفكير في سبب انقيادك في هذا الطريق الإجرامي (أظن أن الأمر متعلق بشأن زيارتك لي في سيارة والدتك؟) وكيفية استعادة مكانتك كمواطن صالح لإزالة الفضلات. أشعر بأن هذا الأمر سيكون مفيدًا نظرًا لميلك إلى خرق القواعد، أعني بذلك سرقة السيارة، بالإضافة إلى تهوّرك وتخلّيك عن آداب تناول حبوب الفطور، لقد أنهيتَ ما تبقى من الحليب!

حسنًا، يتوجب على أن أنهي هذه الرسالة إذ إنها تحول بيني وبين دراستي، وعلى الرغم من أن عدم الدراسة أمرٌ ممتع، إلا أنه قد يتسبب برسوبي.

تحياتي

كيت

ملاحظة: هل كنت تعلم بأن توقيعك يبدو كمن يلفظ مزحة؟ أراهن بأنك لم تكن تعلم. (أنا أمازحك).

"ملف مرفق: نعم/كلا/ربما ... خالٍ من البرامج الضارة"

قمت بتحميل الملف المرفق في رسالة (كيت) وهذا ما وجدته:

«ما أحاول قوله في حال كان أي مما سبق غير واضح: (كيت) هل تودين بالذهاب معي إلى حفلة التخرج؟

أرجو منك وضع دائرة حول الجواب (بعد الطباعة): نعم/كلا/ربما»

•••

كيف لا تكون وحيدًا في هذا العالم

على الرغم من أن ظنّ والديّ قد خاب بي (كلا، ليس بك عزيزي بل بأفعالك.. نحن نحبك يا جاكي)، ووضعي في فترة تجريبية، إلا أنهما مازالوا يسمحون لـ(فراني) بالمبيت عندي يوم الجمعة، وهذا ليس الخطأ المعهود الذي يرتكبه الآباء بإعطائنا إشارات مختلطة، أي أن يخبرونا بأمرٍ ما، ومن ثم يناقضون أنفسهم مباشرة، بل لأن جدة (فراني) تعمل ليلًا في عطلة الأسبوع، وعلى مدى السنين الماضية، كان والديّ يسمحون له بالبقاء في منزلنا كلما رغب بذلك من دون طرح أية أسئلة، وعطلة الأسبوع هذه ليست استثناء، وكنتُ ممتنًا لرفقته.

الفترة التجريبية ليست مريعة للغاية (جز العشب، إزالة الفضلات، تجنب المشاكل)، ولكن مع أخذ ولعي بـ(كيت) بعين الاعتبار، وعدم قدرتي على تناسي كلمة «ربما»، وكل المعاني التي قد تحملها، وبالطبع فإن أي مصدر

إلهاء مرحب به.

أصرّ (فراني) على تناول العشاء مع والديّ، كما هو الحال دائمًا، في غرفة الطعام.

قال (فراني): «أنت تعلم ما هو شعوري حيال تناول الطعام في المطابخ».

«أعلم ذلك، لكن تناول الطعام في المطبخ منطقيّ، إذا أن الطعام موجود هناك بطبيعة الحال».

«أدرك أن المطابخ لطيفة، ولكنها تُدعى غرفة الطعام لسبب معين، أي أنها ترجونا لتناول الطعام فيها».

لقد سمعت هذه الحجة مسبقًا، لكنني أعتقد أن السبب الحقيقي لولع (فراني) بغرفة الطعام هو رفض جدته لاقتراب أي أحد من غرفة طعامهم، إذ إن الطاولة والكراسي مغطاة بالبلاستيك الواقي بإحكام.

أدركت بأنني قد غُلِبت، فقلتُ: «حسنًا، كما ترغب».

ابتسم (فراني) وقال: «كنت أعلم أنك سترى الأمور من منظوري».. قام بشم الهواء قائلًا: «أنت بحاجة للاستحمام، بشدة».

أجبته متذمرًا: «كان على تنظيف فناء السيدة (نولان) اليوم.. لم أر هذا الكم من فضلات الكلاب في حياتي».

«قم بالجريمة وتحمّل العقوبة».

«أيًا كان.. كيف حال جدتك؟».

قال (فراني) باستهجان: «تكدّ في العمل، كالمعتاد».

«حقًا».

«أنا أقلق بشأنها، أدرك بأنها تتمتع بالصحة لكن أتمنى لو كان بوسعي مساعدتها، أتفهم؟».. لقد ربته جدته منذ كان بسن التاسعة، ودائمًا ما يقول بأنه محظوظ، إذ إن هنالك الكثير من الأولاد في حيّه لا يمكنهم إيجاد ولو شخص واحد بوسعهم الاتكال عليه.. جدة (فراني) هي ما يوصف بالسند، إذ إنها تعمل في وظيفتين لتلبية احتياجاتهما الأساسية.. علاوةً على ذلك فإنها تقوم بأعمال إضافية، إذ تراها محنية على آلة الخياطة لتصلح البدلات الرسمية وعباءات التعميد وربما جميع فساتين الزفاف، التي تم ارتداؤها في «أوهايو».. يساهم (فراني)، حيث يقوم بتكييس البقالة في «دولار دن»، ويرش مزيل الروائح في الأحذية المهترئة في صالة البولنج.

قال (فراني) مبتسمًا: «لقد رأيت إعلان والدتك التجاري».

«لا تقل المزيد».

«أنت تعلم كم أحب والدتك، لكن».

«أنا أحذرك يا (فراني)».

«إنها جميلة جدًا.. أنا لا أعلم كيف بمقدورك تحمل هذا الأمر».

«إنها والدتي، بإمكانك تخمين مدى تحملي».

يحب والديّ (فراني)، كما هو الحال مع معظم الآباء، إذ إن افتتانهم به ليس أمرًا مفاجئًا ويستطيع (فراني) كسب ثقتهم.. في حال كان والديّ مترددين بخصوص السماح لي بفعل أمرٍ ما، بوسعي أن أذكر أن (فراني) سيقوم بهذا الأمر أيضًا، وبذلك أكسب موافقتهم.

إضافة لكل ما سبق، يعدّ (فراني) الابن الرياضي، الذي لم تستطع والدتي إنجابه.. قامت والدتي بلعب الكرة في الجامعة وكانت لاعبة جيدة وتراها تردد دائمًا: سيدة في الشارع، ولكن مفترسة في الملعب.. (نقطة جانبية: إن الطريقة التي تتصرف بها والدتي في الفعاليات الرياضية كالجدال مع الحكام أو الصراخ على المدربين والسخرية على جالب حظ الفريق الآخر هي تذكير بأن كلمة «مشجع»، قد تحمل معنى متعصب).

اعتدنا أنا ووالدتي (مع والدي غالبًا) الذهاب إلى جميع مباريات (فراني) (كرة السلة وكرة القدم والبيسبول وسباقات المضمار)، وحجز مقعدًا للجدة لأن أشغالها تتسبب في تأخّرها.. تأتي جدته كلّ مرة وهي تنفخ وتلهث في نهاية الربع الأول، يقول (فراني)، وهو يهز كتفيه ضاحكًا، أصحاب البشرة السمراء يتأخرون في مواعيدهم دائمًا.

سألني (فراني) وهو يرمي حقيبة النوم على أرضية الغرفة: «كيف حال صديقتك الشابة أيها المرافق الصغير؟».

ابتسمت وتوردت وجنتاي على الفور.

لِم ابتسم ببلاهة بمجرد أن يتم ذكر (كيت)؟

ثم ناداني: «(جاك)؟»، ورماني بجورب ولم أنزعج، إذ إنني كنت سارحًا في خيالي، أفكر بـ(كيت).

قال (فراني): «وترى أنني أنا المتيّم؟ ما الذي سيحل بك عندما يمضي على معرفتكما بضعة أشهر؟».

«إنها فتاة رائعة. أعتقد بأنها ستنال إعجابك».

سار باتجاه باب الغرفة وقال: «إن كنتَ معجبًا بها، لا بد من أنها ستنال إعجابي أيضًا. أيمكنني إطفاء الأنوار؟».

أومأتُ برأسي موافقًا، فضغط على الزر ويسود الظلام.

راقبتُ خيال (فراني) عائدًا إلى هاتفه المحمول، ثم وصَله بمقبس الحائط وبدأ بتصفح جهات الاتصال المفضلة، وحامت إصبعه حول صورة (جيليان) المدورة، فتذكرتُ كم مرة فعلتُ الشيء ذاته حيث تتوضّع إصبعي ما لا يزيد

على سنتيمتر واحد عن صورتها، ولكنني كنت خائفًا ولم أفعل شيئًا، إلا أن (فراني) قام بالنقر على ابتسامة (جيليان) وخديها الممتلئين.
وقال لها: «مرحبًا حبيبتي.. اشتقت لكِ أيضًا».. وقام بدفن وجهه بأغطية السرير وبدأ بهمس الدعابات التي لن يفهمها سواهما وصوته يدل على رغبته بالبقاء معها إلى الأبد.
أما أنا فبدأت بالقراءة ولكن لم أستطع أن أمتنع عن التفكير بـ(كيت)، ثم قررت استبدال كتابي بالإنستجرام وبدأت بتصفح حساب (كيت) الشخصي وتصفّح صورها، وهي تضحك مع أصدقائها أو تمازح عائلتها.. تبدو مبتسمة في كل الأماكن ومع جميع الأشخاص. توقف (فراني) عن الهمس بعد برهة ورفع الأغطية عن وجهه، ونظر للأعلى وشعره منسدل على وجهه.
همس بعلوٍ: «لِم أراك مبتسمًا؟ أخلد إلى النوم!».
«اهتم بشؤونك الخاصة».
مد يده الطويلة إلى مكتبي ليضع هاتفه قائلًا: «اسمع، أنا حقًا ممتن للسماح لي بالمبيت هنا، أنا بحاجة لهذا.. كما تعلم فالأمور في المنزل لم تكن...».
أخفضت هاتفي ومددت يدي نحو مصباح المنضدة.. «أدرك ذلك يا صديقي، وأنا سعيدٌ لوجودك أيضًا.. تعلم أنه مرحب بك دومًا».
يبدو مجرّد إدراك أهميّتنا لدى أصدقائنا ليس بالأمر الكافي في كثير من الأحيان، وعلينا أن نعبّر عن ذلك لفظيًا.
قال بعد دقائق: «(جاك)» بصوت خافت كما لو أنه لا يريد إيقاظي في حال كنت نائمًا، وبدا غير متأكد من أنه يرغب بقول ما يجول في مخيلته.
«ما الأمر؟».
كان مستلقيًا على ظهره ويداه خلف رأسه، مجوّلًا عينيه على السقف بتمعنٍ لا يستحقه السقف.
«عندما يُطلق سراحُه، تقوم جدتي بطبخ العشاءِ بشكل غريب، وتعد جميع الأطعمة المفضلة لديه على ما يبدو».
«حقًا؟».
«أتعلم ما الغريب في الأمر؟ يبدو أن كلينا نحب طبقَ شرائح اللحم.. عالم صغير، أليس كذلك؟»
وافقتُه الرأي: «جدًا»، إلا أنني أحب طبقَ شرائح اللحم، حال أغلب الأشخاص على حسب ما أظن.
«على أية حال، كنت أفكر متسائلًا إن كان بوسعك... أن تتواجد وقت مجيئه إلى المنزل.. أرغب بوجود شخص آخر عندما يأتي للمنزل، شخص يمثل دعمًا أو رادعًا لي.. تبادر إلى ذهني أن أطلب هذا من (جيل)، فهي داعمة لي بشكل

عظيم، ولكنني لا أعرف بعد أن كنت مستعدًا لوجود والدي ورفيقتي في الغرفة ذاتها، لذا فكرت إن كان بودك... أدرك أن الأمر غريب، أليس كذلك؟ أبدو كأنني طفل كبير.. تبًا.. انس الأمر حسنًا؟ يا للحماقة، أنا أثرثر فقط».

«سأحضر يا (فراني)».

«حقًا؟».

«بالطبع، ولا تقلق فسأقوم بركله إن جن جنونه، أو قد أتشبث بضهره محاولًا دفعه إلى الحائط بينما تركله أنت».

«لن يدرك «الكوبون» ما حلّ به».

«سيتمنى لو بقي في السجن».

أجابني: «حسنًا»، ومن ثم استلقى على جانبه مواجهًا الجدار، ولوهلة تخيلت والد (فراني) في أغطيته، يحدق إلى جدارٍ مماثل، ولكن لا يمكنني تخيل ما يفكر به.

ردّد (فراني): «سيتمنى»، وساد الصمت بعد ذلك.

•••

علاقة دون مسميّات

كيت: مرحبًا (جاك) هل بإمكاننا التحدث؟ هل أستطيع مكالمتك؟

يبدو الأمر مخيفًا.. قد تكون جملة مثل «هل بإمكاننا التحدث» أمرًا جيدًا، أو حتى أمرًا مثيرًا للفضول، لكنني شعرتُ أن هناك خطبًا ما.

أنا: «نعم».

قالت (كيت) على الهاتف: «مرحبًا».

كرّرتُ: «مرحبًا».

بدا كلانا متردد في الحديث.

«هنالك أمر عليك أن تعرفه قبل أن أوافق على الذهاب إلى حفلة التخرج معك».

«أنتِ من كوكب آخر وتزامَن توقيت عودتك إلى موطنك مع موعد حفلة التخرج؟».

قالت ضاحكةً: «لا، فات الأوان على عودتي إلى موطني منذ سنوات».

«إذا أنتِ عالقة هنا».

قالت (كيت): «أفضل أن أرى الموضوع على أنني مندوبة فضائية».

«وهذا الأمر الذي يُشعرك بالرحة حيال كونك عالقة هنا؟».

«بل كان يُشعرني بالراحة، إلى أن قام فتى أرضيّ بإفساد الأمر».
«كعادة الفتيان الأرضيّين».
«أرى أنه غير اعتيادي».
لا أعلم ما إذا كان قول غير اعتيادي أمرًا جيدًا إلا أنني لا أشعر بالسوء، بل أشعر بأن قلبي بدأ يتشقلب في صدري.
«ما الأمر الذي يجب أن أعرفه قبل ذهابنا لحفلة التخرج؟».
أجابت متنهدةً: «هل أخبرتك إنني خرجت من علاقة مؤخرًا؟».
توقف قلبي عن الشقلبة وأجبتها: «نعم، أذكر ذلك».
«أظن أنني لم أتجاوز الموضوع كليًا يا (جاك)».
«ماذا يعني ذلك؟».
«يصعب على شرحه.. هنالك الكثير من العوامل، ولكن...»، وسكتت لوهلة.. «لقد دعمَني في أوقات عصيبة جدًا.. من الصعب أن تلغي من حياتك شخصًا اعتدتَ اللجوء إليه».
«أتعنين أنه بودك مواعدة صديقك السابق؟».
«لا.. لا أظن ذلك».
«لا أفهم».
«أعني أنه مازال موجودًا في حياتي.. لسنا سويًا، ولكن لسنا منفصلين في الوقت ذاته».
«أتقصدين أن العلاقة معقدة؟».
«كلا.. لا يوجد علاقة».
«ما الذي سيحدث بشأننا؟».
«نذهب للحفلة ولكن دون إطلاق مسميات على علاقتنا؟ ربما بشكل مؤقت فقط».
«مممممم».. بالطبع أود الذهاب مع (كيت) للحفلة ولكنّني شخص أخرق وهذه المسائل تزيد الأمر صعوبة.
«أردت أن أحادثك بصراحة لا أكثر، فأنا مرتبكة أيضًا وأجدك شخصًا رائعًا يا (جاك).. أود أن تصحَبني إلى الحفلة إن كنتَ ترغب بذلك».
وقبل أن يبدأ عقلي بتحليل المخاطر والتداعيات أجاب قلبي: «نعم، نرغب بذلك».
قالت ضاحكةً: «نرغب؟».
«أعني أرغب.. أنا أرغب».

أستطيع الشعور بابتسامتها على الطرف الآخر من الهاتف.
«أتوق لإظهار غرابتي معك وجهًا لوجه يا (جاك)».
«لديّ ذات الشعور تمامًا».

•••

سأبني خندقًا متينًا حول حُبّنا

قررنا أنا و(كيت) أنه من الأفضل أن أعرّفها على أصدقائنا الذين سيذهبون معنا إلى حفل التخرج.. وكان من المقرّر أن يخرج والداي مساءً، لذا استقرّينا نحن الأربعة في منزلي.

«يا أصدقاء، هذه (كيت)».. قلتُ.. «(كيت)، هؤلاء هم أصدقائي».

ضحكت (جيليان) قائلة: «بالإضافة إلى كوني جزءًا من مجموعة الشباب، فأنا فتاة أيضًا.. مرحبًا بكِ، أنا (جيليان)، سعِدتُ بلقائك».

قالت (كيت): «سعِدتُ بلقائك أيضًا، لقد سمعتُ الكثير عنكِ».. ثم أضافت: «عن كليكما».

«هذه سترة رائعة»، قال (فراني) وهو يشير إلى (كيت).. «لا تقولي أنكِ قد شاهدتِ عرضًا حيًا لفرقة «مايتي موت».

قالت (كيت): «حسنًا، لن أخبرك أيضًا بأن عازف الطبول في الفرقة هو حبيب أختي».

«هذا مستحيل، هل أنتِ جادّة؟».

«لا أمزح فيما يخصّ «مايتي موت»، قالت (كيت).

«يا للروعة! يجب أن تجلبي لنا تذاكر، هل بإمكانك أن تجلبي لنا تذاكر؟».

«اهدأ يا عزيزي»، تدخّلت (جيليان)، «هل بإمكانك أن تدعها تخلع معطفها على الأقل قبل أن تطلب منها أن تحقق لك أكبر أحلامك؟».

قالت (كيت): «لا بأس، بإمكاني الحصول على تذاكر بالتأكيد.. ما مخططاتك ليوم الجمعة بعد أسبوعين من الآن؟ وهل ستكون جاهزًا لرحلة إلى «ديترويت»؟

«هل تمازحينني؟».. صرخ وقفز على أحد كراسي طاولة المطبخ، وهو يحرّك قبضتيه جيئة وذهابًا كالمجانين.. «هذا مقلب، أليس كذلك؟ هل حرّضتَها على هذا يا (جاك)؟».

«لا تنظر إلي»، قلتُ.

ابتسمت (كيت) وقالت: «أؤكّد لك أنني لا أمزح بخصوص أشياء بهذه الأهمية».

«يا للروعة، سوف نذهب إلى «ديترويت» لمشاهدة حفل لـ»مايتي موت»، هل

سمعتِ ذلك يا عزيزتي؟»، ثم صار (فراني) ينطّ ويحطّ على الكرسي.

مدّت (جيليان) يديها لتهدئتِه وقالت: «أرجو أن تعذرا حبيبي، فأنا أسقيه كلما تذكرتُ، لكنه لا يتعرض للشمي بما يكفي».

ضحكنا أنا و(كيت)، ثم قالت (جيليان): «وإذًا يا عزيزتي (كيت)، بمناسبة حضورك الكريم، فقد بذَلنا وسعنا لتحضير العشاء، وسنتناول الرامن بنكهة الروبيان».

«من أجلي؟ لا أمانع النكهة الأصلية؟».. قالت (كيت) ضاحكة.

لكن (جيليان) رفضت قائلة: «لا، لا، لن نرضى بأقلّ من ذلك من أجل ضيفتنا الكريمة».

أنارت البهجة وجه (كيت) وقالت: «حسنًا، شكرًا.»

«على الرحب»، قالت (جيليان)، ثم مزّقت غلاف الرامن، ورَمت بلفائف الشعيرية في الماء المغلي على الموقد.

«هل يمكنني المساعدة؟».. سألَت (كيت).

ابتسمت (جيليان) ويدها على وركها قائلة: «لقد قمتِ بصنع الرامن مسبقًا، أليس كذلك؟ بالكاد أحتاج مساعدة نفسي في ذلك».

«هل أُعدّ الطاولة إذًا؟».

«أطلب من الفتيان فعل ذلك عادة، لكن..» أشارَت (جيليان) نحو الخزائن وقالت: «الأوعية هناك».

«رائع»، قالت (كيت).

نظرتُ نحو (جيليان)، ثم نحو (كيت)، الفتاتان الوحيدتان اللتان شعرتُ بمشاعر حقيقية تجاههما موجودتان في ذات الغرفة، وعلى وشك أن تأكُلا الرامن بنكهة الروبيان من أوعيةِ طفولتي البالية.. كان ذلك غريبًا، لكنني شعرتُ بأنه مقدّر له أن يحدث.

وبعد ساعتين، دخل (فراني) في مزاج سرد القصص القديمة، وأضحكَنا حتى التعب.

«ثم وقف (جاك) وسروالُه حول كاحلَيه، فاحمرّ وجه السيدة (كولواي) ومشَت نحونا وبيدها تلك المكنسة الكبيرة، التي تُستخدم لتنظيف الملاعب، إلا أنها كانت ستستخدمها في محاولة قطع رأسَينا».

«توقف!».. قالت (كيت) وهي تكاد تبصق مشروبها، «ماذا فعلتما؟».

رمقني (فراني) بنظرة وقال: «ما يفعله الشباب المحترمون، ركضنا هاربَين وتأمّلنا ألا تكلّم والدتَينا».

«يا للهول!».. قالت (كيت) وهي تنفجر ضاحكة.

هزّ (فراني) رأسه قائلًا: «أتكلم بجدية، لم يرفع (جاك) سرواله طوال الوقت، فاتتكم رؤية ساقَيه وهما تتحركان كالمضخّة، ركض كما لو أن روحًا شريرة قد تملّكت جسده».

«وكانت تلك المرة الأولى والأخيرة، التي سبقتُ فيها (فراني) في الجري»، أضفتُ.

«نخب الأوقات الجميلة»، قال (فراني) وهو يرفع كأسه نحو مركز الطاولة.

«أجمل الأوقات»، أيّدتُه ونقرتُ كأسي بكأسه، ثم قامت الفتاتان بالمثل.

ذهبتُ إلى المرآب لأبحث عن المثلجات في ثلاجة المؤونة، وعُدتُ مكللًا بالنصر (نوعان من المثلجات: «دابل شوكو فادج فانتاستك» و»باكي بايت بونانزا»)، تبادل (فراني) و(كيت) النظرات ثم أومأ (فراني) برأسه وهو يجرّ كرسيّه ليرجعها من المطبخ.

«في الواقع يا (جاك)، نحن ذاهبان،» أعلن (فراني)، «يبدو أنه على كتابة وظيفة لصفّ التاريخ».

احتجّت (كيت) قائلة: «لا! متى عليك تسليمها؟».

غمز (فراني) وقال: «غدًا. صباحًا، في... الثامنة صباحًا».

ضحكت (كيت) وقالت: «ومع هذا فأنت مِثال للاسترخاء».

«لا تدركين ذلك بعد يا (كيت)، لكن صديقنا (فراني) هو سيّد المماطلة»، قلتُ.

«»سيّد» وحسب؟ أنت تبخس (فراني) حقَّه»، أضافَت (جيليان) وهي تجمع الأطباق عن الطاولة وتضعها في غسالة الصحون.

«تعرفون أنني أعمل بشكل أفضل تحت الضغط».

أغلقت (جيليان) غسالة الصحون بدفعة من وركها وقالت: «حسنًا، باعتبارها الطريقة الوحيدة التي قد تعمل بها، فمن الصعب أن أعارض ذلك».

«كان ذلك قاسيًا»، قال (فراني).

«أوه، حبيبي المسكين»، قالت (جيليان) وهي تلفّ ذراعيها حول خصره.

«حبيبتي، أحبك»، قال (فراني) وانحنى نحوها، ولامسَت صدره بأنفها.

«هذا مقزز! نأكل طعامنا هنا!».

«جِدا غرفة لنفسيكما!»، قالت (كيت).

وكان من الصعب أن أتخيّل شيء أجمل من أن صديقيّ المقرّبَين حبيبان، أو أن أتصور عالمًا لم يُخلقا لبعضهما فيه.

في طريقهما خارج المنزل، هتف (فراني) دون أن يستدير نحونا: «استمتعا بوقتكما أيها الأطفال!».

التفتت (جيليان) وابتسمت كما لو لتعتذر وهي تصحبُه إلى ممر السيارات..

قفلتُ الباب، ووقفتُ وظهري في مواجهته، وقلت: «إذًا».. ثم رمقتُها بنظرات (جاك كينغ) الحالمة التي لا يُقاوم إغراؤها، والتي، حتى ذلك اليوم، لم تؤتِ ثمارها.

«إذًا»، ردّدت (كيت)، «ماذا نفعل الآن؟»، قالت بصوت يوحي بأن لديها بعض الاقتراحات.

«ألعاب الفيديو»، اقترحتُ، بنبرة لعلها كانت جدية أكثر من اللازم، «أو ربما نشاهد التلفاز؟ هل تحبين مباريات كرة السلة الجامعية؟ لأن بطولة «مارش مادنس»، قد بدأت للتو.. وبإمكاني أن أصنع مخفوق الحليب، وأظن أن أمي لديها عجين بسكويت مجمد، بإمكاننا..».

«(جاك)»، وضَعَت سبّابتها المنحنية قليلًا على شفتيّ.. «ألعاب الفيديو مناسبة».

لن أقول إنها كانت لتغلبني بكل الأحوال، لكنني بالكاد استطعتُ أن أركّز، كنتُ أحدّق بها بطرف عيني وكُلّي خوف من أن تكون وهمًا.

هزمتني شرّ هزيمة في ثماني جولات.. «هل أنت على ما يرام؟ تبدو شارد الذهن».

«أظنني أفكّر وحسب».

«بمَ؟».

«بصراحة؟».

ضحكت قائلة: «نعم، لا بأس بالصراحة».

«أريد أن أقبّلك».

«أوه»، قالت بنبرة لم أستطع فهمها، مما يعني أنني قد أفسدتُ الأمر غالبًا، لقد تهوّرتَ يا (جاك).

«لمَ لم تفعل إذًا؟» سألتني، وطنّ سؤالها في رأسي مثل السونار، ثم تردّدَ في أغوار ذاتي: «لمَ لم تفعل يا (جاك)؟ لمَ لم تفعل؟ لمَ..».

وقبل أن أتمكّن من الإجابة، رفعَت ذقني، وأخذت وجهي بين يديها، وضغطت بشفتيها على شفتيّ.. لا بد أن شفتيها مفاتيح لأنهما اقتحمتا أعماقي.

ثم.. ألعابٌ نارية، الكثير من الألعاب النارية.

•••

أحاديث التسوق

قبل حفل التخرج بثلاثة أيام، ذهبتُ إلى مجمّع التسوق لأُجرّب الملابس الرسمية، لكن مهمتيّ الرئيسيتين كانتا رئيس حرس محفظة (جيليان)، بينما

تندفع هي بين رفوف الفساتين، والموكّل بتوجيه الانتقاد لـ(فراني)، بينما يستعرض كل البذلات في بحث مستميت لإيجاد البذلة المثالية التي تستحق جسده.

«ألن تأتي (كيت)؟» سألَت (جيليان) ونحن نغادر المتجر رقم مئتين، ولم يزل (فراني) لا يحمل شيئًا باستثناء بريتزل بيتزا، معللًا ذلك بأنه من الخاطئ التسوق بمعدة فارغة، فالجوع يتسبب بقرارات متسرّعة.

أومأت برأسي قائلًا: «لديها موعد لم تستطع إلغاءه».

صفع (فراني) كيس المتجر الذي أحمله ضاحكًا، وقال: «لعل هذا لصالحك، وإلا فقد كانت ستكتشف أنك مصاب بعمى الألوان!».

قالت (جيليان): «دعْهُ وشأنه».

قلتُ: «شكرًا لك يا (جيليان)».

«أأرى أنه من الظريف أن (جاكي) الصغير لم يتعلم الألوان بعد».. قالت (جيليان).

«يا للروعة! أكرهكما أنتما الاثنان».. قلت.

ولعلّي لم أكن متحمسًا بشأن حفل التخرج سابقًا، لأنه يتضمن الرقص والفتيات، أو الرقص مع الفتيات، لكن بفضل (كيت)، غيّرتُ رأيي.

•••

زهرة الأوركيد

أعرف القليل[3] حول الزهور.

لذا طلبتُ من أمي العون في انتقاء زينة فستان (كيت).. لأن ذلك سيُسعِد أمي، ولأنني لا أعرف حتى أين تُباع زينة الفساتين. مشينا جيئة وذهابًا بين صفوف بيت النباتات الزجاجي، ثم توقفت أمي فجأة وقالت: «هذه هي».. وأمسكت أزهى زهرة صفراء رأيتها في حياتي.

«إنها مثالية».. قلتُ.

وبعد عشر دقائق، كنا في السيارة عائدين إلى المنزل، وزهرة الأوركيد متوازنة في علبة شفافة في حضني، حين رمقتني أمي بنظرة جانبية وقالت: «(جاكي)؟».

«نعم، أمي؟».

ارتفعت يدُها عن المِقود ومسحت عينيها.. ابتسمتُ لها قائلًا: «أمي، ما الأمر؟ لا تقولي لي أنك نادمة لشرائنا زهرة الأوركيد.. بإمكاننا العودة إلى المتجر وجلب الزنبق المخطط، لم يفُت الأوان».

«أنت سخيف»، قالت وضحكَت بين دموعها، «كل شيء على ما يرام»، ثم عبثَت بشعري بأصابعها، وتذكرتُ كم مرة جلسَت على الأرض بجانب سريري وهي تداعب بأصابعها فروة رأسي، وكل الليالي التي توسّلتُها أن تبقى حتى أغفو.. «أنا فخورة بك يا (جاكي)، بشخصيتك التي تنضج، بشخصيتك الحالية».

أومأتُ وحسب، وقلتُ بصوت خافت «أحبك يا أمي».. فما الذي بإمكاني أن أقوله سوى ذلك للمرأة التي ربّتني؟

«ستُحب (كيت) زهرة الأوركيد التي جلبَتها، لكن ذلك لن يكون بسبب الزهرة».

«أحبك يا أمي».. كررتُ بصوت غير خافت على الإطلاق.

•••

نهاية المشهد

أصبح أبي مثل المصورين المهووسين، لاحقَني والتقط صورًا وأنا أحلق ذقني، وأنظف أسناني، وأغوص في درْج الجوارب بحثًا عن زوج الجوارب المفضل لدي.

«(جاك)، انظر بهذا الاتجاه للحظة».

«أرجوك يا أبي»، رجوتُه، «حين تصل (كيت)، عليك أن تتوقف عن هذا، اتفقنا؟».

«لا أستطيع أن أعِدك بذلك»، قال غامزًا، «حسنًا، الآن أدِر رأسك إلى اليمين قليلًا. ل، لا، هذا أكثر من اللازم، أرجِعه قليلًا.. هكذا، هكذا.. اثبت، حافظ على ثباتك».

«قد تنكسر رقبتي إن بقيتُ بهذه الوضعية لوقت أطول يا أبي».

وضعت أمي ذراعها حول خصر أبي وقالت: «تعرف كم يحبُّ والدُك هذه اللحظات يا (جاكي). دعهُ يحظى ببعض المرح».

تحركتُ عن وضعية الصورة، وقلت: «لا أريد أحرم أبي من مرحه، لكنني لا أريد أن يكون ذلك على حساب مرحي.. تعرفان كم أكره الصور».

«لكنك وسيم للغاية»، قالت أمي وهي تبتعد عن أبي لتقرص خدّيّ.

ابتعدتُ عن متناول يديها قائلًا: «لعله من الأفضل أن أقابل (كيت) عند الشرفة الأمامية».

«ها ها»، ضحك أبي ضحكة مزيّفة، وقال: «مازلتُ لا أفهم لمَ لن تذهب إلى منزلها لتصطحبَها»،

«أخبرتك أنها ستقيم في منزل والدَيها لعطلة نهاية الأسبوع، وقالت لي إنه من غير المنطقي أن أقود السيارة إلى هناك وأعود بالاتجاه الآخر.. حاولتُ

إقناعها، لكنها أصرّت».

تململ أبي قائلًا: «حين كنتُ في عمرك..».

«لم تكن تملك سيارة، وحلّت أسوأ عاصفة ثلجية شهدتها الأرض رغم أن ذلك كان في شهر أبريل، ومشيتَ ستّين كيلومترًا دون معطف لائق، ومع ذلك، قمتَ باصطحاب أمي إلى حفل التخرج».

«ورغم كل هذا، بدا جذابًا للغاية»، أضافت أمي.

ابتسم أبي مبتهجًا: «كانت بذلتي مبللة ومجعّدة. تذكرين كيف منعتنا أمك من الذهاب قبل أن أعلّق سترتي على المدفأة؟».

ضحكت أمي: «وتعبيرُ وجهك حين طلب منك أبي أن تجلس في المقعد الأمامي بجانبه حين اصطحبنا بسيارته إلى الحفل».

«كان كلامه غير منطقي أبدًا، صار يقول إنه لا يريد «مشاكسات طالما أنه موجود»، ولم تكن لديه أدنى فكرة عن الأمور التي تحدث بوجوده..»، ثم قرّب أمي وطبع قبلة على خدها. ضحكت أمي وصفعَت يديه قائلة: «لا توحِ له بأفكار سيئة، سيئ بما فيه الكفاية أنه يحمل جيناتك التي لا تعمل لصالحه».. ثم التفتت نحوي وقالت: «ستتوخّى الحذر يا (جاكي)، أليس كذلك؟».

كنت أعرف نهاية ذلك الحديث، ففضّلت ألا أخوضه وقلت: «أرجوكِ يا أمي».

«لا تقم بأية مجازفات، من الأفضل أن تكون مستعدًا على أن..».

قلت بإصرار: «أمي!».

«اسمع كلام والدتك»، قال أبي بحزم، «ما زلنا شابّين ونابضين بالحياة، ولا يليق بنا أن نصبح جدّين».

هذه محاسنُ أن أكون ابنًا وحيدًا: كلّ اهتمام والديّ موجّه نحوي.

هذه لعنةُ أن أكون ابنًا وحيدًا: كلُّ اهتمام والديّ موجّه نحوي.

«كل شيء تحت السيطرة، شكرًا على كل هذا الاهتمام غريب الأطوار.» أخرجتُ هاتفي لأرى أن (كيت) قد تأخرت ربع ساعة.

قرأ أبي أفكاري وقال: «ربما احتاجت أن تملأ سيارتها بالوقود».

«أنا متأكدة من أنها في طريقها»، قالت أمي بصوتٍ حنون.

بعد ربع ساعة، بعثتُ رسالة لـ(كيت)

أنا: مرحبًا، أتمنى أن تكوني بخير وأنك متأخرة وحسب.

مضت عشرة دقائق أخرى ولم تردّ.

نادتني أمي من المطبخ: «هل تريد أن تتناول العشاء يا (جاكي)؟ قد يساعدك ذلك في الاسترخاء.

«لا يا أمي، شكرًا».

اتصلتُ بـ(كيت) فتلقّيتُ مجيبها الآلي، ثم اتصلتُ مجددًا، لأجد نفس الرد.

نزعتُ معطفي وفردتُه على أريكة غرفة المعيشة، فمن غير المنطقي أن أدعه يتجعّد.. جلستُ بجانب أبي على الأريكة.. ضغطَ على كتفيّ وهمهم داعمًا، فهمهمتُ بدوري ممتنًا.

سمعتُ سيارة تركُن في الممر، فنهضتُ قفزًا عن الأريكة وأزحتُ الستارة عن النافذة الأمامية، لأرى السيارة تعكس مسارها وتبتعد.

«إنذار خاطئ».. قلتُ.

قال أبي مقترحًا: «اتّصل بهاتفها المنزلي».

أجبتُه متململًا: «لا أملك سوى رقم هاتفها الخلوي».

«بإمكانك أن تجرب دليل الهاتف».

ابتسمتُ قائلًا: «ما هذا الشيء؟».

اتّصلتُ بـ(كيت) وتركتُ رسالة صوتية هذه المرة.. أرعدت السماء فاهتزت غرفة المعيشة، وانهمرت الأمطار بغزارة في الخارج.

رنّ هاتفي، لكنها كانت مجرد رسالة من (فراني):

فراني: حان موعد حضورك! هل أنت مستعد لكتابة التاريخ يا صاح؟!

لم أرُدّ.. وبعثتُ لـ(كيت) رسالة أخرى.

خرجَت أمي من المطبخ وهي توازن طبَقَين بين يديها، وضعَتهُما أمامنا، وقبّلَت جبيني، ثم جبين أبي.

«شكرًا يا عزيزتي»، قال أبي.

«شكرًا»، قلتُ مجبرًا نفسي على الكلام.

طعن أبي رأس بروكلي بالشوكة وقال: «ربما عليك أن تذهب لتجدها يا بنيّ، ربما..».

وقبل أن يكمل كلامه، كنتُ قد لبستُ سترتي وحذائي مسرعًا.. وقفَت أمي فجأة عند الباب الأمامي حاملةً زهرة الأوركيد الصفراء بيَد، ومفاتيح السيارة تتدلى من يدها الأخرى، وقالت: «كُن حذرًا يا (جاكي)».

«شكرًا يا أمي».. قلتُ، وأخذت المفاتيح والزهرة، وهرعتُ نحو الخارج، ناسيًا أنها تمطر بغزارة.

«(جاكي)، المظلة»، ندَهت أمي.

لكن لا مجال للتراجع الآن.. تبللت كل ثيابي قبل أن أدخل السيارة.. ثم قُدتُ مسرعًا عبر الأبنية المتشابهة، والبيوت المتشابهة، والفناءات المتشابهة، لأصل إلى الطريق السريع والمطر يصفع الزجاج الأمامي، وعجلات سيارتي تبصق بركًا من الماء.

أصدر هاتفي صوتًا:
جيليان: أين أنت؟ من المفترض أن تختليا ببعضكما بعد انتهاء الحفل!! هاها (جاكي) أسرِع!
ضغطتُ على دواسة الوقود، وكدتُ أتجاوز المخرج، فجنحتُ بسيارة أمي متجاوزًا مسارَي سيارات، مناورًا عند المنصّف، ووصلتُ إلى المخرج. لكن جزءًا مني كان يتساءل: «ما الذي تفعله يا (جاك)؟ ما الذي تظنّه سيحصل؟ ستقف عند باب بيتها، وستفتح لك الباب، ثم ماذا؟ ثم ماذا يا (جاك)؟».
لم أملِك جوابًا على ذلك.. ورغم وجود نظام تحديد المواقع على شاشة هاتفي، ورغم تحديدي لموقع منزلها عليه، فقد تجاوزتُه.. عدتُ بالسيارة إلى الوراء مستعينًا بممر أحد الجيران.. كان هناك نافذة مظلمة على باب منزل (كيت) الأماميّ، وكان الظلام يسودُ أغلب المنزل، والصمتُ.. رنّ هاتفي.
«(جاك)، أنا آسفة للغاية».. سمعتُ (كيت) تقول بأذني المبللة.
«هل أنتِ بخير؟ أين أنتِ؟».
صمتت مطوّلًا ثم قالت: «لا أستطيع الذهاب معك إلى حفل التخرج.. أعرف أن هذا غريب جدًا، لكنني أؤكّد لك أنه لو كان باستطاعتي..».
«هل هذا بسبب شيء فعلتُه يا (كيت)؟ لا أفهم».
«لم تفعل شيئًا خاطئًا، لا أعرف كيف أشرح الأمر».
«حاولي فقط، حاولي أن تشرحي».
«أردتك أن تعرف فقط أنني آسفة للغاية».
«أنتِ آسفة؟».
«نعم».
«وهذا كل شيء؟».
«لا أعرف ماذا أقول».
«قولي شيئًا يا (كيت)، لأنك حتى الآن لم تقولي أي شيء».
«(جاك)..».
«بدأ حفل التخرج منذ ساعتين، وقد انتظرتُك».
«لَم تذهب إذًا؟».
«كان من المفترض أن نذهب سوية يا (كيت)، كان من المفترض أن.. أين أنتِ؟ هل أنت في منزلك؟».
«لا، اسمع، إنها قصة طويلة..».
«ولدي الكثير من الوقت كما يبدو».

«عليّ أن أذهب يا (كيت)، أنا آسفة».

«نعم، لقد أوضحتِ ذلك».

«إلى اللقاء يا (جاك)».

«(كيت)، انتظري..».. لكنها كانت قد أغلقت السماعة.

حلّت على لعنةُ الأمور التي «تكاد تحدث» مجددًا.. أرخيتُ ظهري على الباب الأمامي لمنزلها وخارت قوى ساقيّ، فامتدّتا أمامي، وجلستُ عند باب منزلها منهارًا، ومحتارًا، ومبتلًا، وبثياب مجعّدة.

وضعتُ أزهى زهرة أوركيد في العالم على باب منزل (كيت)، وعند عودتي إلى السيارة، توقف المطر.. ولم أتفاجأ.

•••

كيف تتجاوز شخصًا ما

(كيف تقوّي قلبك حين يكون هشًّا)

لستُ الشخص المناسب لإعطاء نصائح حول كيفية تجاوز شخصٍ ما، لكنني أعرف ما لا يجب فعله.. أنا ماهر في كل ما لا يجب فعله.

يجب ألا يمتنع صاحب القلب المفطور عن الحمام، لأنه بحلول الوقت الذي يدرك فيه كم رائحته سيئة (وكم يجب أن تكون الرائحة سيئة حتى لا يعود باستطاعة الدماغ أن يُخفي الأمر!)، سيكون قد فات الأوان.

ويجب ألا يلتهم صاحب القلب المفطور علبَ بسكويت بأكملها في جلسة واحدة مخصصة لجلد الذات.

ويجب ألا يبكي صاحب القلب المفطور ماسحًا مفرزاته في وسادته، أو سترته، أو بطانيّته.. أنا لم أبكِ حقيقةً، لكنني أفهم سبب انهمار الدموع.. إنها أوقات عاطفية، فمن الطبيعي أن يبكي صاحب القلب المفطور. لكن لتوضيح الأمور، أنا لم أبكِ، بل دخل شيء في عيني.. أمي بدّلت مطرّي الملابس، مما أثار حساسيتي.. ووكّلني أبي بدور مساعد الطباخ، وكان على أن أقطع البصل.. كان هناك مليون سبب وجيه لما كان يبدو كالدموع في عيني.

•••

صديقاي ارتأيا أن التدريب يشفي القلوب العليلة، مما يفسّر سبب جرّهم لي من السرير إلى مرآب منزل (جيليان).

«لن يساعدك النوم في التغلب على الألم»، قالت (جيليان).

«من يقول ذلك؟»، عارضتُها.

«ستتحسّن حالما نبدأ في العزف، بأية أغنية نبتدئ؟» سألني (فراني).

«بأغنية ليست عن الحب»، تمتمتُ.

«هذا صعب باعتبار أن قائمتنا المُعتمدة مخصصةٌ لحفل ذكرى زواج»، قالت (جيليان).

قلتُ متململًا: «مهما يكن».

تبادل (فراني) و(جيليان) النظرات، ثم اقترح (فراني): «ما عن أغنية ستيفي ووندر؟».. كانت تلك لتكون بداية رائعة في الأحوال العادية، فهي أحد الأغاني المفضلة لدى والديّ، ولديّ أنا أيضًا، لكن سماع ستيفي يتغنّى بالوقوع في الحب كان مؤلمًا في ذلك اليوم.

«هل على فعل هذا؟».. سألتُ.

لكن (جيليان) كانت قد بدأت بالعدّ التنازلي.. وبعد مرور ثلاثين ثانية، أخطأتُ في عزف العلامات، فتوقفتُ.

«لا تتوقف»، قالت (جيليان).

«جارينا في العزف»، شجّعني (فراني).

وحاولتُ دون فائدة، كان عزفي أسوأ من ذي قبل، وهو أمرٌ صعب الحصول.

«الأغنية التالية»، قال (فراني).

وعدّت (جيليان) ثانيةً، وحاولتُ هذه المرة أن أصل إلى اللازمة قبل أن أُخفق تمامًا.

«اللعنة»، صرختُ وكدتُ أرمي ببوقي أرضًا.

«فنأخذ استراحة لمدة عشرة دقائق»، قالت (جيليان).

«فلنأخذ استراحة إلى الأبد»، قلت وأنا أسحب هاتفي من جيبي وأتصفّحه.

«ما الذي تنظر إليه يا (جاك)؟».. سألتني (جيليان).

«لا شيء».. قلتُ وتابعتُ التصفح للأعلى.

«إنه يتصفح حسابها على الإنستجرام»، قال (فراني) متململًا، ثم اقتنص هاتفي من بين يدي.

«أنت!».. قلتُ معترضًا.

«وضعُك يحتاج إلى مداخلة، هذا من أجل مصلحتك».

ثم رنّ هاتفي، وحاولتُ أخذه، لكن (فراني) ردعَني.. قلتُ له: «أعِد لي هاتفي يا (فراني)، أنا لا أمازحك».

«اهدأ يا رجل، هذا ليس هاتفك، هاتفي هو الذي يرنّ. إنه المدرب، على أن أُجيب».. ثم رمى (فراني) بهاتفي إلى (جيليان) قائلًا: «تأكّدي من بقائه بعيدًا عن وسائل التواصل الاجتماعي، هلّا فعلتِ؟».. ومشى نحو الخارج مجيبًا على المكالمة: «أهلًا أيها المدرب، كيف حالك؟».

نظرتُ إلى (جيليان) راسمًا على وجهي أمارات الرجاء.
«لا، لا تحاول ذلك حتى، لن ينفع هذا الوجه»، قالت.
فأرخيتُ شفتي السفلى قائلًا: «ماذا عن الشفة المترجية؟».
«لدي مناعة ضد أساليبك»، قالت وهي تضع هاتفي في جيب بنطالها وتكتّف ذراعيها.
«حسنًا إذًا».
«كيف حالك يا (جاك)؟ كم يجب أن أقلق؟».
«ما بين القلق القليل والمعتدل؟ لا أعرف».
ابتسمت وقالت: «أختار القلق المعتدل».
«ماذا عنكِ؟».. سألتُها.
«ماذا عني؟».
«كيف حالك؟».
قالت لامباليةً: «أنا على حالي».
«والدتُكِ؟».
تنهّدت وقالت: «كان أسبوعًا جيدًا بالنسبة لها، حتى اتّصل».
«والدكِ؟».
أومأَت (جيليان) بالإيجاب.
«أين هو؟».
«متّجه نحو المنزل».
«المنزل؟ تقصدين هنا؟».
«لا، منزله في «كوت ديفوار».
كان ذلك شيئًا لم أتوقعه، فقلتُ: «أوه، يا لها من مفاجأة».
«نعم، مفاجأة».. رمت (جيليان) بنفسها على أريكة المرآب وقالت: «سيعود، ذهب لزيارة العائلة و»تصفية ذهنه» بحسب بتعبيره».
«اختار طريقًا طويلة لتصفية ذهنه».
«أظنني أتّفق مع (فراني) كثيرًا لهذا السبب، كلانا نملك أبوين يحبّان أنفسهما أكثر من أي شيء».
جلستُ بجانبها على الأريكة وقلت: «والدُك يحبك».
ضحكَت ساخرة وقالت: «يؤكّد لنا أهلنا أنهما يبتعدان عن بعضهما وحسب، أنهما لا يتركاننا نحن، ويقسمان أن شيئًا لن يتغيّر، لكن كل شيء يتغيّر في النهاية».

«لا أفهم الحب»، قلتُ معترفًا. «حين يبقى متماسكًا، يكون أمرًا مذهلًا، إلا أنه لا يفعل مطلقًا».

«ليس مطلقًا، بعضُ الناس يفلحون في إبقائه متماسكًا، صحيح؟ والداك أفلحا في ذلك».

«على ما أظن، لقد عاشا تقلّبات بدورهما».

«لكن هذه هي الحياة، أن تواجهنا عقبات، ونستمر في المحاولة، أن نحارب من أجل الأشياء التي نحبّ».

«ماذا إن لم تحبَّك هذه الأشياء بالمقابل؟».

«عندها يكون قد قُضي علينا»، قالت (جيليان) مع ضحكة خافتة.

«لعل طريقة انتهاء الأشياء غير مهمة، لعل ما يهم هو أن نعيش لحظات جميلة، حتى ولو كانت مؤقتة».

«ربما».

«ما الذي فاتَني؟».. سأل (فراني) قافزًا نحو المرآب.

«لا شيء».. قلت.

«كل شيء»، قالت (جيليان).

«حسنًا..».. قال (فراني) وهو ينظر نحوي ثم نحو (جيليان)، وضحكنا.

قفزتُ لأقف على قدميّ والتقطتُ بوقي وقلتُ: «هل أنتما مستعدان للعزف أم ماذا؟».

ولم يكن عزفي أفضل من أي وقت، لكنه لم يكن أسوأ.

•••

ليس على المدينة المهجورة أن تكون مكانًا حزينًا

خسر فريق «إليتاون هاي بانثرز»، الجولة الثانية من التصفيات بنقاط قدرها ٥٧-٦٢، رغم الأداء البطولي لـ(فراني). انتظرناه أنا و(جيليان) في موقف السيارات.. حالما رأيناه، رمَت (جيليان) ذراعَيها حوله وانخفض ليعانقها بدوره.

«كان أداؤك مذهلًا»، تبادلنا الأدوار في قول ذلك.

«شكرًا، من المؤسف أن ذلك لم يكن كافيًا».. قال.

هزّت (جيليان) رأسها قائلةً: «يعتمد هذا على من تسأل».

صعدتُ إلى المقعد الخلفي، واتخذت (جيليان) مقعد السائق، وجلس (فراني) في المقعد الأمامي.

قال (فراني): «أعرف أن هذا غبي للغاية، لكنني ظننتُ أنه قد يأتي اليوم. فقد أُطلق سراحه منذ عدة أسابيع ولم يسمع عنه أحد أيّ خبر.. حتى إن كان لا يريد

أن يتعامل معي، فبإمكانه أن يطمئن على أمه، المرأة التي دفعت نقودًا لم تكن تملكها، لتدفع ثمن بطاقة الدخول إلى السجن، والتي ذهبت إلى «وينستون هيلز»، في طريق استغرقها ثلاث ساعات جيئة وذهابًا لتراك وأنت بائس في بذلتك البرتقالية.. أقل ما تستطيع فعله هو أن تتصل، وتخبرها أنك بخير.. ومن ثم تملك الوقاحة الكافية لرفض دعوتها لك إلى العشاء، رغم أن والدتَك توسّلتكَ وتأمّلت أن تطبخ لك وجبتك المفضلة.. بصراحة، لا أعرف كيف تخيّلتُ للحظة أنه من الممكن أن يتغيّر».

أزاحت (جيليان) يدًا عن المِقود وداعبَت خدّ (فراني).. شعرتُ فجأة بغصة بحجم القبضة في حلقي، غصة أحرقتني، وكانت كبيرة فلم أقدر أن أبلعها، ولزجة فلم أقدر أن أسعل لأخرجها، استقرّت هناك بكلّ نارها.

رنّ هاتفي، وخطرت (كيت) على بالي، لقد مضى أسبوعان منذ تحادثنا آخر مرة.. لكنها كانت

رسالة من أمي: «أخبِر (فراني) أننا نحبه!».

«إنه الطرف الخاسر يا (فراني)»، قالت (جيليان) بصوت خافت جدًا، وقد أكون أخطأت السمع، قد تكون قالت «إنه مضطر». وبكل الأحوال، كانت محقة.

«تبًّا له»، قال (فراني).

«(فراني)، لعله..».. بدأتُ في الكلام، لكن (فراني) كان قد انتقل إلى موضوع آخر.

«ارفعي الصوت»، قال (فراني) وضغط زر رفع الصوت، ثم هزّ أكتافه مع الإيقاع.

لمست (جيليان) سقف السيارة، فانزلقت فتحة السقف لتدخل رُزمٌ من شعاع القمر وصفير الرياح.

«يا شباب، هل تصدقون أننا سنتخرج بعد أسبوع؟».. صرختُ وأنا أنهض لأخرج من فتحة السقف.

«العالم ملكُنا»، هتف (فراني).

قضينا بقية الليل في التجوّل في السيارة، وتناول الوجبات السريعة، وإخراج رؤوسنا من السيارة صارخين في وجه الناس، وفي وجه القمر في ربعه الثالث، وفي وجه خيباتنا.. ولعل ذلك لم يكن يعادل عودة والدك أخيرًا وإخبارك بأنه يحبّك، ولعلّه لا يعادل أن يقرر والداك أنهما مازالان يحبّان بعضهما، وأنهما سيعطيان زواجهما فرصة أخرى، ولعله لا يعادل مكالمة هاتفية من الفتاة التي تعجبك جدًا، لتخبرك أنها لم تتوقف عن التفكير بك.

في الواقع، ما من طرق لتقوية القلوب المفطورة كما في ألعاب الفيديو،

لكن ما كنا نفعله كان حقيقيًا، لم يكن بلا طائل.

•••

الحفل الناجح

لم تكن فرقة «جوي توي»، تخطط للفوز بجائزة «غرامي» لأفضل عرض حيّ، لكننا أبلينًا بلاءً حسنًا في إحياء الذكرى الثلاثين لزواج والديّ.. أدمعَت عينا أمي فرحًا، ولم يتوقف أبي عن التبسّم، وعانقاني بشدة كافية لتكسير أضلعي. كانت حفلة ناجحة بشكل عام.

بعد أن ذهب الجميع، صار فناؤنا الخلفي أشبه بمدينة أشباح باللافتات التي تصدر أصواتًا خافتة حين تحركها الرياح، والأنوار الكروية اللامعة. سكب والداي النبيذ لنا جميعًا، ولـ(فراني) و(جيليان) أيضًا.

«أداؤكم كان مذهلًا»، قال أبي.

قال (فراني): «هذا من دواعي سرورنا يا سيد (كينغ)، إنه أقل ما بإمكاننا فعلُه».

سألتني أمي: «وهل أنت متأكد من أنك سجّلتَ كل شيء يا (جاك)؟ لم تفوّت أي شيء؟».

«نعم يا أمي».. قلت.

أخذ أبي بيَدِ أمي وقال: «والدتُك وأنا سنصعد إلى شرفة الطابق العلوي للاستمتاع بالنبيذ».

غمز (فراني) وقال: «استمتعا بوقتكما».

اعترضتُ قائلًا: «هذا مقزز».

قال (فراني): «ربما آن أوان حديث البلوغ يا (جاك)، ما رأيكم يا رفاق؟ هل أصبح كبيرًا بما يكفي؟».

أجابت أمي: «لا، إطلاقًا. ربما إن..».

«تصبحون على خير أيها الفتيان»، قال أبي وهو يقود أمي خارج المطبخ، «(جيليان) و(فراني)، فلتبيتا على الأريكة».

ثم أبرزت أمي رأسها من خارج المطبخ وقالت: «كلّ منكما على أريكة!»، وأعاد أبي سحبَها خلفًا.

كنا في القبو نشاهد تسجيل عرضنا حين رن هاتفي، وكنت على وشك أن أجيب تلقائيًا دون أن استوعب الاسم، والوجه.

توقف كل شيء وابتلع السواد كل شيء.. كما لو أن شخصًا أقحم أنبوب مكنسة كهربائية في حلقي لتمتص أعضائي الحيوية.

نظرت (جيليان) نحوي من مكانها على الأرض وقالت: «من يتصل بك؟».
قررتُ أن أتركه يرن. من الواضح أن هذا خطأ، لعلها جلست على هاتفها خطًا أو أن شخصًا ما يعبث بهاتفها، أو أنها كانت تقصد الاتصال بـ(جاك) آخر.
هناك ألف سبب يبرر أنها لا تتصل بي.
وهناك ألف سبب يبرر لم على ألا أجيب.
لكن لم يكُن هناك قوة إرادة كافية على هذه الأرض لجعلي أردع إصبعي.
«مرحبًا؟ (جاك)؟».
حطم صوتها الرقم القياسي في السباحة الحرة، وسبح ثلاث جولات في جسدي بثوانٍ.
«(جاك)، هذه أنا، هذه..».
لم أجِبها، لم استطع، أصبح فمي عقدة مشاعر متشابكة.
«هل تسمعني يا (جاك)؟».
لم يتزحزح لساني.
«أتفهّم سبب امتناعك عن الكلام، وسبب غضبك، وارتباكك ربما، وألمك، وأعتذر لأنني لم أكن سببًا لفرحك، بل العكس تمامًا، وأعتذر.. لكنني أعيش بدوري كل هذه المشاعر يا (جاك)، أنا مرتبكة ومتألمة، لكن تجاه نفسي، لأنني الملامة، وأعتذر على كل ذلك.. كنت خائفة يا (جاك)، مما سيحدث إن عرفت الحقيقة، حقيقتي، كنت خائفة من أن ترحل، بقاءُ الأشخاص في حياتي مطلب أكبر من أن يتحقق. هل خفت يومًا من خسارة شخص ما فقررت أن تنهي ما بينكما ببساطة يا (جاك)؟
وأقسم أنني لا أكلّمك لأنني اشعر بالذنب، بل لأنني أشعر بكل ما تشعر به يا (جاك)، كما لو أن دماغينا مترابطين.. وأريد أن أقضي آخر ساعات حياتي معك، هل يُحتسب هذا كاعتذار؟ أنني أفضّل أن أقضي آخر ساعات حياتي حرفيًا بجانبك، لا بجانب أي شخص في العالم سواك، وأعرف أن هذا غريب، فأنا بالكاد أعرفك، أليس كذلك؟ وأنت لا تعرفني حقًا، لكنني اعرف أما أعرفه يا (جاك)، ولا آبه إن لم يُدرك ذلك أي شخص آخر، وأعرف أنك تعرف يا جاك، أعرف أن..».
ثم احتجتُ منديلًا لأنفي، أو اثنين، أو ثلاثة.
«(جاك)؟ أرجوك قل أي شيء.. اطلب مني أن أغرُب عنك، أنني اتصلتُ برقم خاطئ، أن أتركك وشأنك.. قُل أيّ شيء».
«(كيت)؟».
«نعم؟».

«توقفي عن الكلام».
«جرّبتُ هذا مسبقًا، وخسرتُك».
«...»
«(جاك)؟».
«أين أنتِ الآن؟».
«إلى أين أنت ذاهب يا (جاك)؟».. سألتني (جيليان) وهي تنهض عن السجادة.
«سأتصل بك لاحقًا»، قلتُ وأنا عند منتصف سلّم القبو.
«(جاك)»، ناداني (فراني).. «(جاك)!».

•••

كأننا جزء من اليوم

خرقتُ كل قوانين السّير في طريقي إليها.. كِدتُ أصِد سيّارتي بذراع حراسة خشبية، إذ إن الحارسة كانت تُفسح لي الطريق إلى موقف السيارات على أقلّ من مهلها.. اجتزتُ خمسمئة بهوٍ ركضًا، وتوقّفتُ لأخذ الإرشادات مرتين، حتى وصلتُ أخيرًا إلى الغرفة رقم ٤٤٣، وكدتُ أصطدم بممرضة تخرج من الغرفة.

«أنا آسف»، قلتُ وأنا أنظر خلفها نحو الغرفة، كان هناك ستارة تحجب السرير، وكانت الغرفة مظلمة باستثناء ضوء القمر الخافت.

لكن الممرضة لم تهتمّ باعتذاري، وسألتني: «هل أنت أحد أفراد عائلتها؟».

«نعم»، قلتُ كذبًا لأنني لم أرِد أن تصرفَني، ثم في محاولة لقول الصدق، راجعتُ أقوالي: «لا، أقصد، أنا.. أظنني..».

«أنه بصحبتنا يا (ليندا)»، قال صوتٌ أنثوي من دخل الغرفة، فابتعدَت الممرضة.

«لا بدّ أنك (جاك)»، قالت المرأة، ومدّت يديها، فمشيتُ نحوهما.. افترضتُ أنها والدةُ (كيت)، رغم أنني لم أقابلها مسبقًا، ولم أشعر بالغرابة وأنا أعانقها بهذه الطريقة.. كما أن رائحتها تدلّ على أنها من أروع الأمهات، الأمهات اللواتي لا تفرغ جعبتهنّ من ضمادات الجروح والابتسامات.

«أنا والدةُ (كيت)»، قالت مؤكّدةً ظنوني.

«تسرّني رؤيتُكِ، سيدة (إدواردز).. كان بودّي أن نلتقي في ظروف أفضل،» قلتُ مختنقًا.

مسحت عينيها، وقالت: «نادِني (ريجينا)».

«أفضّل أن أناديك بالسيدة (إدواردز).. أمي كانت لتقتلني لو سمعَتني أناديك

(ريجينا)».
ضحكت كما لو أنها تحت الماء وقالت: «لا بأس بهذا يا (جاك)».
«ستكون (كيت) على ما يرام، أليست كذلك؟».
هزّت السيدة (إدواردز) رأسها وقالت: «لا نعرف الكثير بعد، ليست.. يا إلهي..» فعانقتُها مجددًا بتلقائية، وشعرتُ أن جسدها كتلة من الرّجفات الخفيفة. بعد لحظات، التفتُّ نحو الستارة.
«تفضّل»، قالت.
خطوتُ حول الستارة ببطء، وكانت هناك مضخّاتٌ تصدر ضجيجًا، وأضواءٌ تومض، وآلات تطنّ، ووسطَ كل هذا، كانت (كيت).
«مرحبًا»، قلتُ.
«مرحبًا»، قالت ثم جفلَت كما لو أن الكلام يؤلمها.. «لم أظنّ أنك سترغب برؤيتي».
مشيتُ نحو حافة السرير وقلتُ، «أرغبُ ولا أرغب».
«تبدو بحال جيدة»، قالت.
فأجبتُ: «أنتِ أيضًا».
«كاذب».
لكنني لم أكن أكذب.
أومأَت لي لأقترب وقالت، «لن أعضّك، ليس الآن على الأقل.» وحاولَت أن تبتسم، لكنها عقدت حاجبيها.
اقتربتُ وأنا أتفحّص مجموعة الأسلاك المنتشرة على الأرضية.
«هل أنت بخير؟».. سألتُ.. سؤالٌ غبيّ.. باستطاعتي أن أمتَهِن زراعة وبيع الأسئلة الغبية العضوية التي ترعى بحُريّة.
ضحكَت وهي تجفل ألمًا وقالت: «أنا بصحة ممتازة، لكن لدى هذه المشفى مخفوق الشوكولا الأطيب، لذا قررتُ أن أدخل إليها».
«أنا أحمق».
«لستَ كذلك»، عضّت شفتها، «أنا سعيدة لأنك أتيت».
تنحنحت السيدة (إدواردز) وقالت: «أنا ذاهبة لجلب.. القهوة.. من المقهى، هل أجلب لكما شيئًا؟».. كنتُ قد نسيتُ أنها هناك.
«لا، شكرًا يا أمي».
«ولا أنا».
أومأت السيدة (إدواردز) برأسها وضغطت على قدم (كيت) قائلة: «سأعود

سريعًا».. ومشت نحو البهو، ثم نادَتها الممرضة، وحدّثتها بصوتٍ خافت إلا أنه كان انفعاليًا. أومأت والدةُ (كيت) برأسها مرارًا ثم تعانقتا.

«أنا آسفة بشأن حفل التخرج يا (جاك)».

«يبدو أن لديكِ سببًا مقنعًا للغاية، وإن كان لديكِ أي شيء لتعتذري بشأنه، فهو أنك لم تخبريني الحقيقةَ وحسب».

«قولُ إنني»، مصابة بمرض وراثيّ «يجعل أغلب الناس ينفرون».

«مُصابة بمرض وراثيّ»؟ ماذا قصدَت بذلك؟ عصفت بذهني الاحتمالات.

قلتُ لها: «من الجيد إذًا أنني لستُ مثل أغلب الناس.. هل ستخبريننني إذًا ما خطبُك؟ لمَ أنتِ هنا؟».

أومأت (كيت) بالإيجاب وقالت: «نعم.» ثم هزّت رأسها وقالت: «لا، حقيقةً».

«(كيت)».

«أدينُ لك بتوضيح، أعرف هذا، وأعِدُك أنني سأوضّح لك كل شيء، لكن ليس الآن.. الآن أريد أن استمتع بوقتٍ معك لا أكون فيه الفتاة المريضة، وتنظر نحوي كما كنتَ تفعل حين لم أكن أضع قناع الأوكسجين، كما كنتَ تفعل حين التقينا أول مرة، وجلسنا في مطبخ لا نعرفه وتشاركْنا حبوب الفطور».

حاولتُ أن أعترض لأنني بالطبع أردتُ أن أعرف ما خطبُها، لمَ (كيت) في المشفى، لكن رغبتي بإسعادها كانت أقوى، أردتُها أن تشعر بالأمان معي، مثلنا أشعر بالأمان معها.

«حسنًا، ليس الآن، بل لاحقًا».. قلت.

«أعدك أن أخبرك لاحقًا»، قالت وأشرق وجهها كما لو أن الأضواء في عينيها قد تم استبدالُهما.

«إذًا»، قلتُ وأمسكتُ كيس بقالة بلاستيكي، «أعرف أنها لا تعادل حبوبَ فطورِ حلقاتِ الفواكه، لكنني جلبتُ لكِ هدايا».

«بطلي!».

«إنها مجرّد بقايا من الحفلة».

«يا إلهي! حفلةُ والدَيك! تبًا، أشعر بالذنب.. يجب أن تكون مع عائلتك، لا هنا».

«لا تشعري بالذنب، فقد انتهت الحفلة بكل الأحوال».. بحثتُ في الكيس وقلتُ: «ليست أشياء فاخرة جدًا، طبقُ بطاطا حلوة، ولازانيا السبانخ، أرجو ألا تمانعي أنها قطعة من وسط الطبق. إنها لذيذة حقًا، لكنني لستُ واثقًا بخصوص خلطة الجبنة.. وجزء من قالب حلوى السنوية الشهيّ، والذي، كما تعرفين، سيكون شهيًا مع مخفوق الشوكولا الذي يصنعونه في المشفى».

«(جاك)، أنت تُصبح أغلى على قلبي بهذا يا فتى».

«إنها قطعة جانبية أيضًا».

صفّقت بيديها وقالت: «جلبتَ لي قطعة جانبية؟ مع كريما إضافية؟».

قلتُ: «مع كريما إضافية.. هل ظننتِ أنني كنتُ لآتي لولا أنني جلبتُ لك كريما إضافية؟».

جلسنا صامتَين.. لا لأنه ما من شيء لنقوله، بل لأنه هناك الكثير لنقوله.

حاولت (كيت) أن تبتسم، وأن تمسح الدمع الذي ينسكب من عينيها وأنفها دون أن أراها، وقالت: «يا له من توقيت سيئ، ويا لي من فاشلة، إنه يوم مهم لدى والدَيك.. ليس من المفترض أن تكون عالقًا معي هنا».

«لستُ عالقًا».. رفعتُ قدميّ عن الأرض، كلًا على حدة، رفعتهما بما يكفي حتى تراهما من فوق حافة السرير.. «قدماي تعملان بشكل جيّد، أتَرَين؟» ودُرتُ دورةً صغيرة.

«يا للمفاجأة! تتحركان فعلًا».

وضعتُ كرسيًا بجانب سريرها وقلت لها: «عن ماذا تريدين أن نتحدّث؟ عن الانتخابات المقبلة؟ عن الوكالة الفيدرالية لإدارة الطوارئ؟ تريدينني أن أقُصّ عليك حكاية؟».

«لا، لا، وهذا يعتمد على نوع الحكاية».

«أفكّر في حكاية مملة، ومليئة بالتفاصيل الريفية، وبنهاية سعيدة».

رفعَت بطانيّتها، وعدّلتُ لها وضعية وسادتها. بَدَت صغيرة في السرير، وبشرتها البنية الشاحبة في مواجهة البياض الصارخ للأغطية.

«أحب الأشياء المملة، الملل أمر جيد».. قالت.

«حسنًا، هذا جيد لأنك أمام قاصّ أكثر الحكايات مللًا في العالم».

«يا لي من محظوظة!».

أمسكتُ يدها، أصابعها كانت باردة.. سمعتُ هسيس الأكسجين الداخل إلى أنفها، وشممتُ رائحة مسحات الكحول المرة.. ابتسمتُ لها وقلتُ لنفسي إن كل شيء سيكون على ما يرام.

«راودني منام غريب جدًا البارحة».. قالت.

«حقًا؟».

«نعم، كنت أنتَ روائيًا عظيمًا، ولم أتفاجأ بذلك، وعُرض أحد كتبك كمسرحية، ولا أظنّك كنتَ تتوقع حضوري، لذا جلستُ بين الجمهور لوحدي، لكنني كنت سعيدةً للغاية لمجرّد كوني موجودة هناك لمشاهدة شيء قد أبدعتَه أنت.. وحين انتهت المسرحية، انتظرتُك في الخارج. خرجتَ وكنتَ تمشي نحو مجموعة من أصدقائك، فقلتُ لك: «مرحبًا يا (جاك) المحارب». وعرفتُ من

طريقة تحريكك لرأسك، حتى وأنت تُدير ظهرك لي، أنك عرفتَ أنني من يتكلم. فاستدرتَ وابتسَمتَ. مشيتَ نحوي وأنظارنا لا تفارق بعضها ثم..».

توقفَت عن الكلام.

«ماذا حدث بعدها؟».

«ثم تحوّل المنام كليًا وتحوّلتُ فجأة إلى سيارة.. كان ذلك مذهلًا. تحولتُ إلى سيارة ذات محرك أحمر ناريّ ونوافذ مُعتمة وتقنيات حماية».

انفجرتُ ضاحكًا وقلت: «أنتِ الكاتبة الحقيقية في هذه العلاقة».

هزّت رأسها وقالت: «أردتُ أن أتقدّم بطلب لأعمل كمُلهمة، أما زال شاغرًا؟».

«نعم».. قلتُ وضغطتُ على يدها، فضغطَت بدورها. كانت تلك شيفرة مورس الخاصة بنا.

«أين وجدتُكِ؟».. سألتُها.

«على سلّم بائس ملطّخ بالبول».

«أفضل سلّم في العالم».

«أفضل سلّم في العالم».. ردّدَت.. أشاحت ببصرها عني ونظرت نحو الستارة، كانت قاتمة، لكن بدا أنه باستطاعتها أن ترى من خلالها. ولعله باستطاعتها، لعلها تواجدت في هذا المكان، وأماكن تشبهه، بما يكفي لتعرف ماذا هناك في الطرف الآخر».

«جاك؟».

«نعم؟».

«إن حصل مكروه، أريدك أن تذكرني..».

قاطعتُها قائلًا: «لا تقولي هذا، لن يحصل أي مكروه».

«توقف».. قالت وهي تضغط على يدي مجددًا، «أنصِت إليّ..».

أومأتُ موافقًا لأنني لو تكلّمتُ فسيخونني صوتي.

أريد أن تذكُرني، لا كفتاة إفريقية ذات قدمين نحيلتين، قادمة من ضواحٍ مجهولة، أريدُ أن تُذكّرك بي أوقات مثل هذه: القمر عند كتفيك، ويقوم برحلته في الليل، والنجوم تتراقص.. تذكّرني هكذا.. المطرُ يهطل في خطوطٍ مائلة، والضباب يعمّ المكان، وأضواء الطريق مُضاءة. كلّما شهدتَ ليلةً كهذه، أريدُك أن تتذكرني وأنا أتبسّم وأضحك لك. لِتذكّرك بي، فليُذكّرك بنا، جزءٌ من اليوم».

حاولتُ أن أتكلم، لكنني لم أستطع.. باعدتُ شفتيّ قليلًا ثم أغلقتُهما.

دخلت الممرضة، وأعطَت (كيت) حقنة وريدية لتسكين الألم، وأخبرتني أنها ستجلب لها النعاس، وأنه من الأفضل أن أتركها ترتاح.

وأردتُ أن أقوم بما يجلب الراحة لـ(كيت)، لكن كل ما أعرفه هو أنني لا أعرف ما الأفضل بالنسبة لها. راودتني ألاف الأفكار لكنني لم أصل إلى أية نتيجة.. لذا جلستُ بصمتٍ مراقبًا جفون (كيت) ترفرف حتى أخذها النعاس.

«(جاك)»، قالت قبل أن تغمض عينيها تمامًا.

«أنا هنا».

«أخبِر (فراني) أنني آسفة بخصوص وعدي له بحضور حفل لفرقة «مايتي موت»، أدين له بحفل».

أمسكتُ يدها قائلًا: «أظن أن حياته لن تتوقف على ذلك».

فانحنت شفتاها نحو الأعلى لتشكّلا تعبيرًا شبيهًا بالابتسامة.

حين عادت والدتُها، أعطتني كوب قهوة، فارتشفتُ منه، ولم يهمّ أن مذاقه يدل على أنه قد صُنع منذ عدة أيام، فقد كان مجرد شيء نفعله بينما ترتاح (كيت)، بينما أجلس مترقبًا ما سيجري.

عندما أنهيتُ القهوة، ضغطَت والدتُها على كتفي وقالت: «عُد إلى منزلك يا (جاك)، سأخبرها أن تتصل بك حين تستيقظ».

«هل أنت بخير؟».

أومأت بالإيجاب وقالت: «السيد (إدواردز) في طريقه إلى هنا، سنكون بخير».

أردتُ أن أُعارض، لكنني عانقتُها بدلًا من ذلك، عانقتُها بطريقة على أن أعانق أمي بمثلها مراتٍ أكثر. ثم وقفتُ عند سرير (كيت)، وترددتُ قبل أن أضغط على جبينها بشفتيّ.. لم تتحرك.

«تصبحين على خير، يا جزئي المفضّل من اليوم».

•••

أطفأتُ أضواء السيارة الأمامية، ورأيتُ منزلي مظلمًا وهادئًا. وكانت البوالين الجافة تدور حول صندوق البريد.. كان ذلك قبل ساعات قليلة من الفجر. شعرتُ بغرابة حين فكّرتُ بأننا نبذل الوقت والجهد في شيء ما، ثم ينتهي، وسرعان ما يُستبدل بشيء جديد.

تعثّرتُ صندوق بوقي أثناء دخولي، لم تكُن محاولة ناجحة للتسلل إلى السرير، وبكل الأحوال، كان والداي ينتظرانني في المطبخ.

«(جاك)»، همسَت أمي كما لو أنها خائفة من أن أنهار إن رفعَت صوتها مقدار ديسيبل واحد، تفحّصت عينيّ وسألتني: «كيف حالُها؟».

«ستكون على ما يرام»، أخبرتهُما.

«ما الذي جرى؟ ما خطبُها؟» سألني أبي.

«لستُ متأكدًا، لم تخبرني».

«حسنًا، أنا سعيدة لأنها بخير.. هذا كلّ ما يهمّ.. عليك أن تتّصل بـ(جيليان) و(فراني)، إنهما قلقين».

«رحلا؟».

«أوصلتُهما بالسيارة إلى منزليهما منذ قليل»، قال أبي.

أومأتُ برأسي وقلت: «آسف لأنني رحلتُ مسرعًا دون أن أخبركما».

لكنهما هزّا رأسيهما كما لو ليخبراني ألا أقلق بشأن ذلك.

«لا تأسَف»، قالا لي، «ما فعلتَه كان صائبًا يا (جاك)».

حين صعدتُ إلى غرفتي، بعثتُ لـ(فراني) رسالة لأخبره أنكل شيء على ما يرام وأنني سأقابله صباحًا، واتصلَت بي (جيليان) وأنا أصعد إلى سريري، واتفقنا على الذهاب إلى المشفى سويًا. في اليوم التالي. سحبتُ أغطية سريري الصوفية وأنا أفكر بكل الأشخاص في حياتي، بعائلتي وأصدقائي، و(كيت) وهي مضطجعة في سريرها في المشفى، وكنتُ خائفًا بشدة من المستقبل المجهول ومن التقلّبات والمنعطفات غير المتوقعة التي تأخذها الحياة، لكنني أدركتُ أيضًا أنني محظوظ للغاية، لامتلاكي كل هذا، وتساءلتُ كيف حالفني الحظ لهذه الدرجة.. نمتُ وأنا أحاول فهم ذلك.

•••

أيقظتني الرنة المخصصة لمكالمات (كيت) من نوم عميق، مددتُ يدي نحو هاتفي، وكانت الساعة ٣:٣٧ صباحًا.. تنحنحتُ قبل أن أجيب قائلًا: «مرحبًا، هل كان نومكِ هانئًا؟».

«(جاك)، أنا آسفة لمكالمتك في هذا الوقت».. بدا الصوتُ شبيهًا بصوتها، لكنه لم يكن صوت (كيت)، وعرفتُ أن هناك خطبًا ما.

«(جاك)، هل تسمعُني؟».. قالت أمها. «لقد رحلَت يا (جاك)، (كيت) رحلَت».. ولم أنهِ المكالمة، لم أحرّك الهاتف بعيدًا عن فمي حتى، لكنني لم أتكلّم.. ما الذي لديّ لأقوله باستثناء التساؤل لمَ كذب الجميع عليّ؟ والدةُ (كيت)، والممرضة، و(كيت).

ظلّوا يرددون: «تحتاجُ أن ترتاح فقط، تحتاجين للراحة فقط».

لماذا كذبوا جميعًا؟

ثم استدركتُ، لا بد أنها كانت تعرف. قالت لي: «إن حصل مكروه».

وكرهتُ القمر، وكرهتُ النجوم، وكرهتُ السماء المظلمة، وكرهتُ السماء والضباب.. كرهتُ المشافي، وكرهتُ الأسرّة وأغطيتها، وكل آلة تم صنعُها، والممرضين والأطباء.. كل ما كان عليهم فعلُه هو إبقاؤها على قيد الحياة..

وكرهتُ نفسي أكثر من أي شيء، بسبب أكاذيبي البائسة. أخبرتُها إنها ستكون على ما يرام. لم أكن على حق، بل كنتُ مُغرقًا في الخطأ.

«أنا قادم،» قلتُ أخيرًا، لكنني لم أكن متأكدًا من أن والدة (كيت) لاتزال تسمعني.. تعثّرتُ خارجًا من السرير، ولبستُ سروالًا رياضيًا، وأدخلتُ قدميّ في حذاء رياضيّ قديم، وركضتُ مسرعًا نحو السلّم، لكنني كنتُ مُشتتًا، وكان موضع قدمي مُعتمًا، فلم ألاحظ عتبة السلّم الأولى. انزلقتُ ورأسي يتقدّم جسدي، حاولت يدي التشبّث بالجدار، وبحافة السلّم، لكن أصابعي انزلقَت، ولم أستطع إيقاف سقوطي، ولم يخفف من سقوطي أي شيء. ارتطم جسدي بكل عتبة، تعثّرتُ مصدرًا ضجيجًا عاليًا، حتى توقفتُ أخيرًا.. لم أستطع أن أتنفّس، فقد أفرَغ الارتطامُ الهواءَ من صدري.. ولم أستطع أن أفكّر، وعصَفَت الأفكار في ذهني.

«(جاك)، هل أنت بخير؟ (جاك)؟ (جاك)!».. صرخ أحد من أول السلّم، لكنني لم أتعرّف على الصوت، لم أميّز إن كان صوت أمي أو أبي، أو لعله كان صوت الله في رأسي.. أضيء البهو، وراودتني رغبة تلقائية بأن أغطيّ عيني، لكنني لم أستطع تحريك أصابعي. ثم سمعتُ صرير الخشب، وأصواتًا مذعورة: «اتصل بالإسعاف! اتصل بالإسعاف! (جاك)! (جاك)!».. ثم شعرتُ بأسوأ ألمٍ خبِرتُه في حياتي، كما لو أن رأسي صندوق مثلجات، ويحاولُ أحد ما أن يجتزئ من دماغي قطعًا بالملعقة، قطعة صغيرة في كل مرة. سمعتُ صراخًا يُصمّ أذني، وأدركتُ أن هذه هي النهاية.

نومًا هانئًا أيها المساء.. نومًا هانئًا أيها الكون. نومًا هانئًا يا (جاك).. نومًا هانئًا.

•••

أول لاعب من أصل إفريقي يلعب في دوري كرة القاعدة الرئيس في العصر الحديث.
لأنه لا «يقتطع» من وقته لرؤية (فراني).
لا شيء.

الفصل الثاني

إذًا عادةً ما تكون الأجزاء الثانية سيئة ولكن...

هل تؤمن بالحياة بعد الحب؟

لم يكن الموت كما كنت أتوقعه، لم أرَ حياتي بسرعة كبيرة أمام عيني.. ربما قرر من يتحكم بها أن يعفيني من الملل.. ولم يبتلعني بحر من الظلام، ولم أشعر بأني خفيف أو أنني أنجرف ولا أذهب لأي مكان محدد، اكتشفت أن الموت يشبه الاستيقاظ إلى حدَّ كبير، وباعتبار أنني منذ لحظة فقط كنت أسقط بسرعة نيزكٍ إلى أسفل السلم، ولم أتوقف سوى بسبب اصطدام رأسي بالأرض، فشعرتُ أن الاستيقاظ بكل أشكاله (حتى المميتة) انتصارًا كبيرًا.

لم أتوقّع هدية ترحيب تقول «مرحبًا بك مرةً أخرى يا (جاك) إلى وعيك، لقد اشتقنا لك جدًا» عند استيقاظي، لكن أظن أن سرير المشفى كان احتمالًا أكبر، لذا حين فتحتُ عينيّ، لم أكن متأكدًا مما سأرى، ترقّبتُ جدرانًا بيضاء، متشققة، وضوءًا اصطناعيًا، ووالداي ينظران نحوي من فوق السرير، لكن غالبًا ما تكون التوقعات مجرد فخ، لأنني رأيتُ ورق جدران متشققًا بدلًا من ذلك، وأضواء ديسكو صارخة، وموسيقى صاخبة.

لكنها لم تكن جوقة موسيقية من ملائكة تعزف ألحانها، وسمعتُ هنالك ضجيجًا، لم يكن مصدرُه أصوات والداي أو أصوات أحد يرشدني للسير باتجاه الضوء، بل كان ضجيج أصوات شابة، تحظى بوقت رائع، ومحتفلة، تجول في الغرفة بطاقة كبيرة حاملةً الفوضى معها.

قال شخص أن لا أحد يصنع موسيقى حقيقية بعد الآن، وأيًا كان من يتحدث مع هذا الشخص فهو يوافقه، فتقول الفتاة بصوت عالٍ «حقًا».

ومع أنني ارتطمتُ بالجدار بعد أن وقعتُ على السلم، فلم أجِد نزيفًا من رأسي حين لمستُه. كانت كل حواسي بخير، وكنتُ حيًّا.

من الواضح ورغم رؤيتي الضبابية، أنني جلستُ على سلّم، لكنني لم أكن في منزلي أو على سلّمي، ولم أسقط تلك السقطة الانتحارية على ذلك السلم بالتأكيد. لكنني كنت أعرف ذلك المنزل، ورق الجدران السيئ، وذلك السلّم، لقد كنت هنا سابقًا، في البقعة ذاتها، منذ عدة أشهر على ما أعتقد، لكن ذلك أمر مستحيل، فقد ضرب رأسي بالأرض بقوة كبيرة جدًا، لا بد أنني في غيبوبة.

أو لعلني أخطأت بالتعبير، هل أنا... عكس الحي؟، تلمست صدري، ورجلي، كل شيء صلب متماسك، صفعت نفسي، وأحسست بالألم، لكن لم يكن ذلك منطقيًا البتة، لعل هذا المنزل محطة انتظار؟ مكان كي أمكث به ريثما ينتهي الإله أو أيًا كان من سجلاتي الورقية؟

لكن إن كان هذا المكان متعلق بالجنة بأي شكل من الأشكال، ولا أقصد الإهانة إن كان متعلقًا بها، فهو بغيض جدًا، فلا أظن أن الموسيقى والإضاءة الموجودة، وعدد الشتائم التي سمعتها في الأربعين ثانية السابقة أن هذا مكان مقدس، رغم أنني لم أفكّر بالفردوس كثيرًا أو بالموت حتى.

في الحقيقة، المرة الوحيدة التي ذُكر فيها الله هنا، هي عندما صرخ فتى أمام التلفاز في الغرفة المقابلة «يا إلهي!، قم بالاسترداد هيا!».. قال للفتى الطويل الذي يقف بجانبه «يتم تحطيمهم كليًا»، ثم قال بغضب: «سيكون هذا أسوأ ما في هذه السنة».. هز الفتى الطويل رأسه وقال: «لن يكون لديهم الدافع الكافي للوصول إلى الدوري».

ثم استدركتُ أنني أذكر تلك المباراة، اتخذت اللعبة مسارًا هائجًا بعد ذلك حتى فاز فريق الولاية بثلاثية غير متوازنة في اللحظة الأخيرة قبل إنذار نهاية اللعبة، أذكر اللعبة لأن (فراني) ظلّ يتحدث عنها لأيام بعد أن شاهدناها.

نقلتُ نظري بين أرجاء الغرفة لأجد أني قد رأيت هؤلاء الأشخاص مسبقًا، الشاب بسترته ذات القبة الواسعة، والفتاة ذات وشم «هيلو كيتي».

كانت اللحظة ذاتها منذ ٤ أشهر تمامًا، وحتى قبل أن أنظر إلى المطبخ، كنت أعرف من سأرى، كانت عند المنضدة، محاطةً بمجموعة من الناس، صديقتي المقربة (جيليان)، التقت نظراتنا ثم لوّحت لي، بدون تفكير رفعتُ كأسي لها، وأومأتُ برأسي، فابتسَمت لي وشعرتُ بذات البهجة التي أشعر بها حين تبتسم. أومأت لي بأن أنضم لها، لكن قبل أن أتحرك من مكاني، سمعت صوتًا كنت متأكدًا من أنني لن أسمعه مرةً أخرى، نظرتُ للخلف لأرى صاحبة الصوت تهز برأسها كأن كل ثانية تنتظرني بها لأتحرك من طريقها هي ثانية في العذاب، وتقول تلك الكلمات السحرية التي لا يمكنني نسيانها: «عذرًا، أنت تسد الطريق إلى السلم».

كنتُ منذهلًا كليًا، لكنني كنتُ قادرًا على الحركة بطريقة ما، فنهضتُ وصِحت: «ماذا تفعلين هنا؟» وجسدي مستعد لأكبر وأجمل عناق في التاريخ...

لكنها ابتعدت باشمئزاز واضح على وجهها، هو ذاته الذي رأيتها تقوم به عندما كانت ترى الحشرات ذات الـ١٢ رجلًا و٨ أعين، وقالت: «ماذا بك يا رجل؟!»، ضحكتُ وقلت: «ماذا؟ هل رائحتي كرائحة الموت؟».. ثم رفعت يديّ لأتأكد من رائحتي، فنظرت إلى بارتباك وحيرة، وتراجعت خلفًا وقالت: «ربما، لكن معانقة الشبان الغرباء ليست واحدةً من هواياتي المفضلة عمومًا»، فقلتُ متعجبًا: «الشبان الغرباء!؟، أنا؟ هل أكثرتِ من المشروب، لأنني متأكد بأنك قد...»..

ثم فهمت أخيرًا، فتاة الهيلو كيتي، مباراة كرة السلة، وقولُها: «رجاءً، يا رجل انت تسدّ طريق السلّم»، لم تكن (كيت) تتظاهر بعدم معرفتي، هي حقًا لا

تعرفني، لم نكن قد تبادلنا الرسائل الإلكترونية قط، لم تكن قد خلفت بوعدها بمرافقتي في حفلة التخرج قط، لم تكن حفلة والداي قد حدثت، لم نكن قد تشاركنا وعاء حبوب الفطور، كانت تلك اللحظة هي بداية تاريخنا، عدنا غريبين مجددًا، حسنًا لم نكن غريبين تمامًا لأنني أعرفها، بل واقع في حبها تقريبًا، لكنها لا تعرفني، وبحسب تعابير وجهها في تلك اللحظة، لم تكن معجبة بي حتى.. وقفنا سويةً أمام بعضنا البعض وقفة ارتباك شديدة، حتى قامت بالسعال قليلًا، مما جعلني أدرك أن سبب بقائها هو أنني أعترض طريقها، حشرتُ نفسي عند الحائط الوردي المتسخ مبتعدًا عن طريقها وأنا أقول: «أوه، أنا آسف» فردّت: «تشرفت بمعرفتك يا آسف»، أجبتُ قائلًا: «لا، اسمي ليس آسف».

فضحكَت قائلة: «أهذا أول لقاءٍ بشري لك في حياتك؟، أم أنك مضطرب هكذا دائمًا؟»، كنت حقًا أريد أن ألمسها، فقط كي أتأكد من أنها حقيقية وقلت: «فقط عندما يكون الطرف الآخر شخصًا مهمًا بالنسبة لي».. ابتسمَت قائلة: «أظن أني شخص مهم جدًا بالنسبة لك إذًا».. قلت: «الأهم حقًا» رمشت بعينها متذمرةً وقالت: «أظن أنك تقول هذا الكلام لكل الأشخاص الذين تقابلهم».. فنزلت عن السلّم وقالت: «أراك في الجوار يا، آسف.» أجبتُها: «حسنًا».. ولوّحت لها بحماس كأنني أمها التي تشاهدها وهي تصعد للمرة الأولى إلى باص المدرسة. قلتُ: «تشرفت بمعرفتك!»

وفي نفسي أقول: «مرةً أخرى».. فأجابت: «نعم وأنا أيضًا» ثم تمتمت: «أظن ذلك»، صَحت: «انتظري قليلًا».. لكن صوت المحتفلين طغى على صوتي، ثم رأيتها ترحل وتختفي بين كتل المحتفلين، أما أنا فمتموضع على السلم الذي لم تعد رائحته مقززة بعد الآن، وما كنت لأبالي حتى لو سمعتُ بحلَّ لمشكلة الاحتباس الحراري، أو أن شخصًا ما قد ربح الجائزة الكبرى في مونوبولي ماكدونالدز لأن رأيت (كيت)، رأيتُها.

رمَت (جيليان) بقطعة شيبس صغيرة في فمها وقالت لي: «هل تحظى بوقت جيد؟»، كنت أتساءل كيف وصلَت إلى السلالم بتلك السرعة الكبيرة، لكن عندها أدركت أنني من ترك السلّم خلفه وطاف إلى المطبخ.. استخدم كلمة طاف للتعبير عن الحرية، التي أحتاجها كي أشرح كيف أني عدت بالزمن إلى الوراء، وكي لا تفهم أنت عزيزي القارئ بشكل خاطئ أني طرت كالشبح أو ما إلى هنالك.

أجبتُ (جيليان) قائلًا: «نعم، إنها حفلة رائعة»، وأنا أقوم بالبحث عن (كيت) بين الجموع ثم أكملتُ: « وأنتِ أتستمتعين بوقتك؟»، قالت (جيليان) منزعجةً: «كنت أتمنى أن نقضي القليل من الوقت بالكلام أو ما إلى هنالك سويًا من دون أي أحد»، عندها توقفت عن البحث عن (كيت)، ونظرت إلى (جيليان) وسألتها: «هل كل شيء على ما يرام؟» قالت (جيليان) « نعم كل شيء جيد،

لكن أشعر بأننا لم نعد نجلس لوحدنا مؤخرًا، فالمدرسة، والعمل، والأمور العائلية، تشغلنا عن الجلوس لوحدنا»، توقف بحثي عن (كيت) تمامًا وقلت «نعم أفهمك تمامًا» قالت (جيليان): « عمّ تبحث؟» قلت: «لا شيء».. ثم قالت: «أيها الكاذب، إنك تبحث عن فتاة، هل قابلت أحدًا ما، يا (جاكي)؟»، جاوبتها بلبكة شديدة: «أنا؟ لا لم أقابل أحدًا، كيف لي أن أقابل أحدًا؟»، فردّت متفاجئةً وممسكة بكتفي: « يا إلهي، أين هي؟ أريد مقابلة تلك الفتاة.» فقلت خجلًا: «لا لا، لا أريد وضع احتمالات وافتراضات مستحيلة».. فقالت لي: «سأساعدك بإيجادها، كيف تبدو؟». فقلت» حسنًا، إنها ذات بشرة سوداء، وشعر داكن، وعينين بنيّتين».. هزّت جيليان رأسها مستهزئة وقالت: «حسنًا، لقد قلصت الاحتمالات إلى نصف الأشخاص في الحفلة، أية مواصفات أخرى؟ ماذا كانت ترتدي يا روميو؟»، قلت: «ترتدي فستانًا يشبه السترة، وحزامًا فوقه على خصرها».. طرطقت (جيليان) بأصابعها كأنها علمت ما كنت أقصده وقالت: «أظن أنني رأيت تلك الفتاة، أظن أنها جلبَت مشروبًا ثم ذهبت، أو خرجت للخارج قليلًا، أظنها..».. قاطعتُ (جيليان) وخرجتُ مسرعًا.

•••

هل أعرفك من حياة سابقة؟

بدأت بالتجول بسرعة حول منزل الحفلة، متفاديًا الكحوليين والمدخنين، استمررت بالتجول حتى وجدتها، كانت تتصفح هاتفها وبيدها كأس.

قفزت عيناها قلقًا بعد أن أحست بي وقالت: «عذرًا أتلاحقني؟»، أجبتها: «من؟ أنا؟»، «لا أقصد الشاب الغريب الذي يقف خلفك».. ردَّت، فقاومتُ بشدة الرغبة بالنظر خلفي وقلت: «فقط للتأكد، لا يوجد شاب غريب خلفي، أليس كذلك؟»، ابتسمَت وقالت: « فقط حين يكون خلفك مرآة».. قلتُ لها ضاحكًا: «أنتِ مضحكة»، وشعرتُ بالحنين إلى ذكرياتنا وكم كانت تضحكني، فأجابت: «لم يقل لي أحد ذلك من قبل، لكن شكرًا مع ذلك.» ارتشفت من كأسها وسألتني: «ماذا تدرس هنا؟»، قلت: «ماذا؟»، فأجابت: «حسنًا، حسنًا، أعلم أنه كان سؤالًا سطحيًا للتعرف على شخص ما، لكنني أحب أن السخافة والسطحية أحيانًا، لذا استحملني قليلًا».. قلت لها: «لا، أنا لا أدرس هنا»..

قالت متعجبةً: «لا!؟، تدرس في كاليفورنيا إذًا؟»، قلت: «أنا هنا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، وزيارة جامعة «ويتير»، ردت متفاجئةً: «لقضاء عطلة نهاية الأسبوع! ألديك أصدقاء يرتادون الجامعة هنا؟» رديت خجِلًا: « ليس بعد، أنا هنا في زيارة فقط».. فردّت قائلةً: « زيارة للحرم الجامعي؟ ألا زلت في المدرسة الثانوية؟» جاوبتها وأنا أحاول تضخيم صوتي كي أبدو كبيرًا: «أنا في السنة الأخيرة، لقد قدتِ جولتنا في مركز الطلبة»، ثم قالت وهي تشير إلى وكأنها ستطلق الليزر على بأصابعها: «أنت الصبي الهادئ الذي ظل واقفًا في

الخلف!» قلتُ بهدوء محافظًا على ضخامة صوتي: «نعم ذاك كان أنا»، ضحكَت بشدة وقالت لي مستهزئة بمحاولتي لتضخيم صوتي: «يا لك من شاب كبير في السنة الأخيرة. وفكرتَ بالمجيء إلى هنا في عطلة نهاية الأسبوع كي تجد لنفسك جامعة جيدة؟».

عدتُ بعد هذه الجملة مباشرة إلى صوتي الحقيقي الذي يخرج مني دائمًا حينما أكون أكلم فتاة جميلة وقلت بقلق: «لا، على الإطلاق، أنا فقط، أعني أنني لا، في الحقيقة كل من يعرفني يعلم بأني لست هكذا، في الحقيقة أنا...» قالت مبتسمة: « استرخي يا رجل، أنا أمازحك فقط»، قلت بتردد: «نعم كنت أعرف هذا».. فقالت مستهزئة «طبعًا كنت تعرف هذا، فأنت طالب في السنة الأخيرة من الثانوية».. وضعت كأسها عند حافة شرفة المنزل وسألتني: «أعتذر على استهزائي، هل أنت جائع؟».

كنت أفكر في أنني لا أعلم لماذا عدت إلى تلك النقطة من حياتي، أو إن كنتُ أتوهّم، أو إن كنت سأستيقظ في أية لحظة من غيبوبة كنت فيها من البداية، أو إن كان كل ذلك كان مجرد حلم، أو شكلًا من أشكال الخيال، لكنني أحسست بالطاقة الهائلة لمجرد وجود احتمالية فرصة أخرى مع (كيت).

نهضت على قدميّ وكأنني اكتشفت أني أستطيع الطيران، كأنني سأحلق للمرة الأولى في حياتي، وقلت «نعم، أنا جائع».

قالت لي بعد أن وضعت أطول قطعة بطاطس مقلية رأيتها في فمها: «اسمي (كيت) بالمناسبة»، أجبتُها: «وأنا (جاك)»، قالت وهي تشير بإصبعها إلى قطعة البرجر خاصتي والتي لم آكل منها شيئًا تقريبًا: « قلت لي أنك جائع»، قضمتُ قضمة صغيرة من البرجر، وقلت: «أنا حقًا جائع»، ولم أكن جائعًا فعلًا، فكيف لي أن آكل وأنا أحاول جاهدًا تفسير حقيقة أنني سافرت عبر الزمن؟ وأنا أحاول جاهدًا أن أفسر سبب وجودي هنا، في هذا الوقت بالتحديد، مع (كيت). قالت (كيت): «هل أنت واحد من أولئك الأشخاص الذين يوافقون على كل ما يسمعونه؟»، قلت باسترخاء: «لا، أنا أشعر بأني في مزاج جيد للموافقة اليوم»، فأجابت وهي ترفع حاجبيها: «حقًا؟».

«أشعر أنني لن أشهد مثل هذه الليلة مجددًا في حياتي».. ثم قالت معجبةً بجوابي: «تعجبني ثقتك بنفسك، أظن أنك واحد من أولئك الشبان الذين يفطرون القلوب.» قلت لها» حسنًا قد يصدمك الموضوع، لكن من الصعب جدًا أن تكوني مهووسة بالدراسة في الثانوية»، فقالت وهي تأكل قطعة أخرى من البطاطس المقلية: «لا تقلق، سيفيدك كونك مهووسًا بالدراسة حين تريد الحصول على عمل، كما أن الجامعة هي المكان الأنسب لتعيد إنشاء شخصيتك».

فسألتها: «كيف كانت شخصيتك القديمة؟».

«أنا؟ ما زلت أعمل على إنشاء شخصيتي الجديدة».

«حسنًا لا تغيري الكثير في شخصيتك، وإلا لن أستطيع تمييزك مرةً أخرى»، عندها مسحَت فهما بمنديل وسألتني بشكل جدي»(جاك)، هل التقينا سابقًا قبل هذه المرة؟»، حركت رأسي غير موافق بتوتر شديد وقلت: « لمَ تسألينني هذا السؤال؟»، نظرت إلى بعمق، وبادلتها النظرات بصمت، واستمرت النظرات بيننا لوقت أطول مما يفعل الغرباء قبل أن يشعروا بعدم الارتياح، ثم قالت لي: «بسبب هذا».. قلت: «ما هذا؟»، قالت: «تلك الطريقة التي تنظر إلى بها»، ثم عقَّبت: «وكأنك كنت تنظر إلى هكذا طيلة حياتنا».

•••

وقفنا خارج المطعم الذي كنا نأكل فيه، ودرجة الحرارة منخفضة جدًا، شدّت (كيت) أكمام سترتها لتغطي يديها، سألتها: «ماذا تريدين أن نفعل الآن؟»، فأجابت: «أظن أنني اكتفيت الليلة، لدي بعض الواجبات».. قلت: «حسنًا».. وأنا أحاول جاهدًا أن أجد سببًا يقنعها كي تبقى وقتًا أطول، ثم قاطعت تفكيري قائلةً: «ألَن تكون صديقتك قلقة عليك الآن؟».. فقلت لها: «صديقتي؟»، قالت «نعم، قلت لي أنك جئت إلى هنا مع صديقة؟»، فأجبتُها: «نعم، (جيليان)، لا لن تقلق ليست من هذا النوع».. نظرت (كيت) نحو القمر وقالت: «تلك طريقة جيدة للحياة، فالقلق مهنة الطيور».

قلت لها: «إذا دعينا ننسى القلق قليلًا الليلة، فلنقُم بشيء مسلٍ، إن كنت تملكين القدرة على الذهاب إلى أي مكان تريدينه ما المكان الذي ستختارينه؟».

سألت مكررةً: «أي مكان؟»، نقرَت عدة نقرات صغيرة على ذقنها وهي تفكر ثم قالت: «البندقية».

قلت ضاحكًا: «حسنًا»، «اختاري أي مكان يمكننا الذهاب بوساطة السيارة إليه».

«حسنًا هنالك مكان، لكنه ناءٍ جدًا،» ترددت قليلًا ثم سألتني: «لست قاتلًا متسلسلًا، أليس كذلك؟»

فأجبتُها لأُطمئنها: «لست متسلسلًا بعد، قد أبتدئ سلسلةَ جرائمي اليوم.» ردت ضاحكةً: «أنت غريب الأطوار،» ثم ابتسمت وقالت: «هنالك شيء مثير للاهتمام بشأنك، ما زلتُ أحاول فهمه».

فقلت لها: «جيد، استمري في المحاولة».

•••

«إنه مكان جميل نوعًا ما» قلت لـ(كيت)، فردّت بعد أن دارت على كعبيها: «نوعًا ما!»، انظر حولك يا (جاك)!، لا يمكنك أن تكون غير متأكد من جمال الوديان!، إنه المكان أجمل مكان على سطح الأرض، إن كنت لا تعلم هذا!»، فقلت: «لم أكن أعلم في الحقيقة، لكنني الآن أعلم». فأجابت: «بالطبع يجب أن تعلم» تحركت (كيت) بمرونة وتوازنت على خشبة صغيرة، بدأت تمشي بخطوات دقيقة لكن انسيابية، فسألتُها: «هل أنت راقصة ماهرة يا كيت؟» قالت وهي تنظر إلى جانبيًا: «نعم، في حياة سابقة».

«لماذا توقفتِ إذًا؟».

توقفت قليلًا ونظرت إلى بركة من الماء أسفلها، وضعت يدها في البركة وأخرجت حجرًا منها، تمعنت به جيدًا وقالت: «أراد القدر مسيرةً أخرى لحياتي».

«لا يبدو أنك من النوع الذي يترك الأقدار تقرر أحلامه، أو الكون حتى».

فأجابت وهي غاضبةً قليلًا: «لعلك لا تعرفني جيدًا إذًا؟».

«مهلًا أنا آسف، لم أقصد ما قلته بهذا المعنى، ما قصدته هو..».. فقاطعتني قائلةً: « أعلم ما كنت تعنيه، لا تعتذر»، بدأت تمشي مبتعدةً باتجاه الوديان، وقالت بحماس: «أتريد رؤية شيء رائع؟».

مشينا باتجاه قاع النهر، وبعد أن مشينا حوالي ١٠٠ متر كنت قد علمت أين نحن، وعلمت إلى أين أخذتني، وقفنا في المكان ذاته الذي وقفنا به عندما كنا نتناول الفطور ونتحدث عما سيبدو مستقبل كلٍ منا، كان ذلك قبل أن أعرف أنها مريضة، وقبل أن أعرفها جيدًا حتى، ذلك عندما كنا فقط معجبين ببعضنا البعض ليس إلا.

أشارت كيت إلى السماء وقالت: «يا لها من ليلة مليئة بالنجوم»، فأجبتُها بصوتي الرفيع: «تبدو النجوم كأنها تتنافس في اللمعان».. ابتسمت وقالت: «كلامك مثير للاهتمام»، فقلت مازحًا: «تلك ليست أول مرةً أسمع بها هذه الكلمة، بدأت أعاني من عقدةٍ تجاهها.» فقالت: «لا إثارة للاهتمام صفة جيدة».

عندها لم أعد أطيق صبرًا، فسألتها: «أيمكنني أن أطرح عليك سؤالًا يا (كيت)؟»، ردت وهي تنظر إلى السماء: «نعم، بالطبع».

فقلت وأنا أمهّد لسؤالي: «سيبدو سؤالي غير منطقي، وطفوليًا جدًا بصراحة، لقد أنذرتكِ».

قالت وعلى وجهها أمارات الفضول: «حسنًا أنت تخيفني الآن، لن تسألني ما إن كنت أريد تقبيلك أليس كذلك؟».

قلت مازحًا: «لا ليس الآن، ربما لاحقًا سنصل إلى هذه النقطة، يومًا ما، أعني إن خططتِ جيدًا قد نصل إليها».

بدأت (كيت) تضحك، وبدأت أشعر بسير ضحكتها في عظامي وجسدي، كما كنت أشعر سابقًا، سألتني» حسنًا ما هو السؤال إذًا؟»، فقلت لها وانا أتحضر لسؤالي: «لقد أنذرتك».

«هيا أريد أن أسمع سؤالك».

«ما رأيك بحفلات التخرج من المدرسة الثانوية؟».

•••

كيفية تناول حبوب الفطور.. مثلما يفعل المجرمون المتسلسلون

انتهى بنا الأمر بطريقة ما في المجمع التجاري، في قسم حبوب الفطور المحير جدًا، إذ كان هناك الكثير من أنواع حبوب الفطور، وحين وقفنا عند بداية الدور رأينا علب الفطور تتزايد أمام أعيننا، وقفنا أنا و(كيت) كتفًا لكتف، سألتها» ماذا تفضلين؟»، وقالت «ماذا تفضل أنت؟»، قلت لها: «أنا أحب حبوب الفطور، لا أكثر».. فقالت: «نعم، لكن لا بد أن تفضّل نوعًا ما».. فسألتها: «ما النوع المفضل بالنسبة لكِ أنتِ؟» فضحكت وقالت» الحلقات المنكهة بالفواكه»، نظرت إلى السلة التي كنت أحملها وقلت: «نحن بحاجة إلى سلة تسوق كبيرة»، فقالت: «أتريد أن نتسابق إلى هناك؟»، فقلت: «حسنًا، عند الإشارة، استعد، انط...» وقبل أن أكمل كانت قد ذهبت فعلًا، بدأت ألاحقها ونحن الاثنان نضع صناديق حبوب الفطور في سلالنا من دون أي تفضيل معين، الحبوب المنكهة بالفواكه، بالبندق، لا يهم، ما يهم كان أنه إن كانت تؤكل مع الحليب في ستدخل في سلالنا.

وبعدها بدأت (كيت) بملاحقتي بسلة التسوق المتحركة، محاولة ضربها بكعبي رجلي، مهددة بذلك الألم المزعج إثر اصطدام السلة بالقسم الخلفي من الكاحل الذي يسبب ألمًا مبرحًا كفيلًا بجعلنا نصرخ، لكن لحسن حظ كواحلي فقد كنت سريعًا بما يكفي لتجنب تلك الصدمات، أكملنا ركضنا قسم أطعمة الثقافات المختلفة، وأكملنا قسم الفواكه والخضراوات، حتى وصلنا إلى قسم مشتقات الحليب، قالت (كيت) ضاحكةً: «سنحتاج الكثير من الحليب» فسألتها: «أتظنين أنهم يبيعون الأبقار هنا؟».

كانت النظرة على وجه موظفة الصندوق عندما كنا ندفع ثمن ما أخذناه مثيرة للضحك، سألت الموظفة: «أحصلتما على ما كنتما تبحثان عنه؟» وهي ترفع مشترياتنا علبة تلو الأخرى من حبوب الفطور والحليب، قلت لـ(كيت): «لا أظنني سأحتاج شيئًا آخر طوال عمري.» أومأت (كيت) برأسها لي، كأنها تقول «كم أنت مبتذل» ثم تلامست أصابعنا، وعندها اختفى كل شيء وبقيت أنا و(كيت) والأكوام الكبيرة من صناديق حبوب الفطور، وفي النهاية أصبح العالم منطقيًا.

أخذنا مشترياتنا الكثيرة وصعدنا إلى أعلى الدرج الخاص بغرفة (كيت)، أكملنا سيرنا واستمرينا بالاقتراب من بعضنا البعض ونحن على وشك الاحتراق، كان طابق غرفة (كيت) مليئًا بعلب حبوب الفطور الفارغة، وجوائزهم الصغيرة، وكنا نتفاخر بالوشوم المؤقتة التي حصلنا عليها، (كيت) بالتنين الذي ينفث النيران على ساعدها، وأنا بحيوان الومبت على كتفي.

قالت (كيت) وهي تحك رأسها» سيظن الناس أننا مجانين»، وقلت» ماذا علينا ان نفعل ببقايا كنز حبوب الفطور المنكهة الذي لدينا»، رفعت كيت إصبعها وقالت» جاءتني فكرة»، جمعت بيدها مجموعة من العلب، حملت وعائي الفارغ وسألتها: «ماذا تفعلين؟»، ثم صرخت معلنةً في الطابق» هيا!، حبوب فطور للجميع» مشت إلى الباب، فتحته لها، وسألتها» ألن تقولي لي ما الذي تفعلينه؟»، فسألتني» ما الذي تنتظره، احمل مجموعة من علب الفطور تلك»، وبدأنا بعد ذلك بطرق باب كل غرفة من غرف الطابق وبرمي مجموعات عشوائية من العلب نحو ساكني الطابق المتفاجئين والممتنين، بسبب احتياج كل الأشخاص لحبوب الفطور المتنوعة في حياتهم.

فلكل الأشخاص الحق بأن يتذوقوا هذا السحر.

•••

مواجهة الأصدقاء

قبل أن تنطق (جيليان) بأية كلمة، كنت أعرف أن هذه المحادثة لن تكون لطيفة، كانت تنحني بظهرها على السيارة، وكانت لغة جسدها توحي بانطباعات غير لطيفة إطلاقًا، مثل الغضب، والاستياء، والعنف. سألتني» أين كنت؟»، فأجبت ويداي متشابكتان»أنا آسف، أنا آسف جدًا»، فسألتني مجددًا» لماذا لم تكن تجيب على اتصالاتي، لقد قلقت عليك، من أن يكون قد حصل شيء ما لك»، فقلت لها» لم انظر للوقت، ولم أشعر به، أنا آسف جدًا»، فوضعت يديها على خصرها وقالت» أهذا متعلق بالفتاة ذات فستان السترة تلك؟»، أجبت برأسي موفقًا، فقالت (جيليان) « ظننت ذلك»، من ثم ارتاح وجهها وقالت: «هل أمضيت ليلة سعيدة؟».

فقلت بعد أن بسطت ذراعي، وبدأت بالرقص والنقر على كعبي حذائي: «نعم كانت جميلة»، فقالت (جيليان): «حسنًا أيها العاشق، علينا العودة إلى المنزل، أين أغراضك؟»، فقلت بخجل: «كنت آمل أن أقضي ليلة إضافية هنا»، فقالت مستاءة: « لكنك تعلم أنه على العودة إلى المنزل من أجل الدراسة لامتحان اللغة الفرنسية غدًا، أنا آسفة يا (جاك)، لكن حبيبتك لن تبارح مكانها.» فقلت: « كنت أفكر، وأظن أن... عليكِ... ربما... الذهاب من دوني.» فردّت: «ماذا..!!؟ وكيف ستعود أنت».

فقلت بارتخاء «سأستقل الحافلة»، وانا أصنع حفرة بحف رجلي بالأرض من كثرة الخجل، فقالت (جيليان) مستاءةً: «هل أنا غبية؟ لأنني كنت أتوقع أننا سنمضي العطلة سويةً، لكن بعدها ذهبنا إلى حفلة ما، ثم اختفيت أنت لبقية الليلة، وظننت أننا سنلتقي على الفطور كما اتفقنا، لكنك لم تظهر على الفطور ولم استطع الوصول إليك لأنك لم تجب على اتصالاتي طوال الصباح، ثم تأتي إلى الآن وتقول إنك ستعود للمنزل وحدك؟»، فأجبت «أنا آسف لم أقصد أن يكون الوضع هكذا، لكن حصل البارحة، شيء مجنون»، فقالت: «لازال الشيء المجنون يا جاك، أتمنى لك وقتًا عظيمًا، وأبلغ سيدة فستان السترة تحياتي.» فقلت خجلًا « أنتِ فعلًا لا تفهمين، أنا فقط.. أريد»، فقالت بسرعة: «لا أنا أفهم، ربما أراك لاحقًا في المنزل يا (جاك)، إن تعلمت كيف يستخدمون الهواتف».. ثم ذهبت بسيارتها وانا ألوح لها بيدي، وأنا أشعر بمزيج من الفرح والحزن.

وجدنا أنا و(كيت) مساحة فارغة في المكتبة، حيث أمضت هي وقتها في دراسة الاقتصاد، وأنا أمضيت وقتي في دراسة جمالها، كانت طريقتي الرسمية للدراسة، عبر التمعن بها، ومن ثم النظر لمكان آخر عندما تلاحظني. قالت (كيت): «ماذا؟ هل هناك شيئًا على وجهي؟»، فقلت «لا»، «لكن شفتاي في الخدمة دائمًا»، قالت وهي تنفث مازحةً: «كنت أظن أن البشرية غير قادرة على أن تنحدر إلى هذا المستوى من الابتذال..» فأكملت الجملة: «ثم أتيت أنا».. أشاحت بعينيها وابتسمت.

سألتها: «أيمكنني طرح سؤال عليكِ يا (كيت)؟»، فقالت: «ماذا؟ هل خطرت على بالك حفلة راقصة مدرسية خرى؟» فسألتها: «أتشعرين أنك بخير؟ أعني جسديًا»

فقالت «لماذا تسألني هذا السؤال؟»، فقلت «لا أعلم» وأنا أكذب، فلماذا قد أسأل أحدًا هذا السؤال؟

قلت: «تبدين شاحبة قليلًا»، نظرت إلى وجهي بتمعن وقالت: «أشعر أنني بخير يا (جاك)، لكن شكرًا في جميع الأحوال، فقلت: «حسنًا، هذا رائع».

قالت « قد أكون تعبةً مما حصل في اليوم السابق.»، فقلت «نعم ممكن، تجوّلنا في أماكن كثيرة.» حزنت، لأنني لا أريد أن أكون سببًا لتعب (كيت)، لكنني لم أعرف ما على فعله. «ربما علينا التخفيف من ماراثونات التسوق الخاصة بنا؟»، فابتسمت وقالت: «ماراثونات حبوب الفطور هي اختصاصي».

•••

مفاجآت الحياة

صعدت الحافلة في منتصف الليل قاصدًا المنزل، وكان والداي قلقَين جدًا

بسبب ذلك، فكانت أمي تقول على الهاتف: «المجانين فقط هم من يستقلون الحافلات في منتصف الليل».. فأجبتها: «لا أظن أن للمجانين موعدًا محددًا يستقلون فيه الحافلات».. فقال أبي على الهاتف: «لا ترد على والدتك بهذه الطريقة، إنها قلقة عليك»، وقالت أمي: «لقد قام أبوك بشوي بعض اللحم لأجلك سابقًا» فأجبت: «أنا آسف جدًا لما حصل».

قال أبي» ليس هنالك ما يمكن فعله الآن».

أضافت أمي: «ربما علينا أن نأتي ونقلّك بأنفسنا.» فأجبتها: «لا، أظن أن ذلك..».

فقاطع أبي: «هذا ليس ضروريًا البتة».

«أنا أتفق مع أبي».

« لكن علينا أن نجلس ونتحدث عن كونك غير أهلٍ للثقة يا (جاك)».

أجبت بعد تنهيدة عميقة: «حسنًا».

ثم بدأ أبي وأمي بالكلام مع بعضهما وسماعة الهاتف لاتزال مفتوحة.

قال أبي: «عزيزتي أظن أننا سنأكل العشاء لوحدنا الليلة، أرى أنه يجب ننسى الطبق الرئيسي ونبدأ بالتحلية، ما رأيك؟».. أجابت أمي: «كم طبقًا من التحلية يمكنك أن تأكل.. اثنين أم ثلاثة؟» فأجاب أبي: «أووه، إنني أتضور جوعًا يا حبيبتي الشقية»، فقلت مقاطعًا هذا الحديث: «أبي، أمي، ربما عليكما الابتعاد عن السماعة عندما تريدان إجراء حديث كهذا، أو استخدام ذلك الاختراع الجميل في الهواتف النقالة، اسمه كتم الصوت.» فقال أبي مقاطعًا بعد أن علم بسماعي لهما: «نراك في الصباح يا (جاك)».. وقالت أمي» مع السلامة يا (جاك)، كن حذرًا، وكلمنا عندما تصبح في طريقك إلى المنزل»، فقلت: «حسنًا ربما سأمشي من الموقف إلى المنزل لأن الموقف قريب جد...»، فقاطعني أبي: «هذا رائع، تصبح على خير!»، وقُطع الاتصال.. قلت في قلبي» وانا أحبكما أيضًا».

فكرتُ في أن الحافلة تحتاج، مع وقت التوقف، حوالي ساعتين ونصف حتى أصل إلى وجهتي، فقررت أن أنام قليلًا، لكنني لم أستطع بالطبع، ليس لأن رائحة الحافلة تشبه رائحة مصنع للحفاضات المتسخة، وليس لأن مقعدي مغطى بالشريط اللاصق بأكمله، فكيف لي أن أنام على الإطلاق؟ لأنني إن كنت الآن فعلًا في الماضي!!!، أنا في الماضي!!!، لماذا عدت بالزمن؟

أعني بين كل الأماكن التي يمكن للإله أن يرميني فيها، كل النجوم والكواكب، أيًا كان، وأينما كان، لماذا عدت في خط الزمن هذا؟ لماذا هنا في محط تلك الخطوات البسيطة تجاه الفتاة التي كنت أحبها، الفتاة التي ماتت، الآن حية، وبصحة جيدة، ومنزعجة من قطعي لطريقها صعودًا على درجات ذاك السلم، فتاة لا تتذكرني، ولا تتذكر الأشهر الأربعة التي مضت.

هل من المفروض أن أقوم بشيء ما مغاير لما حدث سابقًا؟ أعني أنه من غير الممكن أن تكون مجرد صدفة، أنني عدت عشت في هذا الزمن كما في ألعاب الفيديو، مباشرةً بعد موت (كيت)!

لعله على أن أجد طريقة تمنع موتها!؟ لأن ما كان يجب لمستقبل (كيت) أن ينتهي، لعل جميع الأشخاص في البشرية يعيدون عيش مقاطع من حياتهم لكنه شيء لا يمكن تصديقه لذلك لا يتكلمون عنه؟

وصلت إلى المنزل، كان أبي نائمًا على الأريكة، فقررت اختبار نظريتي هذه مع أمي.

«ماذا تفعلين يا أمي؟» قلت لها.

قالت: «لا شيء، أقوم بتفريز القليل من الطعام وحسب».

«إنها الثالثة صباحًا يا أمي.»

فقالت: «حسنًا، ليس متاحًا للجميع المرح بأخذ حافلات في منتصف الليل».

« نعم أنا آسف إنك محقة».

فقالت: «همم، أعلم ذلك».

«إنني متأسف جدًا، لم أتعمد إخافتك حقًا»، فأجابت أمي بعد ان التفتت بعينيها نحوي بسرعة: «لا أريد أن تستدعيك المحكمة في المستقبل يا (جاك)»، قبلت خدها، فهزت رأسها سعيدة بذلك، قلت لها: «أريد أن أطرح عليك سؤالًا يا أمي».

«يا إلهي حسنًا».

هل حدث معك يومًا شيء كان تقعي على رأسكِ فتصابي بألم شديد نتيجة الصدمة، وتفقدي الوعي، لتستيقظي في مدة أربعة أشهر في الماضي؟».

وضعت أمي المغرفة على المنضدة، وقامت بغسل يديها ومسحهما بمنشفة الصحون، وقالت «(جاكي)، أكنت تتعاطى شيئًا؟؟».

•••

وبما أن النوم كان صعبًا عليّ، حاولتُ استثمار وقتي في أشياء أخرى، فقمت بتشغيل حاسوبي المحمول، وبدأت بكتابة رسالة.

«عزيزتي كيت..

أعلم ما الذي فكرتِ به عندما رأيتِ هذه الرسالة في صندوق الوارد الخاص بك، لكن بدايةً دعينًا نتعامل مع المشكلة المبطنة في هذه الرسالة أولًا..

لم أقصد أن تكون هذه الرسالة، بأي شكل من الأشكال، تعقيبًا على سؤالي السابق لكِ تلك الليلة في السهل، ذلك السؤال الذي قلتي لي بأنك ستجيبينني عليه لاحقًا على حد قولك، لذلك رجاءً، رجاءً، ثم رجاءً، لا تشعري بأي ضغط من قبلي لتجيبي على ذاك السؤال، لأن هذه الرسالة ليست عنه، حسنًا؟

إن كنتي تريدين الرد على ذاك السؤال فافعلي ما يريحك، لكن لوحدك، لأن هذه الرسالة محجوزة،

حسنًا؟

جيد.

أشعر بالارتياح لأننا أزلنا ذلك السؤال من طريقنا.

يمكننا الآن الذهاب إلى الحديث الجدي الذي تحمله هذه الرسالة.. أي كي أعتني بك بصراحة شديدة، لأن من لا يحب أن يتم الاعتناء به، خاصة عبر إيميل من شخص مجهول، أليس كذلك؟

أتأكلين بانتظام جيد؟ أتحصلين على قدر كافٍ من الفواكه والخضراوات، لأنه يسهل نسيانهم، تحب أمي أن تدخلها خلسة إلى طبق طعامي، وفي بعض الأحيان تزينهم كي أظنهم لحمًا، إنها ماهرة جدًا، فهي تستطيع أن تجعل قطعة الباذنجان تبدو كقطعة من اللحم، وهي دائمًا ما تتحدث حول ذلك الارتباط بين العقل والجسد قائلةً «صحة جسدك يا جاك، تعكس صحة عقلك»، أعلم أن ذلك سخيف.

في الحقيقة توقفي عن فهمي بهذه الطريقة يا كيت، أنت ترين الحقيقة أليس كذلك؟

نعم ربما قد حرَّفت الحقيقة بعض الشيء، واعلم أن الكذب ليس البداية الأفضل لبداية العلاقات (علاقات الصداقة أو غيرها)، لكنني قلق، في الحقيقة خائف.

أنا أعترف بأن هذا الرسالة الإلكترونية، هو فقط عن سؤال في تلك الليلة في السهل، لأنني أريدك أن تقولي نعم، لذا هذه بعض المعلومات عني التي قد تجدينها مفيدة، إن كنت لازلتِ تدرسين قرارك جيدًا.

طولي ١٧٦ سم وهذه المعلومة قد تكون مفيدة في حال فكرنا في فعل أي نشاط يتضمن قممًا عالية، طعامي المفضل (غير حبوب الفطور) هو لحم الخنزير، غالبًا لأن البشر أقل انفعالية بما يخص لحم الخنزير عن اللحم المقدد، مع انهما الشيء ذاته.

وأنا أحب حبيبات الهلام بطعم الفشار، لسبب غير مفهوم ويمكنك سؤال (جيليان) و(فراني) حول هذا الموضوع، وأنا أحب قراءة الكتب كثيرًا، لكن ككتب ورقية، بسبب انجذابي لرائحة الورق، ومثل كل شخص في هذه الأرض، أحب النزهات الطويلة جدًا على الشاطئ، أنا لا أثق بـ(سيري) لكنني أحب جدًا (جوجل)، كنت أريد كلبًا لابردور بني بلون الشوكولا، لكن اصطنع أبي حساسية ضد الكلاب، وأنا أعلم أنه لا يعاني من حساسية ضدها بل يخاف منها وحسب. لذلك وإلى الآن أخفف عن نفسي بمشاهدة فيديوهات لجراء لابرادور بلون الشوكولا صغيرة تقوم بأشياء لطيفة على الإنترنت.

في معظم الأحيان أنا لا أحبّذ حفلات الرقص في المدرسة، وحفلات التخرج أيضًا.

لكن يمكنني أن أقوم باستثناء إن كنت أنت من سيرافقني.

وأعلم أن ما قلته سيشكل لك مزيدًا من الضغط مع أنني قلت لك أنني لا أريد أن أضغطك بالجواب، لكنني حقًا سأتفهم إن كنتي لا تريدين الذهاب معي لحفلة التخرج، أعني إنني اعلم أنها مجرد رقصة مدرسة ثانوية، وأعلم أنك لا تريدين الذهاب، لكن إن أحببت، فسيكون ذلك رائعًا أيضًا، في جميع الأحوال، لا تقلقي.

جاك.»

تمامًا وكليًا.

بعثتُ لـ(جيليان) برسالة لأعرف إن كانت ستقلّني إلى المدرسة في اليوم التالي، لكنها لم تُجب. وكانت قد ألغت إمكانية معرفة وصول الرسالة إلى هاتفها، فلم أعرف إن كانت تتجاهلني.. ولهذا تفاجأتُ حين أتت إلى طاولتنا المعتادة في مطعم المدرسة، وكان ذلك رائعًا لسببين. الأول أن (فراني) ذهب ليقضي عملًا بدل تناول الغداء، والثاني هو أنني كنت أمام تناول الطعام لوحدي دون الرغبة بذلك، أو الانضمام إلى طاولة أخرى في المطعم والعبث بالخلل البيئي لنظام الطاولات في منتصف السنة الدراسية، وهذا مستحيل.

«مرحبًا،» قلت.

«أين (فراني)؟».
«يعمل بجد»، قلتُ وأنا أشدّ عضلاتي غير الموجودة.
«أوه»، قالت وكأنها ما كانت لتأتي لو كانت تعرف أننا سنكون لوحدنا.
سادَ صمتٌ مربك، فكسرتُه بمحاولة إجراء حديث سخيف: «هل تصدقين أن السيدة (هولستين) ألغَت الاختبار؟ كان ذلك مفاجئًا جدًا، صحيح؟».
إلا أن (جيليان) حدّقت بهاتفها بكامل تركيزها وكأن رئيس الولايات الأميركية المتحدة، سيتصل بها في أية لحظة طالبًا المشورة في الشؤون الخارجية.
«هل لي أن أطرح عليكِ سؤالًا يا (جاي)؟».
تمتمت كلمة غير واضحة فسّرتها على أنها «بالطبع».
«إلى متى ستبقين غاضبة مني؟».
«هذا يعتمد على المدة التي ستبقى فيها وغدًا».
نظرتُ إلى ساعة معصمي وقلت: «أظنني انتهيت من ذلك الآن».
تركت هاتفها ونظرت نحوي وقالت: «هل أنت متأكد؟».
«متأكدٌ مئة وعشرون بالمئة».
تململت قائلة: «أكره حين يفعل الناس ذلك».
«ماذا؟».
«التأكيد بطريقة جزئية على أفكارهم، لم لا تقول ٩٠٠ بالمئة أو ٥٣٨٣ بالمئة؟ لا بأس بالقليل من الإبداع في هذه الحسابات التعسة.»
«(جيليان)؟».
«نعم».
«أنا متأكد ١٢٣٤٤٢٤ بالمئة من أنني سأتوقف عن التصرف كوغد».
«جيد»، قالت مبتسمة. «أصدقك ٧٢ بالمئة.»
«رائع، هذا أفضل مما توقعت.»
«نعم»، قالت ثم استقرت في كرسيّها المعتاد. عرضتُ عليها قطعة بسكويت بنكهة زبدة الفستق، فابتلعتها بلقمة واحدة.
«هل أنت متضايقة لأسباب أخرى يا (جاي)؟.»
تنهدت وقالت: «أتريد أن أخبرك بالتفاصيل؟».
«بالطبع.»
«كانت الكهرباء مقطوعة هذا الصباح؛ لأن أمي نسيت دفع الفاتورة. وجدتُ كومةً من رسائل الإشعارات القديمة غير المفتوحة، تبدو أمي مشتتة مؤخرًا.»
«يا للهول.»

«كان حمامي الصباحي اليوم مذهلًا، مضاءً بالشمع وباردًا.»

«يبدو حمامًا مرفهًا»

«بالطبع كان كذلك.»

«هل من أخبار عن والدك؟»

«الأخبار ذاتها، فهو يردد أقواله ذاتها.. أخبرته انه اختار وقتًا مذهلًا ليعاني من أزمة منتصف العمر.»

«اللعنة، والأسوأ أنه اختار العودة إلى «كوت ديفوار».

انصدمت (جيليان) وقالت: «كيف عرفت أنه عاد إلى هناك؟.»

شعرتُ أنني وقعت في ورطة وقلت: «لا بد أنك ذكرتِ ذلك سابقًا.»

«لم أفعل بالتأكيد يا (جاك).

«أقصد»، فكرتُ بطريقة للتهرّب من الأمر وقلت: «تخيلتُ أنني كنت لأعود إلى مكان نشأتي لو أنني أعاني من أزمة وجودية بحثًا عن إجابات.»

تفحّصت وجهي كأنها لا تصدق تفسيري إلا أنه ما من تفسير آخر، باستثناء السفر عبر الزمن طبعًا.

أشاحت بنظرها وهي تعبث بقلادتها وقالت: «حين كنا أطفالًا، كنا نظن أن أهلنا متوازنون ويعرفون ما يفعلونه، ثم نعرف حين نكبر أنهم مشتتون بقدرنا، أنهم ناضجون ومشتتون».

«تقصدين أنه ما من أمل؟».

أخذَت قطعة بسكويت أخرى من علبتي وقالت: «تمامًا».

تشابك الأمور

وصلتني رسالة في خضمّ مللي في قاعة الدراسة:

«عزيزي جاك،

عليّ أن أعترف أنني شعرتُ بالقلق وأنا أقرأ رسالتك، إلا أن قولك عشرات المرات بأنه على ألا أقلق، كان ذلك رائعًا وغير متوقع على الإطلاق، لذا أشكرك!

أميل في الواقع إلى رفض عرضك، وإليك أسبابي:

حفلات التخرج تخيف (كيت) للأسباب التالية..

- يخيفني الرقص، لأنني لا أملك جسدًا مرنًا وُلد للرقص كما هو معروف عن الإفريقيات، ولا مرونة البيض المخمورين في الحفلات. أبسط الخطوات في الرقص تعتبر إنجازًا بالنسبة لي.

- تسبب الألعاب الورقية التوتر، لأنها تذكرني بالأفاعي الورقية النحيلة والملونة.

- أتسبب بوقوع الأوعية دون قصد دائمًا، في أي مكان، عند وجود وعاء، فسأجد طريقة لأوقعه.

- أكره الفساتين، لم لا يقيمون حفلات باستطاعتنا أن نحضرها بملابس الرياضة وشعرٍ مرفوع بطريقة عبثية دون أن يظن الناس أننا مخبولون؟

- أنا أخطبوط.. تلك كانت كذبة، وألوم آنسة اللغة الإنكليزية في الصف التاسع، والتي كانت ترى أنه يجب أن نقدم خمس نقاط دائمًا في محاولة نقض أية فكرة.. وكانت تدعو الهاتف الخلوي «نقّالًا».

وبكل الأحوال، أرجو أنه لديك الآن فَهم أوسع لِما تتعامل معه، من تتعامل معها. لعلك تريد الآن أن تتراجع عن دعوتك؟ إن لم تكن ستفعل، فأطرح عليك سؤالًا جديًا، وأعرف أن محاولاتي لأكون جدية مضحكة. واعذرني لكمية الابتذال في سؤالي، لكن لماذا أشعر أنني أعرفك من قبل يا (جاك)؟ ولماذا كتبت لك رسالة مطوّلة لشرح أنني غير قادرة على الذهاب معك إلى حفل التخرج في حين أنني أدرك أنني سأذهب؟

هذا في حال بقيت مصرًا على ذهابي معك بعد أن عرفت كم أنا مجنونة، إن لم يتوضّح جنوني سابقًا.. وسأتفهم عدم رغبتك بذهابي معك إلى الحفل أو أي مكان آخر.

كيت

ملاحظة: جاك، لا تقلق!»

أجبتُ حالًا:

«عزيزتي كيت،

بمناسبة الحديث عن الجنون، ماذا لو كنا نعرف بعضنا من حياة سابقة؟ كل ما أعرفه هو أنني أريد التعرف عليك بشكل أفضل في هذه الحياة، بأسرع وقت ممكن. فما قولك إذًا؟ هل سنرقص بطريقة محرجة سوية على الملأ في حفل التخرج؟

جاك»

•••

ردّت (كيت) في الحصة السادسة، وكان ردّها السريع رائعًا لأن البعض يقع في فخ الرغبة في أن يبدو مسترخيًا ومشغولًا، فيفضل أن ينتظر وقتًا طويلًا قبل الرد بدل أن اختيار الصدق مع المشاعر، فمشاعر مثل السعادة والحماس ما عادت تعتبر عصرية.. أما (كيت)، فقد ردت بعد ثماني وثلاثين دقيقة: «عزيزي جاك،

أنا موافقة كليًا وبشكل رسمي. لكنني أدين لك بإنذار مسبق، لقد خرجتُ منذ عدة أشهر من علاقة، لكنني، ولا أظن أنه على أن أخبرك بهذا، لا أظن أنني قد تجاوزته بعد، غالبًا لأنه ما زال متواجدًا في حياتي. أنا من طالَب بالانفصال لأنني أرى أننا لسنا مناسبين لبعضنا، لكن قلبي ساذج وغدّار وغبي.

لا أعرف يا (جاك)، إنه مجرد أمر آخر نتركه للمجهول، وهو شبيه بأنك تدّعي أن شيئًا لم يحصل بينك وبين تلك الفتاة في الحفل، هل كان اسمها (جيل)؟ بصراحة، أنا أعرف أن اسمها (جيليان)، لكنني أردتُ أن أدعي أنني لا أفعل، وأعرف أن هذا مثير للشفقة، لكنني أعرف مشاكلي على الأقل، ألا يحتسب هذا؟

ولا تحاول أن تنكر ذلك، فقد رأيتُ كيف كنت تنظر نحوها كما لو أن آلهة الحب أطلقت سهمًا على مؤخرتك البائسة. طلبتُ منك أن تتحرك قبل دقيقتين من ملاحظتك أنني أقف وراءك، وكانت حولك عصافير حب زرقاء تطير في دوائر. ولا تقلق، فهذا لا يزعجني. رغم أننا نشعر أننا نعرف بعضنا، فالحقيقة هي أننا بالكاد نفعل، باستثناء الوقت الذي قضيناه سوية في حياة سابقة، بالطبع.

لا أريد أن أفسد الأمر يا (جاك)، كان على أن أضع هذه بدل النقطة الخامسة في رسالتي السابقة، أنني أُفسد الأشياء الجميلة عادةً تمامًا عندما تكون في طريقها لتتألّق.. ولعل موهبتي هي تدمير الأشياء، سأحاول التصالح معها بدل إنكارها.

لقد حذّرتك إذًا،

أنا عبارة عن كتلة من المشاكل الغبية التي على وشك أن تحدث.

لا أستطيع أن أكتب رسالة إلكترونية دون أن أبدو غريبة حتى.

كيت»

•••

«عزيزتي كيت،

تتشارك العقول العظيمة في أفكارها، حسب ظني..

أشكرك لصراحتك بخصوص وضعك، وأتفهّم تمامًا عدم قدرتك على إيجاد انسجام بين القلب والعقل. لكنك لست محقة تمامًا بخصوص (جيليان)، فقد كنتُ أرغب بأكثر من الصداقة معها يومًا ما، لكن قدرنا أن نكون صديقين، صديقان مقربان، ويُسعدني وجودها بهذا الشكل في حياتي. أخبرتني منذ فترة أنها حارستي وأن وظيفتها ن تحميني من الأذى، وحين سألتها عن أي أذى تتحدث، قالت إنها تحميني من كل شيء.. أظنني محظوظ لأنها صديقتي.. وحبيبها، (فراني)، هو صديقي المقرب أيضًا.

لذا كان من الصعب والغريب أن أُخفي مشاعري تجاهها.. وكنتُ على وشك أن أعترف بها في تلك الحفلة التي ذكرتِها، لكن قدرًا ما، أو قدرة إلهية ما، ردعتني عن ذلك، ولستُ نادمًا على الإطلاق. خصوصًا الآن. وعلى كل حال، لا أريد أن أذهب الآن، لكنني جزء من فرقة موسيقية، وعلي أن أقابل (فراني).. إن سمعتِ وعلًا يبكي في مكان منعزل ما بالصدفة، فلا تقلقي، هذه فرقتنا الموسيقية تستعد للعزف، تلك كانت كذبة، فذلك عزفنا بذاته.

لم يتم إيذاء أية وعول أثناء عزف أغانينا.

جاك»

ملاحظة: أخبريني شيئًا لم تبوحي به لأحد من قبل. (يا للمفاجأة، بإمكاني أن أتفوق على نفسي في الابتذال كل مرة!.

•••

سخرية الأقدار

كنتُ مازلتُ متحمساُ بسبب رسائل (كيت)، حين قابلتُ (فراني) عند خزانته كما نفعل كل يوم قبل درس الموسيقى.. «مرحبًا، ها انت جاهز للإبداع في العزف؟».. قلتُ وأنا أمسك بوقي مثل جيتار وأدّعي نقر أوتار.

أغلق (فراني) خزنته بعنف وقال: «لن أذهب.»

ضحكت قائلًا: «هل لديك أمر أهم لتفعله؟».

«لستُ بالمزاج للتسكع مع مجموعتنا الفاشلة اليوم، هذا كل ما في الأمر».. تمتم وهو يرحل «لكن أبلغهم سلامي من فضلك.» أمسكتُ حقيبة ظهره

لأمنعه من المشي وقلت: «لم تتناول الغداء معنا، والآن تتخلى عن الفرقة أيضًا؟ ما الذي يجري؟».

«كل شيء ممتاز، استمتع بالفرقة، حسنًا؟».. قال كما لو أن «فرقة» كلمة سيئة، أو أنه قصد بها أنه يريدني أن استمتع بحياتي المثالية الخالية من المشاكل.

«من الواضح أنك تكذب، ما الذي يجري حقًا؟».

استطعتُ أن ألقي نظرة على عينيه أخيرًا، وبدا واضحًا تمامًا عندها سبب امتناعه عن النظر إلي، فقد كانتا حمراوان كالدم.

«يا للهول يا (فراني)! هل كنت تشرب الكحول؟.»

«يا للهول يا (فران)! هل كنت تشرب الكحول؟» ردّد.

«حقًا يا (فراني)؟ تريد أن تتصرف بهذه الطريقة؟ لقد بذلت جهدك في الدراسة وإن رأتك معلمة..»

غمقت عيناه وعقد حاجيبه وقال: «هل اصبحت مستشاري الآن؟ هل ستعطيني الآن محاضرة حول إضاعتي للفرص؟ ابتعد عني يا رجل.»

تجاوزني، لكنني أمسكته مجددًا بعزم أكبر وقلت: «نحن أصدقاء يا (فراني) منذ.. لا أذكر أننا لم نكن أصدقاء يومًا، فإن كان شيئًا قد حصل.. بإمكانك أن تخبرني بأي شيء، مجرد أنني مضطر لقول ذلك..»

لكنه صاح مقاطعًا بصوت حاد: «توقف وحسب.»

توقف بعض الطلاب في البهو عن أشغالهم وحدّقوا بنا، رمقهم (فراني) بنظرة، فتركونا وشأننا. التفت نحوي مجددًا وقال بصوت حاد وخافت: «ما الذي تريده مني يا (جاك)؟»

فكّرتُ في أنني أريده أن يخبرني عن إطلاق سراح والده، لكنني قلت: «أريد الحقيقة.»

«كنت أظنك لا تستطيع أن تكون مبتذلًا أكثر مما أنت،» قال وعضّ شفته، ثم أجبر نفسه على الابتسام وعيناه حمراوان ودامعتان، وحدقتاه متوسعتان، مما جعل عينيه تلمعان أكثر. «ستتأخر على التمرين.»

«ما الأمر يا (فراني)؟».

رن الجرس مجددًا.

«أترى؟» قلت مشيرًا نحو الأعلى.. «لقد تأخرت، والآن عليك أن تقول لي ما الأمر، فقد تأخرتُ بسببك وأنت تعلم كم يكرهون التأخير.»

«أنت مختل فعلًا»، قال مانعًا نفسه من الضحك.

«سيطلقون سراح «الكوبون قبل الوقت المحدد بفضل حُسن سلوكه، يا

لسخرية القدر.. إنها المرة الأولى التي يجتمع فيها اسمه مع أي شيء حسَن في جملة واحدة.»

جعلني خبر إطلاق سراح «الكوبون» أفكر بالصورة الكبيرة رغم أنه لم يكن خبرًا جديدًا بالنسبة لي. فقد افترضتُ أنني عُدت بالزمن لأمنع موت (كيت)، لكن قد يكون ذلك لأساعد (فراني) أيضًا، لأساعد الجميع.

«عزيزي جاك،

باعتبارك قد ذكرتَ الأمر، أظنني سمعتُ بكاء وعلٍ بعد ظُهر البارحة، وتمنيتُ أن يساعد شخصٌ ما ذاك الوعل المسكين، لكن العزف استمر، أقصد.. البكاءَ استمر.

لماذا لم تخبرني من قبل أنك جزء من فرقة موسيقية؟ وهل تمانع ان تعزف لجمهور مؤلّف من شخص واحد؟

(أقصد أن تعزف لي، في حال لم يكن ذلك واضحًا).

وفيما يخص (جيليان) و(فراني)، فأظن أن امتلاكك صديقَين مستعدّين لحمايتك من كل شيء، يعني أنك تملك أفضل نوع من الأصدقاء، فغالبًا ما يقدر الاصدقاء على حمايتنا من أشياء محددة فقط، لذا فالأصدقاء الذين يحموننا من كل شيء هم نادرون.. وبالطبع أن تدرك ذلك.

تريد أن تعرف أمرًا لم أخبره لأحد؟ حين كنت صغيرة كنت آكل العناكب. لا لأنني كنت أراها مذهلة(4) أو لذيذة الطعم(5)، بل لأنني أردتُ أن أنسج خيوطًا من معدتي وأصنع شباكًا جميلة.. لكن كل ما حصل هو أنني أُصبتُ بالغثيان.

أكاد أسمعك تنفجر ضاحكًا.. وأعرف أن هذا ليس ما كنت تفكر به عندما سألتني، لكن الحادثة حقيقية كليًا، ولم أخبر أحدًا عنها لأسباب واضحة كما ترى.. والآن حان دورك، أخبرني بسرّ يا (جاك). أترقّب سرًا دسمًا أو محرجًا جدًا حتى لا أشعر أنن لوحدي في هذا الإحراج.

كيت»

•••

عزيزتي كيت ناسجة الخيوط،

أنا قادم من المستقبل، على فرض أن أربعة أشهر هي مستقبل بعيد، لكن كنتِ لتتفاجئي لو عرفتِ كم تتغير الأشياء خلال أربعة أشهر فقط.. لقد تغير عالمي بأكمله، لذا أنا ممتن لأنني عدتُ بالزمن.. ها قد أخبرتك بسرّ لا يعرفه أحد، وأثق بأن سرّي بأمان معك.

ظهرت نافذة على حاسوبي: «هل ترغب بحذف الرسالة أم حفظها؟» فاخترتُ زر الحفظ.. «تم حفظ رسالتك». ثم نقرتُ على زر إنشاء رسالة جديدة، لكنني لم أحظَ بفرصة لإكمالها؛ لأن أبي ناداني لأنزل إلى الطابق لسفلي من أجل العشاء، وأتى (فراني) ليتناول العشاء معنا، وأمضيتُ بقية المساء في محاولة إخبار والديّ بخصوص «الكوبون»، بطريقة لا تجعل (فراني) يغضب مني.. إلا أنني لم أتوصّل لحل، فأمضيتُ وقتي في محاولة تجنّب سرقة (فراني) لطعامي من طبقي.. كل ما فعلتُه هو محاولات البدء بشجار.

•••

«(فراني)، بخصوص عودة والدك».. قلت.

كان والداي قد ذهبا للنوم، وكنا في القبو نلعب لعبة فيديو أضاءت وجهَينا، وإبهاماتنا تتسارع على مقبضَي التحكم لتجنّب طلقات العدو النارية.

«ماذا بشأنه؟».. سألني (فراني)، وهو يكمل اللعب ويهزم أمهر لاعب في الفريق الخصم.

أجبتُه: «أظنه من الأفضل أن تكون مستعدًا، أقصد أنه لم يكن إنسانًا رائعًا من قبل، وأريدك أن تكون بخير إن لم.. إن لم يكن..».

«هل علينا أن نتحدث عن هذا الآن؟ نحن في خضم معركة مهمة».

«كنت أفكّر فقط».

«هلّا توقفت عن إضاعة وقتك بالتفكير بهذا الأمر تحديدًا؟».

«نعم، حسنًا.. أعتذر يا (فراني)».

وتساءلتُ إن كنت قد أفسدتُ شيئًا بقولي أكثر مما يجب أن أفعل، استرقتُ النظر لوجه (فراني)، لكنني لم استطع فهم ما يدور في ذهنه، فقد كانت تركيز نظره بأكمله موجّه نحو الشاشة، وشفتاه وجبهته مشدودة لكثرة تركيزه.. أكملنا اللعب وساد الصمت باستثناء أصوات مفاتيح مقبضّي التحكم وصرخات أعدائنا المهزومين.

•••

انجراف

أقنعتُ نفسي أن الطريقة الأفضل لأتجنب خسارة (كيت)، تكمن في ألا أدعها تغيب عن ناظريّ، أو أن أقرّبها قدر الإمكان على الأقل.. لهذا، صرنا نمضي الليالي سويًا، فكانت تدرس وكنتُ أدّعي الدراسة بينما أراقبها، ثم أُمثّل أنني أدرس بتركيز هائل حين تراني وأنا أراقبها، وتهزّ رأسها معلنة خيبة أملها حين ترى كتب رأسًا على عقب.

وأكلنا الكثير من الوجبات غير الصحية، وبالحديد شطائر التاكو، التي أصبحت وجبتنا المفضلة.. وأمضينا ساعات في الوديان، وتحدثنا كثيرًا.. حاولَت مرةً أن تقنعني أن ثلاثية «حرب النجوم» الجديدة أفضل من الأصلية، وسألتُها إن كانت قد شاهدت «حرب الإمبراطورية» حتى.. حاولت أن تنصحني بكل الأفلام المستقلة التي لم أكن أعرفها من قبل، وكانت أفلامًا رائعة مثل «تربية فيكتور فارغاس» و«ورت تيرم ١٢».

وقمنا بحفلات رقص مريع في مهجعها، رغم أن شريكتها في الغرفة لم تكن

موافقة على ذلك.. وتبدلنا القبلات في فترات الاستراحة من الدراسة، وخلال زياراتنا لشراء التاكو، وعند الوديان، وأثناء مشاهدتنا الأفلام المتتالية.

«هل تظم أنك ستملّ من القبلات يومًا؟» سألتني (كيت).

«من تقبيلك؟ إطلاقًا».

«أنت متأكد؟».

«فلنقم بتجربة»، قلت لها.

رفعَت (كيت) حاجبَيها وقالت: «حقًا؟».

اقتربتُ منها ونحن بين رفوف المكتبة وحيدَين باستثناء فتاة على بعد بضعة طاولات.

«أظنها الطريقة الوحيدة لنتأكد».. أجبتُها.

فابتسمت ووضعت يدها على مؤخرة رأسي بطريقة جعلتني أذوب، وقبّلَت أنفي، ثم خدي، ثم شفتيّ.

ابتعدَت قليلًا وقالت: «من أجل التجربة العلمية».

اقتربتُ وقلت لها بين القبلات: «أحب العلم».

ضعتُ في عينيها وشفتيها وأنفاسها غير المنتظمة.. كانت علاقة طرديةً: كلما قضيتُ معها وقتًا أكثر، كلما رغبتُ بقضاء وقت أكبر معها.. أدمنتُها تمامًا، ولم يكن هناك علاج لإدماني. ولو كان هناك علاج لرفضتُ الخضوع له، ولهربتُ من المشفى بردائي تاركًا ورائي الممرضين والأطباء يرددون أن العلاج لمصلحتي، ولودّعتهم حاملًا إدماني ولعنتي بكل سعادة ورضى.

•••

الجانب المظلم للسعادة

كان هناك جانب مظلم لكوني لا أكتفي من (كيت).

أنرتُ ضوء المطبخ يومًا بعد عودتي إلى المنزل وكدتُ أصاب بذبحة قلبية.

«لماذا تقف مترصدًا في المطبخ يا أبي؟».

«لا أترصّد، لا أحد يترصد في منزله.. لم أستطع أن أنام، فانتظرتُك».

«هل كل شيء على ما يرام؟».. سألتُه وأنا أمشي نحو الخزانة وآخذ كأسًا وعلبة عصير من البراد.

«هذا غريب، كنت سأطرح عليك السؤال ذاته».

كان مذاق عصير العنب حلوًا أكثر من العادة.. قلت له: «أنا بخير، لماذا؟».

«كنت أتساءل ما الذي حصل معك اليوم».

«خرجتُ من البيت».

«نسيتَ أن تساعدني في تنظيف السقيفة حتى نستطيع نقل جزازة العشب الجديدة إلى الداخل؟»

«أنا آسف يا أبي، لقد نسيت».

«والدتك أرادت أن ننجز ذلك اليوم، لأننا إن لم نفعل، فلن نستطيع وضع كراسي وطاولات الحفل في المرآة».

«أخبرتك أنني آسف».

«سمعتك».

«سأنقل بعض الأغراض، وسننجز الأمر غدًا بعد المدرسة».

«لقد تم إنجازه بالفعل يا (جاك)».

رفعتُ حاجبيّ وقلت: «تم إنجازه؟ من المستحيل أن تكون قد نقلتَ كل تلك الأغراض لوحدك».

«أنت محق، لهذا تدخلَت والدتك وأتى (فراني) و(جيليان) لمساعدتنا.. ما كان باستطاعتي إنجاز ذلك لولاهم».

«ما الذي تقصده؟».

«بماذا؟».

«انتظرتني في الظلمة حتى آتي إلى المنزل، ومن الواضح أنك غاضب..».

«لم أغضب يا (جاك)، بل خاب ظني،» قال أبي وهو يرتشف المياه.. «وقلِق».

«لمَ القلق؟».

«لقد تحول سلوكك إلى عادة».

«سلوكي؟» قلت.. «لقد نسيتُ أن آتي وأساعدك في نقل الأغراض، كان بإمكانك أن تتصل بي وحسب».

«لقد فعلت».. قال.

سحبتُ هاتفي من جيبي وأدركتُ أنه مُطفأ، إما لأنني أطفأتُه بلا قصد أو لأن بطاريته نفدت. «اللعنة، إنه خطئي يا أبي، لم أدرك حتى أن هاتفي..».

«هذه هي المشكلة يا (جاك)، أنت تنسى كثيرًا ولا تدرك الكثير من الأشياء مؤخرًا، وقد تحول الأمر إلى عادة».

«إنه مجرد موقف واحد يا أبي».

«لم تنسَ العشاء العائلي اليوم إذًا؟ وأننا اتفقنا على أن يأتي صديقاك لتصنع لنا والدتك الطعام؟».

كان محقًا، كنتُ قد نسيت، لكن تذكُّر أمرين في يوم واحدٍ صعب.

«سأتصل بـ(فراني) و(جيليان)، سيتفهّمان، وسنُأجّل العشاء حتى نهاية الأسبوع المقبل».

«لقد تناولنا العشاء بالفعل يا (جاكي)».

«ليس عشاءً عائليًا إن لم تحضر العائلة بأكملها».

هزّ والدي كتفيه لامباليًا وقال: «لقد قمنا أنا ووالدتك بصنع الكثير من الطعام، لم نشأ أن يكون ذلك عبثًا».

عقدتُ ذراعي وقلت له: «يبدو أنك تحاول أن تقنعني بأمرٍ ما».

«وما هو هذا الأمر؟».

«أخبرني أنت».

«(جاكي)، من الطبيعي أن تشغلك تلك الفتاة..».

«(كيت)، اسمُها (كيت)».

«لكن ليس على حساب من تحبّهم، ومن ساندوك..».

كِدتُ أقول له إنها تساندني وإننا نُسعد بعضنا، إنه على أن أُسعدها بدوري وليس باستطاعتي أن أُضيّع فرصة إنجاح الأمر معها، ليس مجددًا وما من وقت لأضيّعه لأن لعنة الأشياء غير المكتملة تلاحقني، ولأنني لا أنال فرصًا ثانية بالعادة، ناهيك عن الحب.

لكنني لم أستطع أن أشرح كل ذلك له، مقدار ما أخاطر به.. ما كان ليصدقني أحد ولا حتى أبي.

«ظننتُ أنك ستتفهّم يا أبي».

«أتفهّم ماذا يا (جاك)؟».

«أن أموراً جميلة تحصل أحيانًا حين لا نتوقع حصولها، لكن حين تأتينا، فتصبح حياتنا متمحورة حولها وحول إغناء عالمنا، حول فعل شيء أكبر من أنفسنا.. انظر لما تملكانه أنت وأمي، و(جيليان)، ولم لا استطيع أن أملك شيئًا كهذا؟».

«تستطيع، وستفعل، لكن أنت و(جيليان) و(فراني) بالكاد تخرجتم من الثانوية، ولديكم حياتكم بأكملها لإيجاد ما يسعدكم، ما من داع للعجلة...».

«من قال إنني استعجل؟ لم ليس بإمكاني الحصول على الحب الحقيقي الآن؟ يتصرف الناس كما لو أن كل الأشياء الجميلة بحاجة أن ننتظرها، لكنها تأتي أحيانًا قبل أن نتوقع، أحيانًا ليس علينا أن ننتظر».

«إن كانت مشاعرك تجاهها بهذه القوة فلم لم تجلبها إلى المنزل لتعرفنا أنا ووالدتك عليها؟».

فكرتُ في أن أجيبه بأنني لا أريد مشاركتها مع أحد لأننا لا نملك الكثير من الوق، لكنني قلت: «ما الذي تريدني أن أقوله؟».

«(جاكي)، نحن نحبك، وصدّقني، نسعَد لسعادتك، وكلنا نرى أن (كيت) تبدو شابة رائعة، لكن.. لعل الأحداث تتسارع أكثر مما ينبغي، لعل..».

تجرّعتُ ما تبقى من عصير العنب، ووضعتُ كأسي في غسالة الصحون، واتّجهت نحو السلم لأنني لم أشأ أن أسمع بقية حديثه، ولأنه حديث مكرر. يظل الناس يقولون إنهم يسعدون لسعادتنا، لكن حالما تؤثر سعادتنا على سعادتهم، فلا يعودون سعداء لسعادتنا.. يا للجملة المتشابكة.

«أكرر، أعتذر لأنني لم آتِ، لكنني متعب جدًا، وسأصعد إلى غرفتي لأنام».

«حسنًا، تصبح على خير يا (جاكي).» قال أبي بلطف.

بعثتُ رسالة إلى المجموعة التي تتضمن (فراني) و(جيليان):

مرحبًا يا رفاق، أعتذر بخصوص الليلة، ظننتُ أن موعد العشاء كان الأسبوع المقبل.. هلا عذرتماني؟

فراني: أنت مدين لنا بالكثير.

جيليان: عذرًا، من أنت؟

أنا: سأردّ الدين مع فوائد!

أنا: هذا مؤلم يا جاي!

جيليان: هذا الرقم يخص صديقنا (جاك)، لكنه مفقود وقد ظننا أنه اختفى عن سطح الكوكب.

أنا: هذا صحيح، لقد كشفتِ مخططنا الفضائي لاحتلال الأرض، وأنتما الآن رقم ثلاثة وأربعة على لائحة الخطف.

فراني: ماذا؟ من رقم واحد واثنان؟

جيليان: سيقول إنه الرئيس.

أنا: الرئيس.

أنا: لا تدّعي أنني متوقع جدًا!

جيليان: صدقني، أنا لا أدعي.

فراني: ومن الآخر؟

أنا: لن أخبركما يومًا.

جيليان: من الواضح أنها كيت.

أنا: نعم، تم ذكرها في المخطط، لكن هل أنا متوقع لهذه الدرجة؟

جيليان: هل تريدني أن أجيب على هذا السؤال فعلًا؟

فراني: الإخوة قبل الفتيات!

أنا: لا تحزني يا جيليان.

جيليان: لم أفعل، فأنا أخ روحيّ بالطبع.
فراني: تمامًا! أصبحت جيليان أخًا أكثر منك يا جاك مؤخرًا.
أنا: آسف يا رفاق، لقد نبّهني أبي إلى أنني كنتُ مزعجًا، وأنا آسف لأنني كنت أتصرف بتلك الطريقة.
فراني: من الطبيعي أن تقدّم لك كيت ما ليس باستطاعتنا أن نقدمه لك.. هاها جيليان: لقد كنت مزعجًا فعلًا، ما من مبرر لعدم قدرتك على الموازنة ما بين أصدقائك وحبيبتك. لقد كنت متقاعسًا في التمرين الذي نقوم به من أجل والدَيك!
أنا: أنت محقة، ما من مبرر. أنا آسف، كنت أشعر بالتشتت، وكانت الموازنة بينكم أصعب مما أعتقد.
فراني: إنها صعبة بالفعل! هذه هي المشكلة يا رجل! عليك أن تتوقف عن التفكير بثيابك الداخلية وسيكون كل شيء على ما يرام!
أنا: نصيحة مذهلة كالعادة يا فراني.
أنا: أظنني أريد أن أشكركما لأنكما لم تكرهاني.
فراني: يا لك من رقيق.
جيليان: اصمت يا جاك! جديًا! توقف وحسب!
أنا: أحبكما أيضًا.
وقد يظن القارئ أن تلك الليلة كانت كفيلة بإعادتي إلى الواقع لأرى أنني كنت أخيّب ظن والديّ وصديقيّ، لكن هذا خاطئ كليًا.

•••

فبعد أقل من أسبوع، بعثت برسالة إلى (فراني) و(جيليان):
أنا: مرحبًا يا رفاق، لن استطيع حضور التمرين اليوم، لقد طرأ أمر.
جليليان: هل أنت جاد؟! الحفل بعد ستة أسابيع ونحن لسنا مستعدين أبدًا يا جاك! مهما كان ذلك الأمر، فباستطاعتها أن تنتظر.
فراني: هذه خامس مرة تلغي فيها موعدنا، فإن لم تكن مهتمًا بالأمر، أخبرنا وحسب. لقد كانت فكرتك، وهي الذكرى الثلاثون لزواج والديك.
أنا: أعرف، أعرف، ما كنت لألغي الموعد لو لم يكن لدي سبب مقنع.
فراني: هل لديك سبب مقنع بالفعل؟
بعد ثلاثين دقيقة، رسالة من (جيليان)
جيليان: هل أنت بخير؟ ما خطبك مؤخرًا؟

أنا: أنا رائع، سعيد جدًا.
جيليان: يسرّني أن أحدنا سعيد.
أنا: مهلًا، ما الذي جرى؟
جيليان: حصلتُ على علامة جيد في امتحان اللغة الفرنسية الأخير.
أنا: لا بد أن هناك خطأ ما.
جيليان: لا، لقد نِلتُ ما استحقه.
أنا: تستحقين الأفضل.
جيليان: كان لدي صديقه اسمه جاك وكان يساعدني في الدراسة، لكنه كان مشغولًا مؤخرًا.
أنا: لن يتغير شيء يا جاي.
جيليان: بل تغير كل شيء.
أنا: ماذا تقصدين؟
جيليان: انس الأمر، لا بأس.
أنا: أنا آسف حقًا يا جاي.
جيليان: على أن أذهب.. بالمناسبة، عليك أن تكلّم فراني أيضًا.
أنا: هل هو بخير؟
جيليان: أظن أن احتمالية مقابلته للـ»كوبون» تجعله مشتتًا، وهذا مبرر، لكنني قلقة بشأنه فهو يكره التحدث عن مشاكله.. إنه بحاجتك يا جاك.
أنا: سأكلمه.
جيليان: حظًا موفقًا في ذلك.. على أن أذهب فعلًا!
أنا: نتكلم لاحقًا.
جيليان: سنفعل.
بعد خمس دقائق، راسلتُ (فراني).
أنا: مرحبًا، أردتُ أن أعتذر مجددًا بشأن التدريب، وأريد أن أخبرك أنني هنا إن احتجتني في أي شيء، إن أردتَ أن نتكلّم أم لا.
أنا: آسف لأنني كنت غائبًا مؤخرًا، يبدو أن وجود حبيبة في حياتي يأخذ الكثير من وقتي، الآن صار بإمكاني أن أتفهّم انشغالكما أنت وجيليان.
أنا: ابعث لي برسالة حين ترغب بذلك.
أنا: أحبك يا رجل.
أنا: مجرد رسالة كي لا تظهر الرسالة السابقة في الواجهة.

بعد تسعين دقيقة..
فراني: أنا بخير يا رجل، لا تقلق وكفاك اعتذارًا وندمًا!
أنا: أنت!
فراني: لكن هناك أمرٌ باستطاعتك أن تقوم به من أجلي طالما أنك قد سألت!
أنا: ما هو؟
فراني: يبدو أن جدتي قد دعَت «الكوبون»؛ ليتناول الغداء في منزلنا مساء الغد، أعرف أنني أخبرك في وقت متأخر، لكن هل ستأتي؟
أنا: سأفعل، اترك لي مكانًا جيدًا.
سرّني أن (فراني) وأنا نساند بعضنا دائمًا، اتصلت بي (كيت) وظهر وجهها على شاشة هاتفي.
«أليس من المفترض أن تكوني في الدرس الآن؟».
«أنا متأخرة، وأمشي بسرعة هائلة حاليًا».
«هذا يفسّر صوتك الذي يبدو وكأنك على سطح ناطحة سحاب».
«نعم، ماذا تفعل؟».
«أدرس»، قلت وأنا أطفئ الفيلم الذي أشاهده «رامبيج ٣» وأرمي بجهاز التحكم على الوسادة بجانبي.. «لماذا؟ إلامَ تخططين؟».
«كنتُ آمل أن أكلّمك».
«أنا منصت».
«أقصد، أن أرى وجهك وترى وجهي».
«تقصدين عبر برنامج «فيس تايم»، «قلت ضاحكًا».
لكنها بالكاد ضحكت وقالت: «بجدية، أحتاج أن أراك شخصيًا».
تساءلتُ ما المشكلة حتى أصبح كل شيء مستعجلًا فجأة وقلت: «هل أنت بخير؟».
«نعم»، قالت مسرعة.
«متأكدة؟».
«نعم».
«حسنًا، متى ترغبين بأن نلتقي؟».
«لا أعرف، لدي وظيفة من أجل صباح الغد، ولم أبدأ بها بعد، وعليّ أن أرافق أختي في أمر يتعلق بالجوائز اليوم، ولن تدعني أنسحب مهما حاولت، نلتقي غدًا إذًا؟».
«غدًا»، رددتُ وأنا أعرف مسبقًا أنه يوم غير مناسب، وأنه لا يمكنني أن ألتزم

بموعدين بعد أن وعدتُ (فراني) بالذهاب إلى منزله في وقت يحتاجني فيه.. لكن ماذا لو كانت (كيت) تريد أن تخبرني أنها مريضة وعرفت سبب عودتي بالزمن؟ كيف أخاطر بفرصة معرفة ذلك؟ قررتُ أنني لن أخاطر بذلك، وأنني سأقوم بالأمرين.

تنحنحت (كيت) وقالت: «إن لم يناسبك الموعد، فبإمكاننا أن نتفق على موعد آخر».

«متى تريدين أن نلتقي غدًا؟».

«في أي وقت تختاره».

فكرتُ في أنه لدي دوام مدرسي غدًا، وفي الوقت اللازم لأسافر إلى جامعتها، لكنني قد أنجح في تجنّب الزحام إن لم أحضر الحصة الأخيرة، وقد أنجح في التواجد مع كليهما، (فراني) و(كيت)، وهذا سيكون أفضل سير للأحداث.. فوزٌ لكل الأطراف، وكنتُ أعرف أن (كيت) ستتفهّم عدم قدرتي على الحضور، وأنه لدي مشاريع لا أقدر على إلغائها، لكنني لم أشأ أن أضيّع الفرصة الثانية التي حظيتُ بها، أو أن أضيع لحظة واحدة، فقد تعلّمتُ أنه ما من شيء مؤكد، وأنه على أن أتعامل مع الفرص الثانية على أنها فرصة عمري.

«(جاك)، إن كان من الصعب..».

«لا، لا، سآتي، غدًا بعد الظهر».

«هل أنت متأكد؟».

«متأكد جدًا».

•••

مر الوقت بطيئًا جدًا في المدرسة، وبدَت الحصة العاشرة بعيدة.. كنتُ قد حضّرت لخطة خروجي من المدرسة متحججًا بآلام في معدتي: طلبتُ الإذن للخروج من الحمام عدة مرات، راكضًا كل مرة من قاعة الدرس حانيًا ظهري كأن معدتي تؤلمني.. وذهبتُ إلى ممرضة المدرسة التي بعد أن استشارت أمي، فوصفَت لي مضادات حموضة وسوائل.. كما طلبتُ إذنًا في حصة الدراسة الخامسة، عن قصد مسبق لأن السيدة (راندلمان) كانت تشرف علينا، وهي أيضًا معلمة التاريخ.

«لا تبدو بخير يا (جاك)»، قالت السيدة (راندلمان) وهي تراقبني أمسح معدتي بطريقة دائرية وجسدي مائل قليلًا ومضغوط نحو الأسفل، كما لو أنني قد أنفجر ألمًا في أية لحظة.

«أنا بخير يا سيدة (راندلمان)، شكرًا لاهتمامك، معدتي.. ليست بخير اليوم».

قالت السيدة (راندلمان) وهي تعطيني إذن الدخول إلى الحمام: «ربما عليك

أن تذهب إلى المنزل، احظَ ببعض الراحة، آلام المعدة قد تكون بسبب الإنفلونزا المنتشرة حاليًا».

«لعلك محقة، لكن ماذا بشأن امتحان التاريخ؟».

أومأت السيدة (راندلمان) برأسها كأنها تفكر بالأمر بالكثير من الجدية وقالت: «أظنه بإمكانه أن تعيده يوم الجمعة، فعليّ أن أكون هنا بكل الأحوال من أجل المعاقَبين بعد المدرسة، لذا أظن...».

«شكرًا شكرًا سيدة (راندلمان)، أنتِ رائعة».. قلت.

«انتبه يا (جاك)، فأنا لستُ جيدة في التعامل مع القيء، إن تقيّأت فسأكون خلفك تمامًا».

«حسنًا، أعتذر يا سيدتي، عذرًا».

وبالطبع شعرت بالذنب لأنني خدعتُ السيدة (راندلمان) المسكينة البريئة، لكنني كنت سأقوم بالامتحان بكل الأحوال، وحصلت على فرصة لمساندة فتاتي و(فراني)، فكيف لا تكون تلك تجارةً رابحة؟

•••

تصاعد الأحداث في متجر «كويكي مارت».

قبّلتُ (كيت) مودّعًا مرة تلو الأخرى.. لم استطع التوقّف عن تقبيلها، فضحكَت وقرّبت شفتيها من وجهي، وفتحت باب السيارة قائلة: «يجب أن تذهب يا (جاك) المحارب..(فراني) ينتظرك».

«هذا صحيح»، قلتُ وأنا لا أرغب بمفارقتها، أردتُ أن أشعر بشفتيها على شفتي مهما كان الثمن.. لكن كانت محقة، كان على أن أبدأ رحلتي على الطريق السريع بأسرع ما يمكن.

قالت (كيت): «آمل أن الأمر كان يستحق عناء قطعك لكل هذه المسافة.. أتمنى أن تعجبك».. ثم أشارت إلى العلبة في المقعد الأمامي.. انحنيتُ لأقبّلها مجددًا وقلتُ: «تستحقين أكثر من هذا بكثير، وقد أعجبتني للغاية يا (كيت)».. فأشرق وجهها بطريقة جعلتني أتمنى أن أفعل أي شيء ليتكرر ذلك.

«عليك أن تذهب».. قالت.

أخرجتُ رأسي من النافذة وأنا أقود السيارة نحو الخلف وأعِدُها: «سأتّصل بكِ».

وراقبتُها من خلال مرآة الرؤية الخلفية، وهي تلوّح لي وتصبح أصغر فأصغر، راقبتُها حتى ما عاد بإمكاني تمييز ابتسامتها.

•••

قدتُ بسرعة رائعة لمدة ثلاث عشرة دقيقة، ثم وجدتُ نفسي عالقًا في زحام ساعة الذروة، وكان من الواضح أن أحدًا لم يبالِ بأنّه على أن أكون في «إليتاون»، خلال أقل من ثلاثين دقيقة، حتى عجلة سيارتي اليمنى لم تبال، فبعد أن بدأ الزحام يقِلّ، لاحظتُ أن سيارتي ليست بالسرعة المعتادة، وبدَت بطيئة عند الإقلاع، حتى قياسًا بقدراتها المتواضعة.

أنزَلَت امرأة في خط السير المجاور لي زجاج نافذتها، وأومأَت طالبةً أن أُنزل زجاج نافذتي بدوري، «العجلة!» صرخَت في عرض الطريق، «عجلتك مثقوبة!».

ركنتُ سيارتي جانب الطريق، وانتظرتُ أن يتجاوزني صفٌّ من السيارات، ونزلتُ لأتأكد من حصول أسوأ مخاوفي.

يا لحظي السيئ.. يا لحظي التعيس.

ركلتُ حفنة من الحصى، فارتدّ حجرٌ عن العجلة وأصاب ذقني.. لأن المصائب تنهمر ولا تأتي فرادى.. ثم.. بدأت الأمطار تنهمر فعلًا.. هطل سيلٌ مفاجئ من الأمطار كما لو أن البشرية قد فازت ببطولة ما، فقررت السماء أن تكافئنا بإفراغ خزّان مشروبات على رؤوسنا.

استغرقني إيجاد حديد العجلة ثماني دقائق، فقد كانت مخبّأة بعناية في زاوية في صندوق السيارة، ووجدتُ أنها، هي والرافعة، متآكلتان وبالكاد تصلحان للاستخدام. لذا وجدتُ صعوبة في تغيير الإطار وكنتُ أخاطر بالإصابة بالكزاز كلما أدرتُ الرافعة الصدئة، وارتفع صوت زحام السيارات التي تجاوزتني قاذفة، بواسطة عجلاتها غير المثقوبة، كمّيّات من المطر القذر البارد على وجهي وثيابي التي سبق وبللها سيل الأمطار المتواصل.. استدركتُ أمرًا مهمًا للغاية، أنني سأتأخر، وأنني فاشل.

•••

حاولتُ أن أبعث رسالة إلى(فراني)، لكن خدمة الاتصالات السيئة لم تساعد في ذلك.. دفعتُ دواسة الوقود بقدمي حتى صارت بموازاة الأرض، وناورتُ ما بين صفوف السيارات المزدحمة، جانٍ نصيبي من الزمامير المطوّلة والأصابع الوسطى.. لكنها لم تحبط من عزيمتي، فعليّ أن أصل.

وحين وصلتُ إلى شارع منزل(فراني) أخيرًا، عرفتُ أنني قد أخفقت للأسباب التالية:

أولًا، لأنني تأخرتُ أكثر من ساعة، تأخرتُ تسعين دقيقة تقريبًا.

ثانيًا، لأن (فراني) كان ينتظرني على سلّم الشرفة، وكان وجهه عابقًا بغضب لم أشهَده سابقًا. وقبل أن أركن السيارة في الموقف، اندفع نحوها والحنَق بادٍ في مشيته.. تحوّلت أمعائي إلى ضفيرة لشدة التوتر، وأخذتُ نفسًا عميقًا.

«أين كنت بحق السماء؟».. صرخ (فراني) قبل أن أخرج كِلا قدميّ من السيارة.

«(فراني)»، قلتُ وأنا أخرج من السيارة ويداي مرفوعتان، «أنا آسف، علِقتُ في الزحام و...».

هزّ رأسه ونفخ مصدرًا صوتًا كما لو أنه أسطوانة أوكسجين تم فتحُها عنوة وقال: «زحام؟ يستغرق الأمر ربع ساعة من القيادة ضمن المدينة يا (جاك)، أيُّ زحام؟».

بدَت فكرة الكذب لتهدئة الوضع مغريةً، لكنني لم استطع فعل ذلك. أنا و(فراني) لا نكذب على بعضنا.. وكان بإمكاني لوم العجلة المثقوبة، لكنها ليست الحقيقة كاملةً.. قلت له: «لم أكن في منزلي».

وقف على المقعد الأمامي لسيارتي، وكنت ما زلتُ في جهة مقعد السائق، واقفًا في منتصف الشارع، خوفًا من أن يحدث شيء إن اقتربتُ أكثر، وجدتُ أنه من الأفضل إبقاء حاجز بيننا.

«أين كنتَ إذًا؟».. قال بإصرار.

«(فراني) أنا..»، ولم استطع أن أقولها.

«يا للروعة، فضّلتَ فتاة على صديقك المقرب».

«هذا ليس ما حصل.. أنا.. أنا ذهبتُ إلى هناك.. بلى، لكن الأمر ليس كما تظن، ظننتُ أنها ستخبرني عن أمر مهـ..».

«مهم؟ أهذا ما كنتَ ستقوله؟»، ثم صار على الجهة ذات الجهة التي أقف عندها من السيارة وقال: «تبًا لك يا (جاك)»، وصدرُه على بعد سنتمترات من صدري، إلا أن صدره كان ينتفخ ويرتفع، كما لو أنه بإمكانه أن يهدم منزلًا من الطوب بنفخة إن اضطرَّه أحد لذلك، كما لو أنه بإمكانه أن يزيل قارة بأكملها عن الخارطة بنفخة.. صدَمَني بصدره دافعًا إياي خلفًا، فرفعتُ يديّ بطريقة غريزية مدافعًا عن نفسي.. خلال كل سنوات معرفتنا ببعضنا، لم نتعارك جسديًا، غالبًا لأنه من الواضح أنه سيسحقني.

«(فراني)، اسمع، أنا هنا الآن.. سأدخل وأعتذر إلى الجدة وإلى «الكوبون»، وسنقضي وقتًا طيبًا ونتناول العشاء، أو قد أجلب المثلجات سريعًا وأعود أو...».

أنزلتُ يديّ، ونظرتُ إلى(فراني) بعد كل هذا، تمعّنتُ في وجهه، فوجدتُ عينيه دامعتَين، وشممتُ رائحة جعة، ولم تكن الرائحة تدلّ على أنه شرب كأسًا أو كأسَين، بل صندوقًا أو اثنين.

«مثلجات»، كرّر كلامي، «فات الأوان على كل ذلك».

«يمكنني أن أحلّ هذا، دَعني أدخل و...».

«أنت لا تنصت إليّ».

«أعرف أنك غاضب مني، لكن إن..».

«لقد ذهب».

«ماذا تعني بأنه ذهب؟ إلى أين؟».

هزّ(فراني) كتفيه لامباليًا وقال: «أعادوه إلى السجن غالبًا».

«ما الذي تقوله؟».

أطلق أحدهم بوق سيارته منبّهًا إيانا، فتذكرتُ أننا في منتصف الشارع.. حاولتُ أن أبتعد عن طريق السيارة، لكن(فراني) بدا غير مهتم بأنه يُعيق السّير.. أطلقت السيارة بوقًا مجددًا، وحاولتُ جذب(فراني) إلى جانب الرصيف، لكنه هزّ ذراعه ليبعدني عنه، ودفعني خلفًا، فارتطمت ساقاي بمؤخرة سيارتي، وكدت أفقد توازني.

«أنا آسف يا(فراني)، لكنني لا أفهم ما يحدث».

«كان عليك أن تحضر، هذا ما لم يحدث».

«أعرف، أعرف، وأنا آسف».

«أنت آسف»، قال لي ساخرًا، ثم أدار ظهره ليواجه السيارة التي تحاول تجاوزه، ونقر بسلاميّاته على سقفها وهي تبتعد قائلًا للسائق: «إنه آسف»، ثم صرخ باتجاه السماء مستنكرًا: «إنه آسف».

«ما الذي جرى يا(فراني)؟».

«هل تريد أن تعرف؟ هل تريد حقًا أن تعرف؟».

«نعم، من فضلك».

«تأخرتَ، وأصرّيت على أن ننتظرك لأنك صديقي المقرب، صديقي المقرب الذي يدرك أهمية هذه الليلة، وكنت متأكدًا من أنك في طريقك.. جلسنا أنا وجدتي و»الكوبون»، وسادت الجو غرابة شديدة.. حاول جاهدًا أن يجري حديثًا عاديًا، لكنني لم أكن في المزاج المناسب، فسألتُ جدتي إن كانت قد جلبت ما يكفي من المثلجات من أجل الفطائر، واقترحتُ أن أذهب إلى المتجر المجاور، لكنه تطوّع لفعل ذلك».

جلس(فراني) على المِصَدّ الخلفي لسيارتي، ووقفتُ بجانبه.

«انقضت نصف ساعة ولم يعُد».

جلستُ بجانب(فراني) على المِصَدّ متوقعًا أن يبتعد، لكنه لم يفعل.

«قلقَت جدتي.. كان يحمل هاتفًا مسبق الدفع، لكن لم نكن نعرف رقمه. طلبَت مني جدتي الخروج للبحث عنه، وتصوّرتُ أنه قد صادف فتاة كان يعرفها أو شيئًا من هذا القبيل، لكنني وصلتُ إلى المتجر لأجد ثلاث أو أربع

سيارات شرطة.. أخبرني ابن جارنا أن شخصًا حاول سرقة متجر «كويكي»، فأثقلت رأسي المخاوف، لأنه إن قُتل أو حصل له مكروه، فهذا سيودي بجدتي إلى الهلاك».

ابتلع(فراني) ريقه بصعوبة، وتجاوزتنا سيارة أصدر صندوقها ضجيجًا عاليًا.

«حاولتُ الاقتراب، لكن شرطيًا أمسك بي وطلب مني أن أرجع، لكنني تجاوزتُه وأكملتُ مشيتي، فأمسك بي فجأة من الخلف ودفعني على الرصيف، وحينها رأيتُه، «الكوبون» كان جالسًا في مؤخرة إحدى السيارات. التقت نظراتنا، فصار يتلوى محاولًا الخروج، وضرب الزجاج صارخًا: «أنت! أنت! هذا ابني. ابتعد عن ابني!» ثم وجدتُ نفسي أصرخ: «هذا أبي يا رجل! هذا أبي!»، وكنتُ أشعر أن كل ما يحدث غير حقيقي، أن لا شيء من كل هذا حقيقي».

«لا أعرف ماذا أقول»، قلتُ لأنني لم أكن أعرف فعلًا، واغتنمت الفرصة لأضع يدي حول كتفيه، فشدّ قامته دون أن يتحرك.. «فلنذهب إلى المخفر لنعرف ما تهمتُه، ولنرَ إن كان بإمكاننا أن نخرجه».

«جدتي في طريقها إليه الآن، اتصلَت بوالدَيك، سيلاقيانها هناك».

كنتُ أعرف أنني السبب في ذلك،(فراني) مُحِقّ.

لو أنني حضرتُ في الموعد، لَمَا تضايق أحد، ولَمَا كان من داع للذهاب إلى المتجر، ولَما حدث تمّ اعتقال أحد، ولَمَا كرهني(فراني). لكنني تأخرت.

«لا يستطيع هذا الرجل البقاء لمدة اثنتين وسبعين ساعة في العالم الخارجي، كيف يفعل ذلك؟»

«أنا متأكد من أنه هناك خطأ ما يا(فراني)».

«الخطأ الوحيد هو الظن بأنه باستطاعته أن يتغيّر».

«أنا آسف على التأخير، لو لم أتأخر..».

«إن كنت تظن أنني سأُعفيك من ذنبك، فهذا لم يحن وقتُه بعد».

«لا،» أومأت برأسي قانعًا، «أنا آسف».

قال(فراني) وهو يعاود الوقوف، ويبتسم كما لو أنه شرير خارق القوى، وإنارة الشارع تُضفي ضبابًا أصفرَ خلفه: «وبكل الأحوال، لقد أسديتَ لي معروفًا.. كان سيُخفق عاجلًا أم آجلًا، وقّرتَ علينا كل الهراء الذي كان سيحصل ما بين عودته وإخفاقه».

ثم مشى نحو الرصيف ولم أحظَ بالوقت الكافي لأقرر إن كان على أن ألحق به قبل أن يختفي في منزله ويغلق الباب خلفه.

•••

والأهمّ من كل هذا، لعل القارئ يتساءل ما الأمر البالغ الأهمية، الذي استدعى أن ترغب (كيت) بحضوري، ولعله ظنّ، كما ظننتُ، أن الأمر بخصوص مرضها، وأنها أرادت إخباري بشأنه وجهًا لوجه.. لكن لم يكن هذا هو السبب، فقد أرادت رؤيتي؛ لأن ذلك كان ذكرى الشهر الثالث لعلاقتنا، وكانت قد جلبَت لي هدية، مما جعلني أشعر بالذنب؛ لأنني لم أجلب لها أي شيء، وتضاعف الشعور عندما رأيتُ كم كانت هديتها رائعة، إطارٌ نسّقت فيه بعناية صورًا رقمية للأوقات التي أمضيناها سويًا.. نعم، تلقّيت تذكارًا إلكترونيًا لطيفًا لا استحقّه، وفقد (فراني) والدَه مجددًا، في ذات اليوم الذي رجع فيه.

•••

قاطَعني(فراني)، وأخبرتني (جيليان) إنه من الأفضل أن أجد وسيلة أخرى للذهاب إلى المدرسة، مؤكّدة أن هذا «ريثما يهدأ فقط».. لم أُجادِل، فقد كنتُ استحق أسوأ من ذلك بكثير. حاولَت أمي إقناعي بأنني لستُ المُلام بخصوص والد(فراني)، فهو رجل ناضج مسؤولٌ عن نفسه، وعلى الرغم من تقديري للجهد الذب بذلَته لطمأنَتي، كنتُ أعرف أنه مجرد كلام تقوله الأمهات.

«أين أبي؟».. سألتُ ذات يوم بعد المدرسة.

«أظن أنه مع (فراني)،» قال أمي وهي تكتب بسرعة باستخدام حاسوبها المحمول.. ألقيتُ نظرة من فوق كتفها، وكانت تملأ جدول بيانات تخصّ عملها.

«ما الذي يفعلانه؟».

«ذهبا لشراء بذلة رسمية، أظن أن(فراني) طلب مساعدته».

«فهمت».

«سيعود قبل موعد العشاء، هل تريد شيئًا؟».

«لا، لا أريد شيئًا».

نزعَت أمي نظاراتها وأبقتها في يدها، وهو أمرٌ تفعلُه حين تكون على وشك أن تقول أمرًا مهمًا: «بعد كل ما عاناه(فراني)، ارتأينا أنا ووالدُك أنه سيكون من اللطيف أن يعرض على(فراني) المساعدة في التحضير لحفل التخرج، وبَدا(فراني) متحمسًا للغاية».

«لا شكّ أنه تحمّس»، أعرف أنه لا يجب أن أشعر بالغيرة، فقد طلب والداي مني قضاء المزيد من الوقت معهما، لكنني كنتُ أقضي أغلب وقت فراغي مع (كيت)، وهذا ليس خطأهما، وليس خطأ(فراني)، ومع ذلك..

«ماذا تقصد بقولك يا (جاك)؟».

«لا شيء».

«كيف حال (كيت)؟».

«إنها جيدة».

«وهل تتوطّد علاقتكما بشكل جيد؟».

«تتوطّد بالشكل الكافي».

«حفل التخرج على الأبواب، هل أنت مستعد؟».

«هل ترغبين بالذهاب معي إلى بائع الزهور لمساعدتي في انتقاء زينة فستانها؟».

«كان بودّي يا عزيزي، لكنني مشغولة جدًا في أعمال المتجر، والتخطيط لحفل الذكرى السنوية و.. أرغب حقًا بمساعدتك، (فراني) طلب مني الذهاب معه، بإمكاننا أن نذهب جميعًا، سيكون ذلك ممتعًا».

لوّحتُ بيديّ معلنًا رفضي وقلت: «لا، لا بأس، لا تغيّري مخططاتك، لا أريد أن أفسد الأمر عليكما».

«لا تتصرف هكذا يا (جاكي)، ما رأيك بأن..».

أجبرتُ نفسي على الابتسام وقلت: «لا تقلقي يا أمي، أتفهّم تمامًا، وعلى كلٍّ، من المفترض أن أكون قادرًا على انتقاء زهرة صغيرة بنفسي، ما من مشكلة.» ثم قبّلتُ خدّها واستدرتُ بسرعة مُدّعيًا أنني أبحث عن شيء في الخزائن، لأن شيئًا غريبًا كان يحصل، أصاب جوفي الأنفي وعينيّ بللٌ.

«أأنتَ متأكّد من أن شيئًا آخر لا يزعجك؟».. سألتني أمي.

«نعم»، قلتُ، ومسحتُ عينيّ وأنفي خفيةً قبل أن استدير نحوها مجددًا وأقول: «أنا متأكد.»

فتحت فمها لتقول شيئًا ما، لكنني كنتُ قد اندفعتُ خارجًا من المطبخ نحو الطابق العلوي. بالمختصر، كل شيء غير متعلّق بـ(كيت) تغيّر نحو الأسوأ، وأنا المُلام. طوال هذا الوقت ظننتُ أنه على أن أُنقذ (كيت)، ولعلّني من يحتاج الإنقاذ.

•••

حُكم على والد (فراني) بالسجن لمدة تسعين يومًا بتهمة الإخلال بالنظام العام، وهذا محض هراء. وتبيّن أن مالكَ متجر «كويكي مارت» ظنّ أن «الكوبون» لا ينوي دفع ثمن المثلجات، فأخبر «الكوبون» أنه غير مُرحَّب به في المتجر، ولم يأخذ «الكوبون» الأمر بروح رياضية، فقرر أخْذَ وقته في التمعّن والنظر إلى أشياء لم ينوِ شراءها، لأنه من حقه أن يفعل ذلك مثل أيّ زبون.. وفي النهاية، وضع المثلجات على طاولة البيع، وانتظر أن يحاسبه الرجل. لكن مالك المتجر رفض، وطلب منه أنه يخرج، فصرخ «الكوبون»: «ما مشكلتك؟» وردّ المالك صارخًا: «أنت وأمثالك هم المشكلة، والآن اخرج من متجري!».

«أمثالي،» ردّد «الكوبون»، «أمثالي،» وشعر بموجة غضب عارم تجتاح جسده. لم يكن شخصًا متساهلًا بطبعه، لكنه فكّر بأن والدتَه وابنَه ينتظران قدومه مع المثلجات، فسيطر على نفسه بطريقة ما، والتقط ماسحة السجلات، ووجّهها نحو الرمز على جانب العلبة، ونظر إلى السعر، ثم جمع بعض العملات من أجل الضريبة ورمى بنقوده وسحب كيس بقالة بلاستيكي من طاولة البيع، ووضع المثلجات فيه، واتجه نحو الباب. لكنه لم يبتعد كثيرًا، لأن زوجة مالك المتجر كانت قد استدعت الشرطة، ولسوء الحظ، كانت سيارة الشرطة على بعد أقل من شارع عن المتجر.. والتتمة معروفة، بإمكان القارئ أن يكتبها لو أراد.

•••

كيفية العودة إلى المنزل

تخيفني فكرة سهولة الانجراف عن الطريق، أن تومض السيارات المقبلة نحوي أضواءها المحمومة، وتطلق بوقها، بينما أنزلق قريبًا من يسار الطريق الخطِر، وكل ما أتمناه عندها هو أن الأوان لن يكون قد فات حين أفتح عينيّ.

«(جاكي)، العشاء جاهز».. نادتني أمي من الطابق السفلي.

حين وصلتُ إلى الطاولة، رأيتُ طبقَين إضافيين، وأبي وبصحبته (فراني) و(جيليان).. نظرتُ نحو أمي، فأومأت برأسها كما لو لتقول أن الأوان قد حان لذلك.

كان العشاء محرِجًا في البداية، بسبب إصرار (فراني) الشديد على عدم النظر في عينيّ، وقد أتقَن ذلك.

سألتُ (جيليان): «كيف كان درس اللغة الفرنسية؟».

فضحكَت وأجابت: «أكره الاعتراف بالأمر، لكنه ليس بذات المتعة بغيابك».

شعرتُ بالأسى وقلت: «أشعر بالسوء لأنك تعترفين بهذا مُكرهة، لكنني أتفهّم الأمر.. لقد فقدتُ زمام السيطرة على نفسي لوهلة».

«نعم، لقد فعلتَ».. قال (فراني).

«أنا آسف، تستحقان أفضل من هذا يا رفاق، فلطالما أحسنتما التعامل معي.. أدين للجميع هنا باعتذار، أظن أن كلّ ما في الأمر أنني حصلتُ أخيرًا على شيء لطالما أردتُه، شيء كنت أراه لدى صديقيّ المقربين، ولدى والديّ، وهو أن أكون على علاقة حميمية جدًا مع شخص لدرجةٍ تجعلنا نتماهى دون أن ندرك الحدود بين هويّتينا».

عضّت (جيليان) شفتها وقالت: «هذا جميل جدًا يا (جاي)، وهو أمر لطالما أردناه لكَ بدورنا. نطمح أنا و(فراني) لأن تكون سعيدًا، فأنت تستحق أن تشعُر

بالحُب، وأن تخبَره، ولهذا حاولنا أن نكون متفهّمَين، وأن ندعك تعيش تجربتك».

قلت: «أعرف، لقد كنتما رائعَين».

ضغطَت أمي على يدي قائلةً: «القصدُ هو أنه عليك ألا تتخلى عن عالمك بأكمله لتُثبت مشاعرك لشخص ما، بل أن تجمع ما بين العالمَين بحيث يتضاعف الحب، ولا يقلّ».

•••

«مرحبًا»، قلتُ لـ(فراني) بينما كنا ننظف طاولة المطبخ.

«مرحبًا»، تمتم مُجيبًا.

«ما من مفردات مناسبة لشرح ما فعلتُه، لكنني حقًا..».

هزّ(فراني) رأسه وقال: «وفّر الكلام، حالما ننتهي من تنظيف الطاولة، سآخذ بثأري».

تململتُ ممازحًا، فقال متوعّدًا: «أنت على وشك التعرض لضرب مبرّح لم تخبَره في حياتك». ودفعَني من كتفي ملاطِفًا، أصدرَت (جيليان) صوتًا خلفنا معبّرةً عن تأثّرها، ودفعتُه بدوري.

•••

وعودُ حفل التخرج

جافاني النوم في الليلة السابقة لحفل التخرج، وكنتُ، بالطبع، أفكّر بـ(كيت)، لكنها لم تكن لوحدها ما يشغل بالي، فقد تذكرتُ حفل تخرجي السابق والشعور السيئ الذي راودني حين خذلتني (كيت)، وأنني عرفتُ بعدها أنها في المشفى. فماذا لو تكرر ذلك غدًا؟ ماذا إن لم تأتِ (كيت)؟ ماذا إن أُصيبت بالمرض؟

لكنها أتت، وكانت أبهى من أي وقت، ولم أكن أظن أن هذا ممكن.

«كيف تشعرين؟» سألتُها حالما فنحتُ باب منزلي.

«متوترة، في الواقع».. قالت.

«هذا كل شيء؟ لا تشعرين بشيء آخر؟».

ضحكت وقالت: «متحمسة؟ لا أعرف ماذا تريدني أن أقول.»

أردتُ أن أسألها إن كانت تشعر أنها بصحة جيدة، تفحّصتُها رغم أنني لم أكن أعلم عمّا أبحث تحديدًا، لكنني افترضتُ أنها تبدو بخير.

«ألن تعرّفني على صديقتك يا (جاك)؟».. سألتني أمي وهي تقف خلفي،

«أقسم أنه لم يترعرع بين الذئاب».

«آسف»، قلت.. «أمي، أبي، هذه (كيت).. (كيت)، أعرّفك بأمي وأبي».

«يسرّنا التعرّف عليك يا (كيت)، لقد سمعنا الكثير من الأخبار الطيبة عنكِ».. قال أبي.

ابتسمت (كيت) قائلةً: «آمل أنها صحيحة».

أشرق وجه أمي بابتسامة وقالت: «تبدوان رائعين معًا، هل بإمكاني معانقتُك يا (كيت)؟ هل من الغريب طلبُ ذلك؟».

اعترضتُ قائلًا: «أمي».

لكن (كيت) ضحكت ومدّت ذراعيها قائلةً: «أحب المعانقة».

•••

«وإذًا». قالت (كيت)، «هذا ما فاتَني حين لم أذهب إلى حفل تخرجي».

كان «ثلاثاء المرفع» موضوعَ حفل التحرج لذلك العام، وكان هناك خرز في تلك الغرفة أكثر مما في العالم بأكمله.. أجبتُها: «نعم»، ثم وقفتُ أمامها في حركة مسرحيّة وقلت: «كل.. هذا».

«هل على أن أقوم بتصرفات المراهقات الآن، أم لاحقًا؟».

«أودّ لو أقول لك «الآن»، لكن فلتؤجّلي ذلك».

«أوافقك الرأي»، قالت وهي تسحبني نحو ساحة الرقص.. «فلنرقص بطريقة غير انسيابية أولًا».

«بالطبع». قلتُ، ثم فرقعتُ بأصابعي ولم أكن قريبًا حتى من الإيقاع، ولحسن الحظ، فقد كانت جيدة جدًا في الخروج عن الإيقاع.

«يا لها من حركات شنيعة مذهلة»، قلتُ وأنا أرقص مازجًا ما بين رقصة «التشا تشا»، وما أحب أن أسمّيه «رقصة الدب القطبي الثّمل الذي يرتدي عجلات».

«رقصُك سيئ بطريقة رائعة أيضًا،» قالت وهي ترفرف بذراعيها بقوة كما لو أنها تطفئ نارًا خفية، أو تحاول جمع طاقة كافية للتحليق فوق رؤوسنا كما تفعل «ماري بوبنز»، بغاية الرحيل من الحفل عبر المدخنة.

«ماذا تسمّي هذه الحركة؟»، سألتني وهي تخطو خلفًا لتتمكّن من رؤية رقصتي الفتّاكة بحسب ظني.

«أليس هذا واضحًا؟ الدجاجة العالقة في مصعد،» قلتُ وأنا لا أتوقف عن الرقص، وتحريك ذراعيّ، وقدماي تستعدان إلى كل خطوة وهمية مُقبلة.. ثم حرّكَت ذراعَيها حركات دائرية وهي تُصدر صوت الريح، وبدأت بالدوران، فكان

على أن أسألها: «وماذا تسمّين حركتك؟».

«هرّة في طاحونة هوائية».

أمضينا معظم الأمسية في الرقص، والتسبّب لنفسَينا بالإحراج، وكان ذلك مذهلًا.

«كان ليصبح مذاق هذا المشروب أطيب لو شربناه من العلبة مباشرة». قالت (كيت) بصوت أعلى من الموسيقى الصاخبة.

«علب العصير هي الأروع». قالت (جيليان).

«أُرشّح علب العصير للرئاسة». صرخ(فراني) وهو يرفع كأسه البلاستيكية في الهواء.

فرفعتُ كأسي قائلًا: «أُرشّح علب العصير لتصبح القيصر!».

حين بدأت أُغنيتنا المفضلة لفرقة «مايتي موت»، رقصنا نحن الأربعة أسوأ رقصة منذ بداية الحفل.

«لم أكن أعرف أنه هناك من يحب هذه الفرقة أكثر مني»، قال (فراني) لـ(كيت)، معجبًا بترديدها كلمات الأغنية بحذافيرها.

«هل سأبدو مُدّعية إن أخبرتُك أن هذا بسبب معرفتي الشخصية للفرقة؟» سألَت (كيت).

توقف(فراني) عن الرقص وقال: «توقفي عن هذا الكلام».

«كنتُ لأصمت، لكنني لن استطيع دعوتك إلى حفلٍ لهم وأنا صامتة».

«هل تتكلمين بجدية؟»، سأل(فراني) وهو يقفز في مكانه.

«لا تدركين ماذا فعلتِ للتو»، قالت (جيليان) ضاحكةً.

«لماذا لم تعرّفتنا على (كيت) مسبقًا يا (جاك)؟».. قال(فراني)، وكان ذلك سؤالًا كثير التكرار.

في الأغنية الهادئة الأخيرة، لم أعرف كيف أضع يديّ حول (كيت)، لكنّها سهّلت الأمر على ووضعَت يديّ عند بداية ظهرها، وأرخت رأسها على كتفي، وودتُ لو نبقى هكذا إلى الأبد. ثم شعرتُ برعشة في جسدها.

«هل أنت بخير؟».

«نعم، شعرتُ بشعور غريب لوهلة، أظنّه اختفى».

«متأكدة؟».

«فلنرقص وحسب».

لكن (كيت) قادتني نحو الردهة قبل أن تنتهي الأغنية.

وقبل أن ينغلق الباب قالت: «يجب أن أذهب حالًا يا (كيت)».

«إلى أين؟ ما الأمر؟».

لكنها كانت قد أصبحت في طريقها إلى آخر البهو، أنفاسُها ثقيلة، وعيناها متعَبَتان وقالت: «أنا آسفة لأنني أفعل هذا بك».

«لا أفهم، إلى أين تذهبين؟».

ضغطت بكوعها على زر استدعاء المصعد وقالت: «أنا آسفة».

«تمهّلي، أخبريني ما الذي يجري».

«هذا كان خاطئًا، لا استطيع أن أكون معك، ليس بالطريقة التي تريدها. أنا آسفة يا (جاك)، ما كان على أن آتي. عليك أن تنساني وحسب، اتفقنا؟ إنساني وحسب».

أصدر المصعد رنينًا معلنًا وصوله، ودخلتهُ (كيت)، ثم نزعت حذاءها ذا الكعب، وأمسكتهما بذات اليد كما لو كانا مخالب، وبدأت بضغط أزرار المصعد تريدُ إغلاقها بشكل أسرع، وكأنها تستعجل الابتعاد عني.

«(كيت)، تمهلّي، لا استطيع أن أنساكِ، لن أفعل يومًا،» صِحتُ وأدخلتُ يدي بين دفّتي الباب.

«أرجوك دعني أذهب يا (جاك)،» قالت منهارة.

«تمهّلي، أخبريني فقط إن كنتِ بخير».

«ما الذي تتحدث عنه؟».

وكان سؤالًا وجيهًا. استدركتُ: «لا أعرف، هل تشعرين بالغثيان.. أو بعلائم المرض؟ أنا فقط..».

«أشعر بأنه يجب ألا أكون هنا يا (جاك)، هذا كل ما في الأمر».

«لكن..».

«أرجوك دعني أذهب».

خرجتُ من المصعد لأنه ما من شيء آخر استطيع فعله.. انغلقت الأبواب، واختفت (كيت) أمام ناظريّ.. شعرتُ كما لو أنني لم أنظّف لوح الطباشير بما يكفي، ومازلتُ أرى آثار ما كان مكتوبًا سابقًا.. لم استطع أن أمحو يوم حفل التخرج الأخير من مخيلتي، ولا أستطيع أن أترك (كيت) ترحل لوحدها.

صفعتُ زر استدعاء المصعد، لكن لم يكن هناك سوى مصعدين، أحدهما لا يتزحزح من الطابق العاشر، والآخر ينزل ببطء حاملًا (كيت) إلى بهو الطابق الأرضي، حيث سيتركها تخرج نحو الليل.

دفعتُ باب السلّم فاتحًا إياه، وركضتُ، وتعثّرتُ، ووقعتُ أرضًا.. أسرعتُ مركّزًا على هدفي، مثل طوربيد كثير التعرق، ثم اندفعتُ نحو البهو الذي يسودُه اللون الذهبي.. شعرتُ بالدوار، وكنتُ أتعرّق من كلّ صوب.. لعلّني

تسبّبت لامرأة عجوز تفاجأت بظهوري المفاجئ بذبحة صدرية، لكنني كنتُ مشغولًا بالتحديق في المصعد الفارغ الذي حمَل (كيت).

اندفعتُ نحو الأبواب الأمامية النحاسية، فامتلأت رئتاي بهواء الليل البارد، ورأيتُ (كيت) واقفةً بجانب سيارة أُجرة، ورأتني بينما كانت تدخلها، وأغلقَت الباب.. أُضيئت أنوار السيارة الأمامية مثل علامتي تعجّب حمراوتين تستنكران لرحيل (كيت).

انهرتُ على الإسمنت، كفريسة لقيت مصرعها على قارعة الطريق، واستعَر قلبي، ولم استطع أن أتنفّس.. لم استطع أن أفعل أي شيء، ولا حتى أن أتنفس. ثم أصدَرت عجلاتٌ صريرًا، فرفعتُ رأسي لأرى سيارة الأُجرة تعود للخلف بعنف متّجهة نحو ممر الفندق، دافعةً العشب نحو الرصيف.

عادت (كيت).

صاح سائق سيارة الأجرة وهو يخرج: «هل أنت (جاك)؟».

وقفتُ قائلًا: «نعم».

«اتصل بالإسعاف!».

صِحتُ في البهو: «اتصلوا بسيارة إسعاف! اتصلوا بالنجدة حالًا!».. ثم هرعتُ نحو سلم الفندق الأمامي، وفتحتُ باب السيارة الخلفي بعنف، وكانت (كيت) مستلقية، وأنفاسها متسارعة، ووجهها متوتر. سألتُها: «(كيت)، ماذا دهاك؟ ما الذي يجري؟».

تمتم السائق: «هل تحتاج منفسة؟ أرجوك يا إلهي ساعد هذه الفتاة».

«(جاك)..».

«(كيت)، أخبريني ماذا على أن أفعل».

لكنها كانت بالكاد واعية.

«(كيت)، كلّميني».

«(جاك)، ابقَ بجانبي،» قالت بصوت ضعيف.

«لن أفارقَك،» دخلتُ السيارة ورفعتُ رأسها بلطف عن المقعد، وأرخيتُه في حضني. سمعتُ صفير سيارة الإسعاف تقترب.

«(كيت)، ستكونين بخير».

«أنا آسفة».. قالت.

لم أعرف إن كان على أن أحاول جعلها تستمرّ في التحدّث، أم إخبارَها بأن توفّر طاقتها. وتساءلتُ لماذا لم أعرف شيئًا.

«لا داعي للأسف».. قلتُ وأنا أمسّد شعرها.. «تنفّسي وحسب يا (كيت)، هدّئي من روعك، هدّئي من روعك».

«ما الذي يجري؟».. قال (فراني).. «هل أنتما على ما يرام يا رفاق؟».
أومأتُ برأسي مجيبًا: «(كيت) ليست بخير».
«يا إلهي!» قالت (جيليان)، وهي تستند على إطار الباب. «هل اتصلتَ بالنجدة؟».
«إنها في طريقها إلينا،» قلتُ لصديقيّ، ثم رددتُ بالقرب من مسامع (كيت)، «النجدة قادمة».. وتعلّقت خصلات من شعرها بخدّي.
ركنت سيارة الإسعاف أمامنا.. ونظرتُ في مرآة السيارة الأمامية لأرى كل زملائنا في الصف واقفين على سلّم الفندق، يضعون أيديهم على وجوههم وعلى بعضهم.. ظهر مسعفان، ووضعا قناع أوكسجين على وجه (كيت)، فلم يعد باستطاعتي أن أرى إلا عينيها البنيّتين الدامعتين.
«أفسحوا الطريق».. صاح المسعف الشاب، ووضعوا (كيت) مسرعين على نقّالة، وأخذوها نحو زملائهم.
«إلى أين تأخذونها؟».. أسرعتُ خلفهم وهم يضعون (كيت) في مؤخر السيارة.
«هل أنت من عائلتها أيها الفتى؟» سألتني المسعفة.
«نعم، أجبتُها.
كانت تعرف أنني أكذب، لكنها قالت: «اصعد»..
«ابقَ بعيدًا عن طريقنا يا فتى»، أمَرني المُسعف.
«(جاك)!».. سمعتُ نداء (جيليان) و(فراني) وهما على الطريق.. «سنلحق بك»..
أومأت موافقًا، وأُغلِق باب سيارة الإسعاف، وارتفع صوت صفارات الإنذار.. بقيتُ بعيدًا عن طريق المسعفين، آخذًا بيد (كيت).. ضغطَت على أصابعي بلِيْنٍ، وقبلتُ باللين، قبلت.
«ستكون على ما يرام، صحيح؟» سألتُ المسعفة.
كان من الواضح أنها تريد أن تؤكّد ذلك، لكنها لا تودّ أن تكذب عليّ.

•••

كانت المشفى مشهدًا مبهمًا من الأجساد المتحرّكة، والأدوات اللامعة.
بدأت الأوامر بالانهمار، وتم تشغيل الآلات:
«اجلب حقنة وريدية أخرى حالًا!».
«قناع الأوكسجين الآن!».
«أين الحقنة الوريدية التي طلبتُها البارحة؟».

«أوردتها غير واضحة أبدًا في هذه اليد، دعني أنظر هنا.. ابتعد، ابتعد، ابتعد!».
«لم يقف هذا الفتى في غرفة الفحص الخاصة بي؟».
«أظنه برفقتها».
«لا يمكنه أن يبقى هنا.. عليك أن تخرج أيها الفتى، سنعتني بصديقتك، وسنبحث عنك حين تصبح بخير».
«علّق هذه السوائل يا (جوان)».
«محلول الأملاح المعدنية؟».
«لا، أعطِني كلوريد البوتاسيوم».
«هل سنحتاج للقيام باختبار غازات الدم؟».
«نعم، سنقوم باختبار غازات الدم الشرياني، واختبار تعداد الدم الكامل ولوحة الأيض الأساسية، العملية بأكملها يا (ترايسي)».
«(كيت)، (كيت)، اسمعيني، انظري إليّ. أريدُك أن تتنفسي بهدوء يا عزيزتي.. استرخي وحسب».
«وجدتُه!».
«وأخيرًا».
«لمَ لايزال هذا الفتى واقفًا هنا؟ هذا ليس فيلمًا معدًّا للتلفاز. فليُخرج أحد هذا الفتى إلى غرفة الانتظار. كم مرة على أن أطلب ذلك؟».
«هيّا يا فتى، عليك أن تأتي معي، من هنا. هيا، لا بأس. اجلس هنا، حسنًا؟ لقد ركّبنا كبل القمر الصناعي، قد تجد شيئًا تشاهدَه إن بحثتَ بما يكفي. وإن أردتَ أن تشرب شيئًا، فالماء هناك. ولدينا قهوة سيئة أيضًا إذا كنت يائسًا. هذه دعابة. لا، ليست دعابة.. اسمع، ستكون صديقتك بخير. سأعود إليك حين تصبح مستقرة وسأدعُك تراها وتتأكد من أنها أصبحت بخير. اتفقنا؟ اتفقنا؟».
نحب أن نردد أنه «لا بأس» بكل شيء، لكن في الواقع، ما من طريقة لنتأكد من ذلك.. وأن يكون «لا بأس» بشيء ما، فهذا قد يعني الكثير من الأشياء.
فمثلًا: «لا بأس بحبوب الفطور.»
«ذلك الفيلم، لا بأس به»
«أنتظر موافقة أبي ليقول لي إنه لا بأس بذهابي في رحلة.»
لكن حين تُطبّق على البشر، فغالبًا ما تبدو أمرًا سيئًا:
«ما رأيك بالفتى الجديد؟».
«لا بأس به.»
«سمعتُ خبر مرض والدتك، كيف حالها؟».

«لا بأس.»

«سمعتُ أنه قد تم استئصال كليتك، كيف حالك يا رجل؟».

«لا بأس.»

ليس تركيب «لا بأس» مطمئنًا كما يأمل الناس.. الممرضة أو الطبيبة، أو موظفة صيانة غرفة الطوارئ، أو الملاك الحارس أو أيًّا كانت، ذهبت إلى نهاية الردهة، ودفعَت بابًا تحمل لافتة تقول «يمنع الدخول لغير العاملين».. اهتزّت دفّتا الباب، وفكرتُ باللحاق بها ووضع حذائي بين الدفتين والعودة إلى (كيت). لكن الدفتان توقفتا عن الاهتزاز، وأصدرتا صوتًا قويًا، صوت قفل يليق بمنشأة إصلاحية، ليحبسونا أنا والأشخاص غير العاملين، بعيدًا عمن نحبّهم، والناس الذين نحتاجهم، حتى يحاولوا إنقاذهم، وحتى لا نكون هناك حين يفشلون.

•••

عادت المرأة ذاتُها بعد ثلاثة وأربعين دقيقة، ترقّبتُ كل دقيقة، ولا أعرف متى وصل (فراني) و(جيليان)، لكن كان كلٌّ منهما يجلس إلى جانبي. كانت المرأة مبتسمة، وفسّرتُ ذلك على أنه أمرٌ جيد.

«لا بأس بحالتها،» طمأنَتني.. «لا بأس»، ذلك التركيب مجددًا.. «بإمكانك رؤيتُها بعد نصف ساعة».

«ما الذي جرى؟».

أومأت المرأة بيديها وقالت: «لا استطيع مناقشة صحّتها إلا مع الأشخاص الذين فوّضتهم هي».

هززتُ رأسي قائلًا: «المهم أنها بخير».

«إنها كذلك.. ثلاثون دقيقة».. ثم اختفَت خلف دفّتي الباب الهزازتين.

«أرأيت؟».. قال(فراني) وهو يتنهّد بعمق. «كل شيء على ما يرام».

«هل اتّصلتَ بأهلها يا (جاك)؟» سألتني (جيليان) كما لو أنها تُكرر السؤال، وكأنني كنتُ غارقًا في التفكير فلم أسمعها سابقًا.

«إنهم قادمون».

«أتساءل ما الذي جرى»، قالت (جيليان).

«أنا أيضًا، أنا أيضًا».. قلت.

«من الجيد أننا كنا هناك».. قال.

«نعم، نعم».. قلت.

«هل أنت بخير؟» سألتني.. «تبدو كأنك في مكن آخر».

كانت محقة.. فقد عدتُ بذاكرتي إلى يوم حفل التخرج الأول، حين كنتُ واقفًا

تحت المطر، عند الشرفة الأمامية لمنزل (كيت)، منتظرًا أن تفتح الباب، وأن تشرح لماذا لم تعد تريدني فجأة. لكنني أعرف الآن أن تلك الليلة لم تكن تدور حولي، لم تستطع (كيت) أن تكون معي في الحفل؛ لأنها كانت تحارب الموت.

•••

حين دخلتُ الغرفة، ابتسمَت (كيت)، لكنني لم أصدّقها، أعرف أنها تحاول أن تطمئنني وحسب، لكنني لم أكن مطمئنًا على الإطلاق. وقفتُ عند الباب.

«مرحبًا».. قالت.

«مرحبًا»، أجبت.

أزاحت قناع الأوكسجين عن وجهها، وتركتهُ عند جبينها، ثم قالت: «تعال».. وربتّت على السرير.

اقتربتُ وسألتُها: «هل من المفترض أن تنزعي قناع الأوكسجين؟».

«لا، أقرّت.. «لكن إن فعلتُ ما يفترض أن أفعله فقط، فأية حياة سأعيش؟».

«ما الذي جرى يا (كيت)؟».

«لقد مرضتُ».

«ما المرض؟ ماذا دهاكِ؟».

«لا شيء».

«لم أقصد هذا.. أرجوكِ يا (كيت)، كلّميني. سأفعل أي شيء لمساعدتك».

«لستُ آلة يا (جاك)، لا يمكنك إصلاحي».

تبعتُ نظراتها نحو الشرفة وقلت: «ليس هذا ما قصدتُ قوله، لا أرى أنك محطّمة يا (كيت)، فبالنسبة لي، أنت الآن، أنت..».

«لديّ مرضٌ، لكنني لستُ المرض».

«وما مرضُك؟ لمَ لا تخبرينني وحسب؟ لا أفهم لماذا تحتفظين بالأمر سرًّا.. أنت في مشفى وكل ما أريد فعله هو أن أساعدك وأفهمك وأحاول أن..».

لكنها قاطعتني رافعةً يدها مثل شرطية مرور: «أنا لستُ معجبةً بك، حسنًا؟ ليس بتلك الطريقة».

«أية طريقة؟».

«أقصد أنه ليس باستطاعتي أن أُعجب بك. أنا آسفة حقًا يا (جاك).. أنت رائع فعلًا، ومضحك، و..».

وكان دوري لأُقاطعها: «وقّري على الكلام اللطيف، هلّا فعلتِ؟».

«لا أستطيع أن أقوم بهذا».

«بماذا؟».

«هذا، علاقة عاطفية».

«من قال أي شيء بشأن علاقة عاطفية؟».

«لا تعرفُ ما يخبّئُه المستقبل يا (جاك)، لكنني أعرف، وصدّقني، هذا ما يجب أن أفعله».

وكدتُ أصرخ أنني أعرف تمامًا ما يخبئه المستقبل، وأن هذه هي المشكلة! لكنني منعتُ نفسي، وقلتُ ما أودّ أن أصدّقه: «(كيت)، باستطاعتنا أن نبني المستقبل كيفما نشاء».

عضّت شفتها السفلى وقالت: «(زاندر) يريد أن نرتبط مجددًا».

«من (زاندر)؟» سالتُ ثم استركتُ حالما نطقتُ اسمه.. «أوه».

قالت: «نعم، أوه».. وكأنها تتمنى التراجع عن كلامها.

«(زاندر)، بالطبع اسمُه (زاندر)،» قلت رغم أنني ما كنتُ لأحزر اسمه ولو بعد ملون سنة، لكن هذا ما يفترض أن يُقال عندما تتعرف على اسم عدوّك للدود للتو.. «ألم تقولي أنه يعامل بطريقة سيئة؟».

«نعم، وقد يكون كذلك، إنه كذلك.. لكن أحيانًا..».

«أحيانًا ماذا؟».

«الأمر معقد».

«ليس معقّدًا بالنسبة لي، لأنني لا أفهم يا (كيت)».

«لا أظنك تريد أن تفهم».

هززتُ كتفيّ لامباليًا، كان كلامها منطقيًا، أنني لا أريد أن أفهم.. لكن من كان ليفهم؟ هل كان (بونس دو ليون) ليفهم أنه ما من نافورة شباب مخبأةٍ في «فلوريدا إيفرغليدز»؟ هل كان (جون واشنطن كارفر) ليفهم الناس الذين سخروا من أنه يأكل الحساء بالفستق السوداني؟ أرى أن «الفهم» أمر مبالغ به.

«حسنًا،» قلتُ.. «أجيبي إذًا، لمَ أنت هنا برفقتي؟ لمَ لستِ مع (زاندر) في مكان ما؟ لمَ أتيتِ إلى حفل تخرج من الثانوية، من بين كل الأماكن، بينما بإمكان شخص مثلك أن يقوم بأشياء عصرية أكثر مع ناس عصريين أكثر؟».

حكّت أنفها، ولا أقصد التقليل من شأن كل ما تفعله (كيت) بتحويله إلى سلسلة من الإيماءات والتعبيرات الظريفة للغاية، لكنها كانت جميلة جدًا، ساحرةً حتى حين تكون غاضبة، حتى حين تكون غاضبة بسببي، وبذلتُ جهدي حتى لا أتحوّل إلى كتلة هلامية ذائبة.

«(جاك)، لقد تخرّجتُ من الثانوية السنة الماضية فقط».

«أنا معجب بك يا (كيت).. هذا واضح، صحيح؟ مقدر إعجابي بك؟ ثم وافقتِ على الذهاب إلى حفل التخرج معي، واحتفلنا بمرور ثلاثة أشهر على لقائنا، فهل أنا مجنون؟ قد أكون كذلك، لكن هل أنا مجنون بخصوص هذا؟».

أومأت برأسها وكأنها تقول إنها لا تريد أن تتكلم.. وعرفتُ أنه على أن أتوقف عن الكلام لأنها ستفطر قلبي.. لكنني لم استطع التوقف.. كنتُ أعرف أننا لن نستمرّ، وذاتُ الجزء أراد أن ينتهي الأمر وحسب، وأراد جزء آخر مني أن أؤجّل الأمر قدر الإمكان، إلى أجلٍ غير مسمى، لأعيش مع (كيت) إلى الأبد في فراغ من المشاعر الجامدة.

«ستكون بخير، أؤكد لك».

«لا تعرفين ذلك».

«ستنساني يومًا ما».

«الجميع يقول إن لدي ذاكرة ممتازة، حتى الفيلة أخبرتني بذلك».

«عليك أن تذهب»، قالت وهي تمدّ يدها نحو زر الاستدعاء.

«أجيبيني، ما الذي يملكه (زاندر) ولا أملكه؟ لم تختارينه هو لا أنا؟».

«لا تفعل هذا يا (جاك)، هذه حماقة».

ابتسمتُ بغباء متحديًا، لأنني شعرتُ بشجاعة مفاجئة، ولم تكن النوع الجيد من الشجاعة، تلك الشجاعة التي تجعل البطل يركض برشاقة نحو الجحيم لأنه يعرف ما يجب فعلُه وأنه عليه إنقاذ حيوات على المحك، بل كنت أشعر بشجاعة السنجاب الذي يحاولُ السنجاب يقرر الوقوف منتص الطريق السريع وإيقاف شاحنة بواسطة رأسه وحسب.. وهل من حاجة لشرح ما يحصل في حالات كهذه؟

«أريد أن أعرف يا (كيت)، لمَ هو؟ لم ترفضينني؟».

«لأن (زاندر) لطالما كان موجودًا، كان أول شاب يساندني في الأوقات الصعبة، وهو بالطبع أحمق أحيانًا، لكنني أعرفه، أعرف طبعَه، وأعرف أنه سيكون بجانبي حين تسوء الأمور».

«أريد أن أساندك حتى حين لا تكون الأمور سيئة يا (كيت)».

«توقّف عن معاملتي بلطف».

«ما من مجال للتوقف الآن».

هزّت رأسها وقالت: «أنا آسفة، لن استطيع أن أحبك يومًا يا (جاك).. لا استطيع وحسب، ولم أتقصّد أن أؤلمك..».

لكنني كنتُ قد نهضتُ عن السرير قائلًا «توقفي وحسب.» كان كل شيء أكثر مما استطيع أن أحتمل.

فتحتُ الباب بعنف لأجد نفسي أفسح المجال لأربعة أشخاص يشبهون (كيت)، فافترضتُ أنهم عائلتُها.

«عذرًا،» قلتُ وأنا أتجاوزهم.

سألت الفتاة في المجموعة مبتسمة نحوي: «(جاك)؟» قالت اسمي كأنها قد قالتهُ وسمعتهُ مرارًا.

«نعم،» قلت.

«مرحبًا، أنا (كيرا)، أخت (كيت)».

«يسرّني التعرف عليكِ،» قلتُ مجبرًا نفسي على الكلام، والدمع يتجمع في عينيّ.. «آسف، على أن أذهب».

لم أنتظر أن تسألني إلى أين أو لماذا. ركضتُ في الردهة نحو غرفة الانتظار وقلتُ لـ(فراني) و(جيليان): «فلنخرج من هنا».

«تمهّل، ماذا جرى؟» سألتني (جيليان).

«(جاك)،» ناداني (فراني)، لكنني كنتُ قد صرتُ خارجًا، أتنشّق هواء الليل البارد، وأمسح دموعي الغبية عن عينيّ الغبيتين وأقول لقلبي الغبي إن (كيت) ليست لنا، وأقنعه أن يتخطّاها. لكنني كنتُ أعرف أنه لم يصدّقني.

•••

الحياة كما نعرفها

الحياة بدَت بائسة بعد ذلك، بالطبع.. صار كل شيءٍ رماديًا، ولا أقصد الرمادي المعدني اللامع، بل الرمادي الباهت.. وصرتُ نموذجًا عن المراهق الناحِب جريح الحب.. ارتديتُ بنطال الجينز ذاته عدة أيام كترميز ظاهريّ لألمي.. لكن لم يلاحظ أحد أنني ارتديت ذات البنطال لمدة أسبوع، فارتديت ذات السترة كترميز ظاهريّ أوضح.. ولم تكن مجرد سترة قطنية بلون واحد، من السهل اختلاق تبريرات لذلك، فمن الممكن أن أكون قد لبستُ سترتين قطنيتين حمراوين، ومن الممكن أنهما مختلفتين قليلًا فقط.. لكن للإعلان عن قلبي المفطور، كان على أن ألعب كل أوراقي، ولهذا ارتديتُ سترة فريدة جدًا.

سترة بيضاء تحمل رسمًا ضخمًا في منتصفها، أهدتني إياها الجدة (تشارلي) منذ سنتين، وكان الرسم عبارةً عن دلفين ضخم يبتسم بلا سبب واضح، ويندفع برج ماء من منخره، وتتوضع فوق الماء بطة مطاطية متبسّمة.. دلفين مريع، ومنخر، وبطة مطاطية مخيفة في ذات السترة. لذا، كما قلتُ سابقًا، لم يكن هناك مجال للشك في أنني أرتدي السترة ذاتها. وكان الأمر ملفتًا للغاية، فقد وقفت (مولي هيندريكس) في درس الفنون وقالت: «يا للهول يا (جاك)، أخبرني أنك تمتلك خمس عشرة سترةً متشابهة، أو أن والديك سينفصلان

وأنك تعيش في شقة والدك البائسة وأنه لا يملك عملات معدنية من أجل غسالة المبنى».

«كانت تلك مزحة وقحة جدًا ومتقنة يا (مولي)،» قالت المعلمة (هاغرتي).. وبعد الدرس، سحبتني المعلمة (هاغرتي) جانبًا وقالت: «هل كل شيء على ما يرام في منزلك يا (جاك)؟».

«نعم».. قلتُ وأنا أفكر في أن المشكلة تكمن في قلبي.

وقد اشترك فريق كرة السلة الخاص بمدرستنا بالسخرية، ودندنوا بينما كنا نقف منتظرين دورنا في تناول لحم يوم الإثنين في المقهى: «يا بطتي المطاطية، في حمّامي، أنت المفضلة. يا بطتي المطاطية أحبك في الحوض والمغسلة».

كانت الدعابات مضحكة، خصوصًا أغنية «افتح يا سمسم»، لدرجة أنني ضحكتُ بدوري، إنما للحظات فقط، لأن الضحك يتعارض مع ميلودراما القلب المفطور التي أعاني منها.. إلا أن صديقيّ لم يرَيا الفكاهة فيها.

«رائحتك مريعة يا (جاك)، قال (فراني) ونحن في طريقنا إلى المنزل.

ولم تمتنع (جيليان) عن تسديد لكماتها هي الأخرى وقالت: «إن لم ترتدِ سترة غير هذه غدًا، فعليك أن تجد شخصًا آخر ليوصلك إلى المدرسة».

ثم عقدت حاجبيها ومدّت يدها خلفًا لتقرص خدي.. أحيانًا تبدو (جيليان) مثل الأمهات تمامًا، مما يجعلني أتخيل مستقبلها كناشطة بيئية مذهلة، أو طبيبة، أو قاضي محكمة عليا، وأنها بالإضافة لذلك، ستجد وقتًا لصنع بسكويت شهي بالشوفان ورقائق الشوكولا لأولادها، وأنها ستساعدهم في حلّ واجباتهم المدرسية حتى حين تكون الرياضيات أحدث، وستحضر حفلات غنائهم المريعة من الصفوف الأمية. والأهم أنه حين يقول لهم الكون بأكمله أن غناءهم مريع، فستكون بجانبهم لتذكّرهم بحُبها وبأهميتهم التي لا تضاهى.

«لا تستحقّكَ»، قالت بصوتٍ هامس مثل نهايات أغاني الحب. وجدتُ جهود (جيليان) لطيفة، لكن الحقيقة هي أنني من لا يستحق (كيت)، لقد أفسدتُ الأمر.

«أتكلم بجدية، إن كنت معجبًا بها بشدة، فاسعَ لها».. قال (فراني).

كنا نحن الثلاثة في قبو منزلي، وكانت (جيليان) تكتب واجب درس التاريخ، وأنا كنتُ أشاهد (فراني) وهو يلعب لعبة الفيديو المفضلة لدينا، حين قال (فراني): «عليك أن تتوقف عن هذا البؤس مهما كان الثمن، فهو يجعل الأجواء كئيبة، ورائحتك سيئة فعلًا».. قالها وهو في خضمّ مواجهة مذهلة أحرز فيها نقاطًا أعلى من النقاط التي أحرزتها منذ أسابيع، واعتبرتُ لك إشارةً.

لم أكلّف نفسي عناء إخباره بأنه لن تفوح مني رائحة سيئة بعد الآن، لأنني

عاودتُ الاستحمام بانتظام منذ يومين، لكنه كان محقًا بخصوص الجزء الأول من كلامه، أنه على أن أسعى لها. الغرق في البؤس ليس أسلوب حياة ناجح. أفضّل الغرق في الحب، أو على الأقل في «إعجاب شديد»، إن كان على أن أغرق، وكان باستطاعتي اختيار السائل الذي أفضّله.

بعد فترة، بعثت لي (جيليان) برأيها عبر رسالة نصيّة:

جيليان: هلّا أنصتَّ إلى أيها الأحمق؟!

أنا: كُلّي آذان صاغية.

جيليان: لسبب أحمق ما، أنت تظن أنك لا تستحقُّها، لكن ما يزعجني فعلًا، ما يجعلني أتمنى أن أضربك ضربًا مبرّحًا، هو أنك تظن أنك لا تستحق أن تكون سعيدًا، بقدرِ ما يستحق أي شخص.

أنا: لكنك صديقتي ومن المفترض أن تقولي هذا، أليس كذلك؟

جيليان: لا، صدقني.. ومتى سمعتني أقول شيئًا لم أقصده؟

أنا: أنت محقة.

جيليان: ما من شيء لنناقشه، اسعَ خلفها يا (جاك).. بجدية، توقف عن إضاعة الوقت واذهب لاستعادتها!

أنا: شكرًا، شكرًا، شكرًا.

جيليان: اذهب!

إلا أن سيارتي كان في المتجر، وكانت أمي بحاجة السيارة من أجل عملها، وآخر باص إلى «ويتير» كان قد أقلع قبل عشرين دقيقة، وكان لدى (جيليان) مناوبة متأخرة في مطعم «بيتزا بوبر»، ولم أشأ أن آخذ سيارتها وأتركها. ثم حققت (جيليان) المستحيل: أخبرَت مديرها أن لديها أمرًا شخصيًا مستعجلًا، ثم أتت طالبةً مني الصعود إلى المقعد الأمامي، وصاح (فراني) صيحة حرب: «رحلة طريق!» وجلس في المقعد الخلفي، وانطلقنا في الطريق السريع تاركين خلفنا الطرقات ذات المخاريط البرتقالية واحدًا تلو الآخر.. صنع (فراني) خلال الطريق قائمة من الأغاني المتمحورة حول استرجاع الحب.. ونوّع ما بين ترك الأغاني تظهر لوحدها، وانتقاء أغانٍ بنفسه لنغني معها، حيث قمنا أنا و(جيليان) بدور مغنّيَي الراب، وكنا مريعين بطريقة مذهلة لا تظهر إلا لمن يسمعنا.

«عليكِ أن تركني السيارة،» قال (فراني) مقاطعًا غنائي.

«ماذا؟ لماذا؟» سألته (جيليان).

«عليّ أن أتبوّل، اركنيها وحسب».

«هذا مستحيل، هل تدرك كم الركنُ جانب الطريق السريع خطِر؟ أنت عمليًا تطلب مني أن تُقطع رؤوسنا بواسطة شاحنة مسرعة».

«أنا مُضطر للتبوّل».

«هناك محطة استراحة بعد خمسة عشر كيلومتر فقط».

«فقط»، قال(فراني) ساخرًا.

قلتُ له: «لا تفكّر بالشلالات.»

اضافت (جيليان): «أو بالسباحة في المحيط».

«أكرهكما».. قال (فراني).

بعد خمسة عشر كيلومترًا، توقفنا عند محطة وقود بائسة.

«اغسل يديك جيدًا قبل أن تعود إلى سيارتي،» صاحَت (جيليان) من النافذة.

توقف (فراني) قريبًا من المدخل ومؤخرتُه نحونا، نصفُها فقط لأن سيدة عجوزًا إفريقية خرجَت من محطة الوقود، فلم يستطع (فراني) أن يرفع بنطاله بالسرعة الكافية بسبب ارتباكه.. ابتسمت السيدة وصفرَت صفيرًا متقنًا، فضحك (فراني) وانحنى انحناءة مسرحية.

كتبنا أنا (جيليان) أرقامًا على منديلين ورقيين، وحين عاد (فراني)، خرجنا من نافذتينا حاملين المناديل الورقية، كتبتُ على منديلي «٧.٥»، وكتبت (جيليان) على منديلها «١٠ كاملة» لأن الحب هو معرفة الجوانب السيئة واختيار النظر إلى الجوانب الجيدة.

وإن كانت القارئ يعرف أصدقاء أفضل من هذين الاثنين، فليحتفظ بهما، لأنني لا أصدّقه.

حين اجتزنا الطريق السريع وقوس «ويتير»، صرنا نهتف بحماس، واقترب(فراني) من المقعد الأمامي ليدلّك كأنني ملاكم على وشك دخول الحلبة.

اندفعتُ خارج السيارة قبل أن تركنها (جيليان)، ودخلتُ باب الحراسة في الوقت الذي خرج فيه فتى أصهب، ثم طرقتُ باب غرفة (كيت).. سمعتُ ضوضاءَ في الداخل، وتمنتُ فجأة لو أنني ذهبتُ إلى حمام أو نظرتُ إلى نفسي في مرآة على الأقل.. ماذا لو كان شكلي مريعًا؟ ماذا لو كان لديّ قطعة لحم عالقة بين قواطعي؟ هل على أن أتّخذ وقفةً ما؟ مددتُ يدي لأتّكئ على حافة الباب، لكنني أخطأتُ في تقدير المسافة، فتعثّرتُ عند الباب وارتدّ صدى اصطدامي بالباب في البهو.. نهضتُ وفكّرتُ بالرحيل، لكن الأوان كان قد فات، وفُتح الباب.

«هل يمكنني مساعدتك؟» قال شاب وسيم للغاية مبتسمًا. حاولتُ جاهدًا أن أنظر خلف كتفيه الرياضيين، إلا أن الغرفة كانت فارغة. نظرَ خلفًا نحو الغرفة، ليرى بماذا أحدّق، ثم هزّ رأسه قائلًا: «(كيت) ليست هنا، هل أنت أحد أطفالها في المركز؟

لم أفهم عمّ يتكلم إطلاقًا، «أحدُ أطفالها». ثم تذكرتُ أن (كيت) متطوعة في مركز الترفيه. فقلتُ متسائلًا من هذا الشاب: «لا، أنا صديقها في الواقع».

قال مبتسمًا: «حسنًا يا صديقَ (كيت)، أرجو أنك لم تأتِ من مسافة بعيدة، لأن (كيت) ستغيب حتى الاثنين المقبل بسبب وضعٍ عائلي».

«هل كل شيء على ما يرام؟».

هزّ كتفيه قائلًا: «هذا ما آمله».. قال ذلك بطريقة جعلتني أشعر أنه هو الآخر لا يعرف ما هو «وضعُها العائلي».

ثم قال: «كنتُ استعد للخروج فقد طلبت مني (كيت) أن أضع شيئًا في صندوق البريد».. رفع ظرفًا رقيقًا يحمل اسمي بخط أسود كثير الانحناءات، وتحتُه عنواني.

«هذا أنا».

نظر الشاب إلى الظرف قائلًا: «أنت (جاك كينغ) الساكن في «إليتاون»؟

«نعم».. قلتُ وأنا أُخرج محفظتي وأرفع رخصتي.

بدا متفاجئًا، بل مذهولًا، لكن ابتسامتَه عادت إلى وجهه، أوسَع وأكثر إشراقًا وقال: «سعيدٌ بلقائك يا (جاك)، أنا (زاندر)».

•••

«ألم تلكُم ذلك الفتى؟».. سألني (فراني) بينما كنا نرجع بالسيارة خلفًا خارج موقف سيارات الجامعة. «كنتُ لأحطّم أسنانه بسرور».

«(فراني)، أحيانًا تكون رجل كهف حقيقيًا،» قالت (جيليان)، وهي تنظر نحوه من خلال المرآة الأمامية.

«شكرًا لك يا حبيبتي (جيلي)» قال (فراني).

«لقد كان لطيفًا حقًا.. وجذابًا أيضًا».

«لم تمتنع عنن لكمِه وحسب، بل تريدُ مواعدته أيضًا؟».

«أعطاني هذا، إنه من (كيت).» قلتُ وأنا أرفعُ الظرف.

«افتحه، ماذا تنتظر؟» قالت (جيليان).

«إنه رقيق جدًا، أليس من المفترض أن يكون أثخن لو كان رسالة حب؟».

شد(فراني) على أسنانه وقال: «ليست رسالة رفض من جامعة يا رجل، افتحهُ وأنهِ الأمر»

«لا أعرف إن..».

انتزع (فراني) الظرف من بين يديّ، فتحررتُ من حزام الأمان واندفعتُ نحو المقعد الخلفي كما لو أني أملك عشرِين ثانيةً لأفكّك قنبلة، لكن(فراني) حوّل

نفسه إلى كرة بشرية مدرّعة، تاركًا مؤخرته في وجهي وظهره العريض مقوسٌ كدفاع.

«تأدّبا أيها الطفلان! ستتسببان بحادث،» قالت (جيليان).

ناشدتُ (فراني): «اقرأها بصوت عالٍ على الأقل».

«هذا مستحيل،» قال (فراني) بعد وهلة. «هذا مستحيل!».

«ماذا؟» سألتُه وأنا أشعر بالدوار.. «هل الأمر سيئ لهذه الدرجة؟ هل هو أمر إبعاد؟ لا تريد أن تراني مجددًا، صحيح؟».

وضع (فراني) يده الثقيلة على كتفي وصفعني باليد الأخرى بشدة قليلة تكفي لإسكيت فقط.

«تماسك وإلا فسأجد شخصًا سواك ليأخذ هذه التذكرة».

«أية تذكرة؟».

«هذه التذاكر».. قال (فراني) رافعًا ثلاث تذاكر لحفل فرقة «مايتي موت».. «لقد فعلَتها، رغم أنها تكرهك بشدة يا (جاك)، لقد فعلتها.. من المؤسف أنك أفسدتَ الأمر معها، فهي رائعة جدًا».

«مهلًا،» قالت (جيليان) وهي تنظر متفحّصة في المرآة الأمامية. «»مايتي موت»؟ جلبَت لنا تذاكر حقًا؟».

«نعم، أختها (كيرا) تواعدُ عازف الطبل، لقد أخبرتكما بذلك».

«كنتُ لأتذكّر دون شك لو أنك أخبرتَني»، قالت (جيليان).

«من يهتم؟ سنذهب إلى «ديترويت»، صاح (فراني).

ودندنا لحنًا بإعادة تكرار الكلمة: «ديترويت»، «ديترويت».

«هل كان هناك شيء آخر في الظرف؟».. سألتُ وأنا أمد يدي نحوه.

«هذه فقط».. قال(فراني) وهو يمسك ورقة لاصقة وردية.. «مهما يكن ما تعنيه».

«استمتع بوقتك يا (جاك).

شريكتك الأبدية في تناول حبوب الفطور.

كيت.

كانت ملاحظة (كيت) مكونة من عشرة كلمات، لكنني لم استطع التوقف عن التفكير بها، وتقسيمها، والإغراق في تحليل اختيارها للفواصل بين السطور، وعصر معاني كل مقطع كأنني أعصر مئات ليمونة لأحصل على مقدار زهيد من العصير.. وظللتُ أكرّر كلمة واحدة: «الأبدية»، أي أنها تريد أن تكون شريكتي الأبدية في تناول حبوب الفطور.. لعل الأمر ما زال موجودًا.. بالإضافة إلى أن التذاكر بحد ذاتها إشارة، كدليل سلام بيننا، كغصن زيتون يمتدّ نحوي.

ثم خطر (زاندر) على بالي، الشاب الشبيه بتماثيل الآلهة الإغريقية، ذو العينين اللامعتين، فقُضي على كل آمالي.. فلماذا كان هناك؟ من بين كل الناس، ومن بين آلاف الطلاب في الجامعة، لماذا طلبَت من (زاندر) أن يذهب إلى غرفتها وهي بعيدة؟ لماذا طلبَت منه أن يبعث لي بالظرف؟ لماذا ما زالت تكلّم (زاندر) أصلًا؟

ثم اندمجت مفردتي الفضلة «الأبدية» مع (زاندر)، فصرتُ كلما سمعتُها، وكلما فكرتُ بها، يلحقُها وجه (زاندر).

كان حفلُ «مايتي موت» أسطوريًا.. حين رفض الجمهور الرحيل، عزفت الفرقة عدة أغان إضافية، ومن ضمنها أغنيتي المفضلة على الإطلاق «العودة إلى المنزل».. جلسنا في منتصف صف المقاعد الثاني وكانت الأجواء كالأحلام، بأفقٍ ممتلئ بمجسمات النيون والكهرباء، وأنهار الدخان التي تسبح حول المكان.. أنشدنا أنا و(جيليان) و(فراني) كل الأغاني بحماس حتى بُحّت حناجرنا، ولم نتوقف عن الغناء.

طلبت (جيليان) من شخص ما أن يجلب لنا البيرة، وشربنا نخبًا، وامتلأت الساحة بأكملها بالضجيج والاهتزاز الذي يزحف في العمود الفقري ويهزّ الأقدام.. لكنني لم استطع الامتناع عن البحث عن (كيت) طوال الوقت، ترقّبتُ قدومها لتنقر على كتفي وتعانقني من الخلف، وتُغمض عيني هامسةً: «احزر من أنا».. لكن لم يحصل ذلك. ولمحتُها عدة مرات في الزحام، وحين كنتُ أدقق أو أرمش، كانت تختفي ليتبين أنني شبهتُها بفتاة أخرى، فتاة تحرك رأسها وخصرها كما تفعل (كيت).

بعد ساعات، ركنَت (جيليان) سيارتها عند ممر منزلي، تمنّيتُ لصديقيّ ليلةً سعيدة، ومشيتُ نحو الباب، ثم توقفتُ عندما رأيتُ سيئًا يتحرك. هيّأتُ نفسي لرؤية كلب الجيران المجنون (كوركي)، لكنه لم يكن هناك. كان هناك شخص يجلس على السلم الأمامي، وظلّه ممتد عبر الفناء.. ثم وقف الظل، ووقف في ضوء إنارة الطريق، وكانت هي.

«كيف كان الحفل؟».. سألتني وهي تضع يديها في جيبيّ بنطالها الجينز.

كانت هي.

«أيُّ حفل؟».. سألتُها بقصد أن أبدو مضحكًا وأنا أمشي نحوها، لكن السبب الأساسي هو أن رؤيتها جعلتني أنسى كل شيء حدث حتى اللحظة.

كانت هي.

«أنا آسفة»، قالت بنعومة. «ما كان على أن..».

«لا،» قلتُ.. «أنا آسف.. ولا أبالي إن كنا سنظلّ أصدقاء فقط. أقصد، أبالي بالطبع، لكن إن كانت هذه الطريقة الوحيدة لبقائك في حياتي، فلا أمانعها، فصداقتك هي أمر.. أرغب به يا (كيت)».

لمسَت ذراعي ونزلت بأصابعها إلى يدي قائلةً: «لدينا الكثير لنتكلم بشأنه، لدي الكثير لأقوله لك».

«سنتكلم، وسأسمعك. كيف وصلتِ إلى هنا؟».

«مشيًا على قدمي».

«المسافة قدرها خمسة وستكون كيلومتر»، قلتُ متفاجئًا.

ضحكت وقالت: «لقد أتيت بواسطة الباص أيها السخيف».

«فقط لترَيني؟».

«لا تقلل من قيمة رؤيتك يا (جاك)».

ولم أعرف إن كان الطنين الذي أشعر به بيننا كان بسبب قلبي أم قلبها، أراهن على أنه كان قلبي.. وشعرتُ بالسعادة، كأن الأمر على وشك أن يحدث، كأننا سنرجع سويًا، ثم سمعتُ هتافًا وتصفيقاً.. كان ذلك (فراني)، فعلى ما يبدو، لم يبارح صديقاي الممر.

«هيا يا رفاق، اتركا لنا بعض الخصوصية»، قلت.

أبرزت (جيليان) رأسها من النافذة وأصدرَت أصوات تقبيل.

«ستوقظون والديّ»، قلتُ وأنا ألوّح ليتوقّفا، ولم استطع التوقف عن التبسّم مهما حاولتُ، كنتُ قد نسيت أن وجهي قادر على ذلك.

•••

كنا جالسَين في سيارتي المركونة خارج مهجع (كيت)، تاركين المحرّك يعمل بالرغم من أن (كيت) تكره ذلك عادةً، فالانبعاثات والدخان تضرّ طبقة الأوزون، إلا أنها كانت ليلة باردة من أواخر الربيع، لذا قامت باستثناء.

بدَت رائعة بقصة شعرها الجديدة.. وهذا مضحك لأنني ظننتُ أن الشعر الطويل كان مناسبًا لوجهها، أما الآن وقد قصَّت شعرها، أدركتُ أن تبدو مذهلة. أبي يمزح حول أنه باستطاعة أمي أن ترتدي قطعة خيش وتبدو متألقة مع ذلك.. لعل هذا ما أصابني، شدّني ألق (كيت) نحوها، ولا أمانع الأمر.

«ماذا؟».. قالت.

«ماذا؟».. رددتُ.

ضحكت ولمسَت أنفها قائلةً: «هل علق شيء ما على وجهي؟».

«لم تقولين هذا؟».

«لأنك تحدّق ولأنك لم ترمش منذ ثمان دقائق».

«أظنني أفكر وحسب».

«بماذا؟».

بكِ، بالقوى الغامضة التي جمعَتنا، بتقبيلكِ في الحال. قلت: «لا أعرف، بالكثير من الأشياء».

«لا بد أنه أكثر أهمية مما لدي لأقوله».

جلستُ منتصبًا في مقعد السيارة وقلت: «بالطبع لا! لمَ تقولين هذا؟».

«لأنني طرحتُ عليك سؤالًا للتو، وأنت لم تلحَظه حتى».

كنتُ مشغولًا بإيجاد طريقة لتقبيلها بعد طول انتظار وترقّب.. قلتُ: «أنا آسف جدًا يا (كيت)، ماذا سألتِني؟».

تحوّل ضحكها إلى عبوس، وآلمني ذلك لأنني أكره أن تحزن بسببي.

قالت: «انسَ الأمر، انسَه وحسب».. ثم خرجت من السيارة متّجهة نحو مهجعها.

خرجتُ لألحق بها وقلت: «ما الذي يجري؟».

توقفت على الرصيف وظهرها في مواجهتي، وشعرتُ أن أمرًا جللًا يجري، شيء مشحون مثل الهواء بيننا.

استدارَت (كيت) وقالت: «تتصرف مثل أحمق أحيانًا يا (جاك)، هذا ما يجري».

وضعتُ يدي في جيبيّ وقلت: «أشعر أننا خضنا هذا النقاش سابقًا».

«لا، كنتُ لأتذكّر إحساسي بأنك أحمق وأنني دعوتك بالأحمق بعدها».

«لعلها مجرد محادثة خضتُها مع نفسي إذًا».

«غالبًا».. قالت مستسلمة.

اقتربتُ منها أكثر قائلًا: «أعتذر لأنني لم أنصت لك يا (كيت)، ولما كنت تريدينني إخباري به».

«ليس عليك أن تمثّل أنك لا تعرف يا (جاك)»، قالت وعيناها غامقتان ومتأثرتان كأنّه بإمكانهما امتصاص مجموعة نجمية بأكملها.

«أوه»، قلتُ بصوت خافت وأنا أنشر بحذائي بعض الحصى. «تريدين أن نتحدث عن الأمر الآن؟».

«لا،» قالت بصوت جامد.. «لقد أفسدتَ اللحظة التي كنتُ أشرح لك فيها أنني أحتضر بسبب مرض وراثي».

«أكره الأمر عندما أفعل ذلك».

ابتسمَت قليلًا وقالت: «أنا مصابة بفقر الدم المنجلي».

«أوه،» قلتُ لأنني مغفّل، ولأنني سمعتُ عن المرض، لكنني لا أعرف ماهيته تمامًا.. «أنا آسف».. قلتُ لأنه ما من شيء آخر لأقوله.

«اسمع، لا أريدك أن تعاملني بطريقة مختلفة، اتفقنا؟».

«لمَ قد أفعل ذلك؟».

«لأن كل من يعرف بالأمر يفعل ذلك».

«أنا لست مثل الكل، أنا شخصٌ واحد. كما أنني لا استطيع أن أعاملك سوى بطريقة واحدة يا (كيت)».

رفعَت حاجبيها بطريقة مثيرة تُطالبُ بجواب: «وما هي؟».

«ألا أرغب بمفارقتك يومًا».

أصدرَت صوتًا مفادُه أنها لا تصدّق كم أنا مبتذل، ثم عادت إلى سيارتي وجلست في مقعد السائق.

«هل ستأتي؟».

دخلتُ السيارة قبل أن تغيّر رأيها وسألتها: «إلى أين سنذهب؟».

«حيثما أخذنا الطريق»، قالت وهي تعود بالسيارة خلفًا متجنبةً حاويتي قمامة وقطًا هزيلًا. «أو إلى مطعم «مو» لنتناول البرجر الكبير المليء بالدهون مع البطاطا المقلية.. لا يهم».

«هناك أمر أخير»، قلت.

«ما هو؟»، قالت وهي تدوس الفرامل في الوقت المناسب لتمنع اصطدام السيارة بالعديد من صناديق البريد.

«هذا»، قلتُ وأنا أنحني واضعًا راحتي يدي على خدّيها، وضاغطًا شفتيّ على شفتيها. وكانت قبلة حارقة كأنني أقبّل نيزكًا مشتعلًا قبل أن يرتطم بالأرض، دون أن أتبخّر. وسمعتُ عزف أبواق، وضِعنا في أضواء بيضاء وامضة كأن آلهة الحب تقول: «وأخيرًا».

أو لعل ذلك كان بسبب إشارة المرور التي نقف عندها أصبحت خضراء، وبدأت السيارات خلفنا بإضاءة أنوارها الأمامية وإطلاق أبواقها لنتحرك.

لا، كانت القبلة سبب ذلك.

حين تحررنا من أسر شفاهنا، قادتنا (كيت) نحو المنخفضات.. كانت سماء تلك الليلة منخفضة. جلسنا تحت مظلة من النجوم، وأخبرتني (كيت) عن تشعر لكونها تحتضر.

«سوف أموت يا (جاك)، لا مثلما يموت الجميع يومًا عندما تنتهي أعمارهم، بل عن قريب. بعد سنوات أو أيام، لا أعلم».

شعرتُ بأن دماغي يُرمى من منحدر. سألتها: «ما هو فقر الدم المنجلي تحديدًا؟»

«خلايا دمي الحمراء لا تظلّ مستديرة كما يجب، بل تتقوّس كالمنجل، أي أنها ليست بمرونة الخلايا الحمراء الطبيعية. وأحيانًا عندما تتجمع سوية، فقد تحجب

الأكسجين عن بقية جسدي، ولا حياة بدون أوكسجين، و..».

لوهلة صمَت كلانا وشعرتُ بدقة عالية كل صوتٍ يحدثه جسد (كيت)، تلاقي رموشها، تنفسها، ضربات قلبها، أسنانها وهي تعض شفتها السفلى.

«ما من علاج؟»، سألتُها وصوتي يتصدّع.

«بدأوا بزرع خلايا جذعة، لكن الأمر يحتاج متبرعًا مطابقًا، والمشكلة هي أن أقل التطابق يحصل في أقل من عشرة بالمئة من الحالات، لذا..».

أشاحت بنظرها وقالت: «حاليًا، ما من علاج جذريّ، فكل ما يمكننا فعله هو محاولةُ تجنّب الأزمة والسيطرة على بدايات المرض. لكن ما من صيغة سرية أو جرعة سحرية. أتجرّع مسكنات الألم مثل المقرمشات، مما يجعل رأسي بالون هيليوم يطوف بعيدًا عن جسدي، وأرتدي قناع الأكسجين طوال اليوم، ويتحول أصدقائي المقربون إلى ممرّضين لأن حالتي تتضمن أزمات متكررة، وأقضي وقتًا في سرير المشفى أكثر مما أقضي وقتًا في سريري. وأجلس هناك، منتظرة، أشاهد الكثير من حلقات البرامج المكررة، وأنتظر أن يتحسّن حالي، ويتحسّن بعد عدة أيام أحيانًا، وأحيانًا بعد عدة أسابيع. لأن جسدي بأكمله يؤلمني.» نظرَت نحوي مجددًا. «جسمي يخوض حربًا مع نفسه، حربٌ أنا الخاسرة فيها كل مرة».

«لا بد أن شخصًا ما في مكان ما يعمل على علاجٍ ما».

«هناك شخص، لكن..».. تلاشى صوتها.

«ماذا؟»

«لا شيء».

«أخبريني».

«هناك طبيب، لكن..».

«لكن ماذا؟».

«يكلف العلاج لديه أكثر مما يجني والداي خلال عام».

لم أعرف ماذا أقو لكنني تساءلت إن كان بإمكاني أن أسرق مصرفًا بطريقة سلمية، أو أتلاعب باليانصيب بطريقة ما.

«الأمر الغريب هو أنهم دائمًا ما يطلبون مني في المشفى تقييم ألمي على مقياس من واحد إلى عشرة، إلا أن أحدًا لا يسألني عن الألم هنا،» أشارت (كيت) إلى رأسها، «أو هنا».. وحرّكت إصبعها نحو يسار صدرها، «لأنه ما من تقييم لذلك. الأرقام لا تكفي».

مسحتُ دموعها، وقرّبتُها إليّ.. شعرتُ بأنفها على كتفي، وكنتُ سعيدًا لأنها أخبرَتني، لكنني كنت خائفًا أكثر.

«أنصتي إلى يا (كيت)، إن كنا سنستمرّ سويةً فعليك أن تعديني بأمرٍ واحد».
«ما هو؟».
«عليكِ أن تتوقفي عن الهرب».
«أعتقد أنه يمكنني أن أفعل ذلك».
«المشكلة هي أنك أسرع مني في الركض».
ضحكَت.
أكملتُ كلامي: «بالكاد أقدر على مجاراتك، أتكلم بجدية، أنت سريعة حقًا».
«(جاك)؟».
«نعم؟».
«عليكَ أن تعِدني بأمر أنت أيضًا».
«ما هو؟».
ابتسمت قائلةً: «أن تقبّلني مجددًا بعد أربع ثوانٍ.. واحد، اثنان، ثلاثة..».
ووفيتُ بوعدي مرارًا وتكرارًا.
بحثتُ في الإنترنت عن كل ما يتعلق بفقر الدم المنجلي حين وصلتُ إلى منزلي.. كنتُ في قمة التركيز حتى أنني لم أسمع أمي تدخل غرفتي.
«فقر الدم المنجلي، ما الذي جعلك تفكر به؟» قالت.
«تبيّن أن (كيت) مصابة به.. لم أكن أعلم مدى خطورته».
سحبَت أمي كرسيًا من جانب مكتبي وجلست قائلة: «أنا حاملة للمرض».
«ماذا؟».
«نعم، قبل أن أجلبك، فحصنا نفسَينا لأن فقر الدم المنجلي مصدر قلق كبير، خصوصًا ما بين الأفارقة».
«لقد قرأتُ للتو أن ثمانين بالمئة من المصابين به هم من الأفارقة».
أومأت موافقةً وقالت: «نعم، هذه نسبة كبيرة. لكنني أذكر أنني تفاجأت بكونه يصيب ناسًا كثيرين من مجتمعات أخرى أيضًا. فهو يصيب عددًا لا بأس به من الناطقين باللغة الإسبانية، بالإضافة إلى الناس في الهند، والشرق الأوسط، وحوض المتوسط. أحد أعزّ أصدقائي في الجامعة، (ميرا حسن) كانت مصابة بفقر الدم المنجلي. كانت نحّاتة مذهلة يا (جاكي). صنعت عملًا فنيًا يصوّر شخصين متعانقين، بطول ما يقارب الثلاثة أمتار. كانت بارعة.. ثم أذكر أنني زرتُها في المشفى، ومثلُك، لم تكن لدي أدنى فكرة عن فقر الدم المنجلي. كانت مريضة لدرجة اضطرّتها لترك المدرسة».
«ماذا؟ لمَ؟».

«بقيت في المشفى لمدة شهرين تقريبًا».

«شهرين؟».

«قضت أيامًا جيدة وأيامًا صعبة.. في أيامها الجيدة، كنتُ أمشي معها جيئة وذهابًا في البهو وهي تتمسّك بعمود محاليلها الوريدية وتجرّ قدميها.. أذكر أنني فكرت كم كان مجحفًا أن شخصًا مثلها مفعمًا بالحياة، ونشيطٌ عادةً، يصبح غير قادر فجأة على رفع رأسه».

«ما الذي جرى لها؟».

عضّت أمي شفتها وأشاحت بنظرها قائلة: «لم يكن الطب متطورًا وقتها بقدرما هو الآن. اهتمّ بـ(كيت) يا (جاكي)، حسنًا؟».

«سأفعل».

نهضت وضغطت على كتفي وقالت: «سأجلب لك العشاء إلى غرفتك اليوم، فلتكمل القراءة.»

أومأت قائلًا: «شكرًا يا أمي».

بحثتُ عن الطبيب الذي ذكرَته (كيت). الطبيب (سوونمي). اتصلتُ برقم مكتبه لكنه كان قد أُغلق.

في الصباح التالي، أعدتُ الاتصال، وأكّدت لي منسّقة المواعيد أن الطبيب مشغول حتى نهاية الشهر الحالي، وسألَتني فيما إذا كنتُ أرغب بحجز موعد في الشهر التالي. أخبرتُها بأنني أرغب بذلك، آملًا أن الأوان لن يكون قد فات في الشهر التالي، ولم أكن متأكدًا مما سأفعل، أو إن كان باستطاعتي فعل أي شيء، لكن من المؤكد أن هذه سبب وجودي بجانبها، أن أحاول.

•••

المباراة

خسر فريق «ذا إيليتاون بانثرز»، في الجولة الثانية من المباراة النهائية مجددًا، وبذل (فراني) كل طاقته في اللعب مجددًا. و»الكوبون» في السجن مجددًا.

«من الجيد أنه في السجن، هكذا لن أضطر للتساؤل فيما إذا كان سيأتي أم لا.» قال (فراني) ونحن ندخل سيارة (جيليان).. «هذا مريضٌ، صحيح؟ قولي بأن حياتي أسهل حين يكون أبي في السجن؟».

«هذا الأقل مرضًا في كل ما يجري يا عزيزي،» قالت (جيليان) وهي تأخذ بيده.

«لوهلة، بعد أن أعلنوا بدء الاصطفاف، نظرتُ نحو الأعلى وأقسم أنني رأيتُه بين الجموع، كنتُ لأراهن على أنه هو، وأنه قد وجد طريقة للخروج، أنه قد حفر خندقًا بواسطة ملعقته في السجن فقط ليحضر مباراتي.» عبث (فراني)

بزرّ النافذة. «لكن هذا محض غباء.. من المفترض أن أكون أذكى من هذا بعد كل ما جرى، لكن..».

«لا يقع الأمر على عاتقك يا (فراني)،» قلتُ من المقعد الخلفي.

«حقًا؟».. سألني وهو يحدق من خلال النافذة. «لماذا أشعر بثقلٍ كبير على عاتقيّ إذًا؟».

•••

الخرّيجون

كان التخرّجُ عبارةً عن مجموعة من العناق الجماعي، والصوّر بلا تأثيرات رقمية، والتمسّك بقبعة التخرج التي كانت مخصصة لعملاق فظلّت تبتلع رأسي، بينما توضّعت قبعةُ تخرج (فراني) على رأسه الحليق ليبدو رائعًا كما هو دائمًا.. أما (جيليان)، الطالبة الأولى التي استحقت ذلك تمامًا، فقد بدَت رائعةً وتفوّقت على الجميع بخطابها الذي اختتمتهُ قائلةً: «عليكم بالتقدّم نحو الأمام والفوز في حياتكم.» ثم رفعَت يدها في الهواء، وجُنّ جنون صفّنا، ورُميت القبعات والمشروبات عاليًا. بعدها، رأيتُ (كيت).

«مرحبًا،» قالت مبتسمةً.

«مرحبًا،» رددتُ.

اقتربَت وتلاقت شفاهُنا و.. هل من الممكن أن تقبّل فتاةً مرارًا وتتمتّعَ كلّ قبلةٍ بذات السحر والضرورة الملحّة التي تدفعنا للقبلة الأولى؟ لأنني وجدتُ ذلك معها في تلك اللحظة.

•••

ليس هذه المرة

لم تصِل (كيت) بعد مرور ساعةٍ على بدء حفل والديّ، ولم يكن الأمر مقلقًا في البداية؛ لأن (كيت) فتاةٌ مذهلة في كل شيء، لكن الدقة في المواعيد ليست أحد صفاتِها. رغم ذلك، كان من المفترض أن تكون قد وصلَت، ولم استطع ألّا أتوقّع حدوث مكروه.. المرةَ الماضية، في اليوم ذاته، كانت مستلقيةً في سرير المشفى. قلتُ لنفسي إن الأشياء اختلفَت هذه المرة، إن كل شيء أفضل هذه المرة.

راسلتُها قائلًا: «مرحبًا، أين أنتِ؟ هل أنت بخير؟» لكنها لم تُجب. حاولتُ الاتصال بها بعد نصف ساعة، ورنّ هاتفها طويلًا دون إجابة. عندها صار من المنطقي أن أقلق.

حاولُ بعض أصدقاء والديّ القدامى إجراء محادثات صغيرة معي، سألوني عن الجامعة فيما إذا كنتُ أعرف الفرع الذي سأدرسُه، وأين سأسكن، وإن كنتُ

متحمسًا للانطلاق في الحياة أخيرًا. حاولتُ جهدي أن أبتسم وأومئ برأسي لأمون مُضيفًا لبقًا. لكن إحساسًا كان يعضّ أحشائي تاركًا إياي في ذعر لم أجد له شرحًا.. اتصلتُ بها مجددًا، لكن المكالمة حوَّلَت إلى المُجيب الآلي تلقائيًا، ولم تصِلها رسائلي. أقنعتُ نفسي بأنها قد أطفأت هاتفها، أو أن بطاريته قد نفدت، أو أنها في منطقة حيث الاستقبال ضعيف، أو أنها تقود سيارتها. هناك مئة تفسير منطقي، لكن أحدَها ليس قويًا بما يكفي لردع إحساسي بأن مكروهًا قد حصل. فكّرتُ بالرحيل، وقيادة سيارتي نحو منزلها. لكنني سمعتُ صوت (فراني) عبر المذياع يقول: «لقد حان الوقت يا أصدقاء. يرجى حضور (جاك كينغ) إلى المسرح.» فاتّجه الجمع نحو المسرح.

حاولتُ الاتصال بـ(كيت) لمرة أخيرة وأنا أمشي نحو (جيليان) و(فراني) اللذان يحملان أداتاهما الموسيقية، فتلقّيت المجيب الآلي. تركتُ رسالة صوتية: «(كيت)، أرجوكِ، أرجوكِ اتّصلي بي حالما تسمعين رسالتي».

أمسكتُ المذياع، ونقرتُ عليه نقرةً خفيفة مما جعل الجميع ينظرون ناحيتي.

قلتُ وأنا ألوّح لوالديّ عبر الفناء: «أمي وأبي، هلّا اقتربتما لتجلسا في المقدمة من فضلكما؟». كنتُ أحمل ملاحظات في جيب سترتي، لكنني لم أسحبها. قلتُ عبر المذياع: «لقد مضى على رحلتكما سويةً ثلاثون عامًا. مضى ثلاثون عامًا منذ وافقتما على الرابطة الزوجية بينكما، وعلى مواجهة المستقبل سويًا. وقد حظيتما بنصيبكما من الأوقات السيئة وخيبات الأمل، ومن الندامة، إن جاز القول.. ومع ذلك، ها أنتما ما تزالان معًا، وما تزالان سعيدَين. لذا يجتمع أصدقاؤكما وعائلتكما ليشاركوكما يومكما هذا بعد كل هذه السنوات.. وغالبُ الظن أن البعض لم يعتقد أنكما ستستمرّان».

ساد الضحك.

«ليس لهذه المدة الطويل على الأقل.. لكن بئسًا لهؤلاء، لأنه من الواضح أنهم لا يفقهون شيئًا.»

علَت الضحكات والهتافات والتصفيق.

«لأنه في النهاية، وكما أخبرتماني منذ نعومة أظفاري، الأشياء الجميلة تحتاج جهدًا، وتحتاج قرارات يومية باختيار الالتزام بها، اختيارُ المواظبة على بذل الجهد والحُب، أن نختار ذلك كل يوم بدوره. أنتما مثالٌ لشخصين غير مثاليين أفلحا في بذل الجهد من أجل كل ما هو جميل.. وأشكركما على ذلك. أشكركما على كل شيء. هلّا رفع الجميع كؤوسهم لشرب نخب (نينا) و(إيب)، أمي وأبي. وسنحتفل مجددًا بعد ثلاثين عام في المكان ذاته، والتوقيت ذاته، ومع ذات الأشخاص كما نأمل.. ذكرى زواج سعيدة يا أمي وأبي، وإن كنتما تريدان التسلل بعيدًا عن الجموع للحظات، فسندّعي أننا لم نلحَظ الأمر. لكن أسرِعا في العودة، فهذا حفلكما في النهاية، نخبكما».

ردد الجميع: «نخبكما».

(كيت) كانت ما تزال مفقودة. تنحنحتُ وتابعتُ: «أما الآن، وبما أنكما تنصتان بلا تشتّت، فقد بذلنا جهدنا أنا وصديقاي للقيام بشيء خصيصًا لكما، هذه هديتنا لكما، ونرجو أن تعجبكما. وإن لم تعجبكما، فاكتفيا بفعل ما فعلتماه طيلة حياتي حين لا ترغبان بقتل إبداعي: تصنّعا الإعجاب».

أرسَلت إلى أمي قُبلة ورفع أبهي إبهاميه، وكانا مبتسمَين. أومأت إلى زميليّ في الفرقة، وأعزّ صديقين لديّ. فأومأا بدورهما. أمسكتُ بوقي، وضعتُه على شفتي، وبدأتُ بالعزف. عزفنا كما لو أننا مخترعو الموسيقى، بانسجام رائع ودقة هائلة. وكانت السحُب فوقنا رقيقة تكاد تختفي، والفوانيس الصغيرة المعلقة في أنحاء الفناء تلمع كالذهب، وتمايل مئة شخص من حولنا. فكرتُ في أن حياتي كانت جميلة فعلًا، لكن تلك اللحظة كانت مثالية، مذهلة. لعل السبب كان النبيذ، أو لعله كان البوق بنحاسه البارد بين أصابعي، أو ابتسامتا والديّ الواسعة، والبهجة التي تلمع في عيونهما، ودموع الفرح التي لم يهتمّا بمسحها.. أو لعل السبب كان في تلك الليلة بحد ذاتها، أو أن كل شيءٍ مجتمعًا كان سببًا في جعل تلك اللحظات أحلى من الخيال. عندها تلقّيتُ اتصالًا.

•••

الفرصة الثانية هي فرصة وحسب

انطلقتُ ولم أرَ أمامي سوى الطريق، أعرف ماذا أفعل هذه المرة، لن أبارح جوار (كيت)، سأظل هناك طالما أنها بحاجتي، لن أتركها لوحدها، شريكتي الأبدية في تناول حبوب الفطور.. ثم سمعتُ صريرًا مزعجًا، ورأيتُ أمامي أضواء حمراء وامضة في الغسق. كان قطارًا لعينًا! أقسم أنني لا أذكر رؤية قطار على هذه السكة من قبل، هذه السكة التي تقسم بلدتنا إلى قسمين متساويين كأنها سحاب سترة.

فكرتُ بالالتفاف حول الذراعين الخشبيين، مشيتُ بالسيارة نحو الأمام، بحيث أرى مقدار المسافة بيني وبين القطار، وأعرف كم من الوقت لدي لأقطع السكة، لك القطار أطلق نفيرًا مفاده أنه على أن أبتعد حالًا، فاضطررتُ للعودة بالسيارة لاعنًا كل قاطرة بُنيَت يومًا، وكل سكة حديد، وكل العالم المبني بشكل سيئ. لأنه ما من وقتٍ لدي لأضيعه هذه المرة.. ضغطتُ بوق سيارتي مثل همجيّ، لأنني كنتُ غاضبًا ولا أعرف ماذا أفعل. مشى القطار ببطء شديد، وكلما أطلقت البوق بشكل أسرع، كلما زاد بطؤه.. لعنتُ حظي، واستدرتُ عائدًا بالسيارة نحو الخلف، بطريقة غير قانونية.

•••

«أبحث عن (كيت إدواردز) من فضلك،» قلت للرجل المُسن في مكتب الاستقبال، وكان رقم غرفتها مختلفًا عن المرة السابقة، كانت في الطابق التاسع.. وتساءلتُ إن كان لذلك أيُّ معنى.

كنتُ بالكاد استطيع التنفّس حين وصلتُ إلى غرفة (كيت). حدّقتُ بها وأنا عند باب الغرفة، وأنفاسي ثقيلةٌ تتلاحق أملًا بإيقاع منتظم. لم تبدُ (كيت) مريضة لدرجة توحي بأنها ستفارق الحياة، ولا أعرف كيف يبدو الناس قبل مفارقة الحياة، لكنها بدت ضئيلة وشاحبة.

«مرحبًا،» قالت ووجهها يُضيء.

«من اللطيف رؤيتُك،» قلتُ لها وأنا أدخل الغرفة، وأغلق الباب خلفي. «يا له من زي لطيف».

نظرَت إلى رداء المشفى وقالت: «هذا الزي القديم؟».. ابتسمَت.. «جلبتُه أثناء رحلة عمل في باريس الخريفَ الماضي».

«عصريٌّ للغاية».

«ميغسي».

«هذا مثير للإعجاب، هل تجيدين اللغة الفرنسية؟».

«لا، ما قلتُه هو كل ما أعرفه في اللغة الفرنسية».. انتصبَت في سريرها وعدّلت وضعية وسادتها لتجلس باستقامة. «مرضي ليس معديًا».

«ماذا؟».

«أنت تقف بعيدًا جدًا».

«»أوه»، قلتُ مستدركًا أنني أقف عند الباب تقريبًا.. «هذا صحيح، أنا آسف».

«لا بأس، أظنني كنتُ آمل أن تقبّلني أو أن..».

لم أدعها تكمل كلامها، وهرعتُ نحوها محطمًا رقمًا قياسيًا، وأطبقتُ شفتيّ على شفتيها وبقيتُ هكذا متمنيًا أن تدوم لقبلة إلى الأبد.. لكنها ابتعدَت قليلًا.

«ما الأمر؟».

«لا أستطيع أن أتنفس».

نظرتُ نحو الباب مذعورًا وسألتها: «هل على أن استدعي ممرضة؟ أو طبيبًا؟».

«ليس هذا ما قصدتُه»، قالت مبتسمة.. «من الجيد أنني ألا أن استطيع التنفس أثناء قبلتنا».

«حسنًا»، قلتُ مقتربًا طامعًا بالمزيد.. «في هذه الحالة».

سحبتُ كرسيًا إلى جانبها، وجلبَت لنا الممرضة كؤوسًا مليئة بالثلج، وفتحتُ زجاجة شامبانيا خاليةً من الكحول أخذتُها قبل أن أغادر منزلي.. لم أجد وقتًا

لتوضيب عشاء أو حتى القليل من قالب الحلوى، لكن كانت الشامبانيا جيدة.. شربنًا نخبًا، وتحدّثنا، وضحكنا ونحن نتبادل قصصًا حول رومانسيات مخيم الصيف المروّعة ووظائف الدوام الجزئي السيئة.. لا أذكر متى نمتُ، لكنني استيقظتُ على أصوات الممرضين وهم يصيحون بالأوامر لزوج من أخصائيي رعاية المرضى، وعلى صوت يُذاع في مكبرات الصوت ليهزّ المشفى بأكمله: «يرجى الاستجابة سريعًا، الغرفة رقم ٩١٨».

«يرجى الاستجابة سريعًا، الغرفة رقم ٩١٨».

كانت تلك غرفة (كيت)، الغرفة التي أنا فيها.

«عليكما الخروج من الغرفة من فضلكما».

عندها رأيتُ والدة (كيت) واقفة بجانب كرسيّي.

«مهلًا، ما الذي يجري؟ هل هي بخير؟» صاحت والدة (كيت) منهارةً.

«يجب أن تخرجا من الغرفة من فضلكما».

لم أشعر بقدميّ تتحركان، لكنني وجدتُ نفسي بطريقة ما في البهو، ناظرًا إلى غرفة (كيت) من خلال الستائر، وأفسحنا الطريق أنا ووالدة (كيت) لمجموعة من الأطباء وأشخاص يحملون أقنعة تنفس في أيديهم، وآلةً ذات عجلات أظنها تقرأ ضربات القلب.

«(كيت)، نحن لانزال هنا».. ناديتُها عندا فتح طبيبٌ آخر باب غرفتها. «(كيت)!».. إلا أن صوتي تلاشى، وأصابني صداع هائل بين صدغيّ، وطنّن أصوات المحيط في أذني.. مددتُ يدي لاستند على جدار، لكنني أخطأتُه، أو أن الجدران تحرّكت، أو..

«(كيت)، أنا باقٍ هنا،» حاولتُ أن أصرخ، لكن صوتي بقي حبيسًا في رأسي.. «(كيت)!» عبثًا. شعرتُ بمليون سيف في عمودي الفقري، وذابت ركبتاي لتندمجا مع كاحليّ، وشعرتُ برأسي ينفصل عن كتفيّ و..

•••

رغم أنني كنت أفعل
لم تكن لذيذة

الفصل الثالث

سحر المرة الثالثة

المصائب لا تأتي إلا ثلاثًا

لم أصدّق الأمر في المرة الثانية، لكنن سمعتُ ضجيج المحتفلين المألوف ذاته، وكنتُ في ذات غرفة المعيشة التي يُظهر تلفازها مباراة كرة السلة على مستوى الولاية ذاتها، ورأيتُ الشاب ذا السترة الواسعة ياقتُها يحدّث الفتاة ذات وشم «هيلو كيتي» على رقبتها، وكأسي الأحمر كان في يدي.. رأيتُ السلم الملطّخ بالبول، و(جيليان) عند طاولة المطبخ كأنها ملكة بين سرب من طلاب الثانوية، لوّحَت نحوي مبتسمةً.. ولم يفتقد المشهد إلا أمرًا واحدًا..

«عفوًا يا فتى، أنت تسد طريق السلّم».. لقد وصلَت.

«في الواقع».. قلتُ وأنا أُدير رأسي لأنظر نحوها.. «أنا لا أسدّه بطريقة جيدة، سيكون من الرائع أن تقبلي بمساعدتي في سدّه كما يجب».

•••

لم أعرف سبب عودتي إلى تلك اللحظة، أو سبب عودة الزمن البليد للوراء، ولعلني لن أعرف سبب حدوث ذلك أو الطريقة التي حدث بها، لكنني قد عُدت فعلًا، غالبًا لأنني لم أكن قد فعلتُ ما يجب أن أفعله بعد، أو على الأقل لم أكمل فعله.. ولهذا، وباعتبار أنني كنتُ أملك فرصة تحسين بعض الأمور في هذا العالم، من أجل عائلتي وأصدقائي، فسيكون من الغباء ألا أنتهزها.. وأمي لم تُنجب مغفلًا (لقد اكتسبتُ صفاتٍ كهذه بجهودي الشخصية). بكل الأحوال، وباختصار، كان هناك مشاكل مكتوبٌ عليها اسمي.. (بدَت هذه الجملة أفضل في مخيلتي). فلأحاول مجددًا.. باختصار، كان على أن أحلّ بعض المشاكل.. (هذا أفضل).

•••

خطةٌ آملُ أنها ستنقذ كيت

كنتُ بحاجة إلى نقود، إلى كمية هائلة من النقود، وهي مشكلة لأنني لا أملك نقودًا.. العلاجات التي بحثتُ عنها والتي تملك أكبر فرص لشفاء فقر الدم المنجلي كانت تكلّف نقودًا لا أملكها، والطبيبُ الذي أخبرَتني (كيت) يملك العلاج الأغلى ثمنًا.. لذا، تضمّنت الخطة على الحصول على الكثير من النقود، فقررتُ أن.. أدخل الرهانات.. أعرف أن جمعي مع أي شيء يضمّن الفوز هو غالبًا فكرة سيئة.. لكن إن قمتُ بها بالشكل الصحيح، إن كان سيحصل ما أتوقّع أنه سيحصل، فليست ذلك رهانًا فعلًا. يبدو ذلك متناقضًا حقًا، لذا.. لا، لا،

سأنجح.. يجب أن أنجح. عبر التاريخ البشري، متى لم تنجح الرهانات؟

•••

أجريتُ دراسة نقدية تتضمن تفقّد كل زاوية وركن للنقود التي من الممكن أنني قد غفلتُ عنها، تفقدًا دقيقًا لم أهمل فيه شيئًا. كنتُ أملك ٢٠٤.٨٩ دولارًا في حسابي، و٢٠١٩.١١ دولارًا في مدخراتي.. ما بين تركيب السجاد في الصيف السابق ومال عيد الميلاد المتراكم، كنتُ قد قمت بعمل جيد في زيادة تدفقات إيراداتي المحدودة. ومع ذلك، لم أكن أملك ما يكفي لتغطية زيارة الاستشارة، ناهيك عن العلاج الفعلي.. وإذا كانت حساباتي صحيحة، فكنتُ أحتاج تقريبًا ألف ضعف المبلغ الذي أملكه.. أو فقط سبعمائة وخمسون مرة، إن كنتُ محظوظًا.. وللأسف، مازال الحظ يتجاهل طلبات صداقتي.. على أية حال، هذا ما سأقوم به: ستبدأ رهانات «مارش مادنس»، بعد أسبوعين وأنا واثق من أنني أتذكر نتيجة كل مباراة، وعلى الأقل بعضها، ومقدار تقارب النتائج.. والأفضل من ذلك، ليس من المتوقع أن يدخل فريق جامعة «ماندريك» إلى المسابقة، ناهيك عن الفوز الشيء بأكمله. مما يعني أن أي شخص يراهن عليهم هو أحمق، أو مسافر عبر الزمن قادمٌ من المستقبل.

•••

قمتُ بخطتي وكلّي قلق، فماذا لو تغيرت نتائج البطولة؟ لكنني بقيتُ أفكر في اللعبة، التي كانت على التلفاز عندما عدت إلى السلم، ومشاهدتي لعودة فريق الولاية غير المعقولة، والتي تكررت كما في المرة السابقة.. كما أن الأمور الجوهرية بقيت واقعًا، فوالد (فراني) سيطلق سراحه مبكرًا، ولقاء (كيت) عند السلم، ومشاعري تجاهها لم تتغير. وفي النهاية، لا يهم ما الذي اختلف وما الذي بقي على حاله، لأنني لم أكن أملك أفكارًا أخرى.. لذا، قررتُ أن أشجع فريق جامعة «ماندريك»!

•••

طازج جدًا

في آخر يوم في عطلة نهاية الأسبوع، قادت (جيليان) السيارة بنا نحو جامعة «ويتير»، ولم أكن متأكدًا من أن (كيت) ستقبل بالذهاب إلى حفل التخرج معي (لقد فعلَت)، لكنني كنتُ ذاهبًا بنية التغلّب على كل الأقدار.

«غبتَ عني طوال الليل والآن تعود مع ابتسامة كهرّ « تشيشاير»، ما الذي جرى؟».

«لا شيء، لكن فلنقُل أن جامعة «ويتير» هي الأفضل».

«إنها الأفضل» إذًا؟ هل انضممت إلى مجلس القبول فجأة؟ ما الذي تحمله في يدك؟».. اقتنصَت قطعة الورق قبل أن أنمكّن من الإجابة، فتحتها وضحكَت قائلة: «لمن معلومات الاتصال هذه؟».

«أيها الوضيع».. صاحت (جيليان) بصوت عالٍ. كانت نوافذ السيارة مفتوحة، فحدّق راكب المقعد الأمامي في السيارة المجاورة.. «كان على أن أعرف أنك لم تكن تقوم بأشياء بريئة.»

«انسجمنا سويًا،» قلتُ معترفًا.

«هذا ما أنا قلقة بشأنه، أن «تنسجما».. أرجو أنك قد استخدمت وسيلة وقاية».

«ماذا؟ لم يكن هذا ما قصدتُه بقولي إننا انسجمنا».

ضحكَت (جيليان) وقالت: «بالطبع لم تفعل، أنا أعبث معك، تمالك أعصابك يا (جاك)».

«ماذا تقصدين بقولك «بالطبع؟ أنني لا استطيع أن أمارس علاقة مع فتاة؟».

توقفَت عن الضحك وقالت: «أنت قادرٌ على ذلك تمامًا، لكنك لا تدرك ذلك بعد.. وحين تفعل، فمن الأفضل أن يحترس العالم».

«أنتِ لئيمة بحق».

هزَّت رأسها قائلةً: «(جاك)، أنت قريبٌ إلى قلبي، لكنك غبيٌّ بالنسبة إلى شخص بهذا الذكاء».

قبل أن أتمكن من سؤالها ما الذي تعنيه، رفعت صوت المذياع وغنّت كما لو أنها نهاية الفيلم وقد أعادَت لها (أورسولا) صوتها للتو.

أخفضتُ صوت المذياع وقلت: «(جي)؟».

«نعم؟».

«كيف حالك؟».

«ماذا تقصد؟».

«كيف حالك بعد رحيل والدك؟ كيف تتعاملين مع الأمر؟».

قالت متململة: «أظنه سوف يعود، غالب الظن أنه يعاني من.. أزمة منتصف العمر أو شيء من هذا القبيل».

«نعم».

«أظنه يشعر بأنه قد تقدّم في العمر وأنه لم يحقق أحلام شبابه.. كان لديه الكثير من الإنجازات التي كان يترقّب فعلها، ثم استدرك أن الزمن يجري وهو لم يحقق بعد أي شيء».

«لكن ماذا عنك؟».

ابتسمَت مجبَرة وقالت: «لا بأس بي، لا بأس».
«إن أردتِ أن تتكلمي،» قلتُ.
«بإمكاني أن ألجأ إليك يا (جاك)».
«جيد».
«أنا قلقة على أمي أكثر من نفسي. إنها حزينة جدًا».
«أتفهّم ذلك».
«لكن على الأقل عادَت إلى الرسم، هذا أمر جيد».
«أنت تقلقين دائمًا على الجميع وتنسَين نفسك. وأحب ذلك فيك، أنك معطاءة. ولكن عليكِ أن تعتني بنفسك أيضًا.. أنا هنا من أجلك إن احتجتِ أي شيء».
«أعرف».. قالت وهي توجّه السيارة خارج الطريق السريع. «شكرا» وأعادَت تشغيل الموسيقى.
حين وصلنا إلى ممر سيارات منزلي. خرجتُ من السيارة، ولوّحت لي (جيليان) مودّعة، ثم عادت بالسيارة خلفًا باتجاه الشارع لكني أومأتُ لها لتقف، فأعادت السيارة إلى الموقف وقالت: «ما الذي نسيته؟».
«طرأ أمر غريب مع والديّ بخصوص فاتورة الكهرباء، فشركة كهرباء البلدة أخبرتهما أنهما لم يدفعا الفاتورة وهدّدت بفصل الكهرباء عن منزلنا».
«ماذا؟».
كنتُ أتحدّث بشكل غير واضح، فحاولتُ أن أكون أكثر تحديدًا: «حين تصلين إلى منزلك، تأكّدي من أن الفاتورة مدفوعة، لأنني لا أريد أن يحصل الشيء ذاتُه معك أنتِ ووالدتك، هلّا فعلتِ؟» فضحكَت.
«أتكلم بجدية يا (جاي)، لا تنسَي».
ضحكَت مجددًا وقالت: «حسنًا يا (جاك)، شكرًا على المعلومات القيّمة».
عادَت بسيّارتها نحو الشارع ووضعتُ حقائبي في مدخل المنزل، بينما ينهال والدايَ على بالأسئلة. حين صعدتُ إلى غرفتي، وصلتني رسالة من(فراني):
فراني: سمعتُ أنك حصلتَ على إعجاب فتاة.
أنا: نعم، إن كان رقم الهاتف رمزًا لإعجاب الفتيات.
فراني: لا بأس به كبداية.
كانت بداية حقًا، بدايةً جديدة.
فراني: لديّ خبرٌ غريب جدًا.
كنتُ أعرف الخبر، لكنني أجبتُه:

أنا: وجدوا علاجًا لشعر ظهرك؟

فراني: أنت أحمق للغاية.

أنا: أعرف ذلك. ألن تخبرني ما الخبر الغريب؟ تحمّست

فراني: قرعُ طبول سيُطلق سراح «الكوبون» في نهاية الأسبوع!

عيد ميلادي كان في الأسبوع الأول من سبتمبر، بعد أسبوعين من الموعد الاعتيادي لبدء المدارس، مما يعني أنني لم أذهب إلى حضانة الأطفال حتى أصبح عمري سبع سنوات تقريبًا.. حاولت أمي تخفيف خيبة أملي لانتظار سنة إضافية بأكملها حتى بدء المدرسة عن طريق إخباري أنها ميزة مهمة؛ حيث سأملك الأسبقية، وسأحصل على رخصتي قبل أقراني، وأصوّت قبلهم، وأشرب الكحول قبلهم، في السن القانوني طبعًا. وبالطبع، لم تذكُر ميزة أخرى مهمة، لعلها لم تفكّر بذلك، لكن كانت لدي الأسبقية في القدرة على القيام برهانات أيضًا.

•••

خبر عاجل: الإنترنت عالمٌ مذهل.. نشرتُ صورًا لمقتنياتي وخلال ساعة جنيتُ ٢٠٠ دولار، وفي نهاية اليوم جنيتُ ٣٤٥ دولارًا، وبحلول نهاية الأسبوع وصل رصيدي إلى ٨٠٠ دولار، لكن نظرةً سريعة إلى العلية أكّدت لي أسوأ مخاوفي، كانت قد نفذت مني الأشياء لأبيعها. ثم خطرَت لي فكرة.

أجابَت طالبة في السنة الثانية في جامعة الولاية على إعلاني. أجبتُ في البريد الإلكتروني الذي بعثتُه لها: «ماذا ستفعلين بها؟» وردّت بأنها ستستخدمها في الجامعة، ولزيارة أهلها من وقت لآخر في عطلة نهاية الأسبوع.

«لمَ تبيعُها؟».. سألتني حين أتت لأخذها.

شعرتُ بقليل من التردد في إخبارها بالحقيقة: «من أجل حبيبتي».

«هذا رائع».

«حسنًا».. قلتُ معترفًا، «لم تُصبح حبيبتي بعد».

ابتسمَت وأنا أسلّمها المفاتيح وقالت: «إنها محظوظة يا (جاك)».

لوّحتُ لها مودّعًا بينما كانت ترجع بالسيارة خلفًا، وواصلتُ التلويح حتى غابت سيارة «السيدان» الزرقاء متجهةً نحو حياته الجديدة.. قررتُ أن أقلق بشأن تفسير آخر مبيعاتي لوالديّ لاحقًا، فما يهمّ هو أنه لدي فرصة حقيقية في النجاح، كنت بحاجة أمرٍ أخير: وكيلُ مراهنات مستعد لقبول رهان كبير من طالب بالثانوية عمره ١٨ عامًا.. الأخبار السيئة، هي أنني لم أكن أعرف أية وكلاء رهانات.. أما الخبر السار: أعرف شخصًا قد يعرف أحدهم.

•••

لا نقبلُ القسائم في هذه المؤسسة

كنتُ أتحدّث وأنا بينما أُخرج بوقي من حقيبته: «هل تظن أنه علينا أن نصنع ملصقات؟ من أجل فرقة «جوي توي»؟ أفكّر في أنه علينا أن نحصل على بعض الدعاية، في حال..».

خطّطنا للقيام بالكثير ذلك اليوم، لكن (جيليان) تلقّت اتصالًا هاتفيًا، واختفَت في منزلها. أكملتُ: «قد لا نبيع الكثير..».

«سيبيتُ «الكوبون» في مكان آخر، قاطَعني(فراني).

تركتُ بوقي جانبًا وقلت: «هل تحدّثت مع جدتك؟».

«قررتُ ألا أفعل، لأنه بيتها، ومن حقها أن تختار بقاء ابنها فيه، لكن القضية الجوهرية هي أنه قد اختار البقاء في مكان لا أتواجد فيه أنا، مرةً أخرى».

«لعله يظنّ أنه يفعل ما ترغب به أنت».

«ومتى فعل «الكوبون» أمرًا يخدم سوى مصلحتَه؟».

«حسنًا، ربما يريد أن يأخذ الأمور بروية».

«إنه متبلّد تمامًا، لا متروٍّ، لا أعرف لماذا تفاجأتُ، هذا ما يفعله دائمًا،» هزّ (فراني) كتفيه مصطنعًا اللامبالاة.. «على الأقل لم يغيّر نمط تعامله».

«لعله عليك أن تحادثه».

«وماذا أقول له؟».

«لا أعرف، فلتخربه ما تشعر به».

«لم أرغَب برؤيته بكل الأحول، لا أحتاجه.. هو من يحتاجني في الواقع.. أحياتي رائعة من دونه، لم قد أرغب بوجوده فيها؟».. أخفض (فراني) صوتَه وقال: (جاك)، هل أنا بهذا السوء؟».

«ماذا تقصد؟».

عضّ(فراني) شفته كأنه يتمنى لو أنه لم يقل شيئًا، ولا يريد أن يكمل حديثة، لكنه قال: «أعرف أنني لستُ أذكى ابنٍ في الكون، أو الأقوى، أو أيًا يكن، لكن أحدًا لا يستطيع أن ينكر وسامتي، صحيح؟».. قال وهو يتّخذ وضعيةً كما لو أنه في جلسة تصوير في ممشى عرض أزياء، وابتسم ابتسامةً توحي بأنه لا يبالي بأي شيء، لكنها اختفت حالًا، لأنه لم يتمكن من إخفاء ألمه عبر هذه التمثيلية.

«(فراني)».. قلتُ.

لكنّه أكمل: «أنا لا أفهم وحسب، لو كنتَ أبي، هل كنتُ لأكون خيبة بالنسبة لك؟ أتكلم بجدية».

«ما الذي تقوله؟ كنتُ لأفر بك، أنا فخور بك حقًا».

«لا، لا بد من أن هناك خللًا بي».

«ما من خلل بك يا (فراني)».

ارتفع صوته وقال: «لا تكذب علي، بإمكانك أن تخبرني الحقيقة. كنتَ لتعرف ما الخلل بي، أنت صديقي المقرب، أليس كذلك؟».

«أنا صديقك المقرب فعلًا».

«أخبرني الحقيقة إذًا، ما الخلل بي حتى يتجنّبني أبي؟ لماذا لا يرغب بوجودي؟ لمَ لستُ جيدًا بما يكفي؟ لماذا لا يبادلني الحب؟».

لم أملك جوابًا.. وضعتُ يدي حول عنقه وقلت: «مشكلتُه أنه لا يدرك مدى روعتك يا(فراني)، لأن هذا واضح للعيان، من السهل رؤية مدى روعتك.. ليس على المرء أن يطيل النظر حتى، لمحة واحدة تكفي لرؤية ذلك».

«ما الذي تفعلانه؟».. قالت (جيليان) بنبرة مشاكسة وهي تقترب نحونا.. «هل قاطعتكما وأنتما تتغازلان أم..».. توقفت عن الكلام حين رأت وجوهنا وعيوننا الدامعة.

«اللعنة، ما الأمر؟» قالت، ولم تنتظر جوابًا، بل أحاطتنا بذراعيها. تعانقنا ووجوهنا متلامسة دون أن نقول شيئًا، ودون أن نضطر لقول أي شيء.

•••

في تلك الليلة، حين كان (فراني) يستحم في الطابق العلوي، أخبرتُ والديّ عن انفعاله بشأن والده. أبي همهم بشتيمة، ودمعت عينا امي، فلقد شهدا مواقف كتلك سابقًا، إذ إن المسلسل الذي يظلّ والد (فراني) يعيدُه، مكوَّنٌ من حلقة واحدة متكررة من الأسى.

حين جلسنا لنتناول الطعام، كان واضحًا أن والداي يرغبان بإبعاد كرسيّيهما عن الطاولة والاندفاع لمعانقة (فراني)، لكنهما ضبطا تلك الرغبة إلى ما بعد تناول السلطة.. مدّت أمي ذراعها وضغطت على يد (فراني)، فنظر نحوي عارفًا أنني قد اخبرتهما، لكنه لم يبدُ غاضبًا، بل رسم على وجهه ابتسامة مزيفة.

«ما من داع للشفقة الجماعية يا رفاق،» قال بصوت متقطع. فنهض ابي ومشى حول الطاولة، وربّت على كتفيّ (فراني) قائلًا: «أنت شاب مذهل، لا يحق لأحد تحديد قيمتك سواك، وأنت مهم للغاية يا (فرانسيسكو)».

تساءلتُ إن كان ما قمتُ به صائبًا، وإن أزعج(فراني) كل ذلك الاهتمام، لكنه استدار في كرسيّه ودفن وجهه في حضن أبي وبدأ بالبكاء.

«لا بأس».. قال أبي وهو يضغط على كتف(فراني). «أنت شاب رائع.»

«أنت كذلك فعلًا،» قال أمي وهي تضغط بيدها على كتف(فراني) الآخر.. «كلنا نحبك، ولن نتوقف عن حبّك يومًا، صحيحٌ يا (جاك)؟».

أومأتُ بالإيجاب رغم أن(فراني) لا ينظر نحوي وقلت: «لا شيء صحيحٌ أكثر من هذا».

•••

كنتُ ما زلتُ متحفظًا حيال أمر المراهنات، ولحسن حظي، كنتُ أعرف شخصًا يعرف شخصًا يعرف.. فانتهى بي الأمر بسؤال والد(فراني). وكنتُ أعرف تلك وضاعة، وكنتُ لأتفهّم شعور(فراني) بالخيانة إن عرف أنني طعنتُه في ظهره والتقيتُ بعدوّه، لكنني أمِلتُ أنه سيقدّر مبرراتي.

ضحك والد(فراني) حين أخبرتُه بفكرتي وقال وهو يحكّ ذقنه كما لو أنه يبذل جهدًا هائلًا في التفكير: «دعني استوعب الأمر، تريدُني أن أرهَن بضعة آلاف الدولارات نيابةً عنك، لدى وكيل مراهنات سيُنهي حياتَينا إن لم نسدد الدين؟ وأنت تراهن على فريق لم يتأهل إلى البطولة الوطنية للرياضات الجامعية منذ كنتُ طفلًا يرتدي الحفاضات؟ وتريد فوقَها أن تراهن على أن هؤلاء الفاشلون سيفوزون في البطولة بأكملها؟ هؤلاء الذين لم يفوزوا مسبقًا في أية مباراة؟».

للصراحة، لم يكُن كلامُه مشجّعًا، لكنني أومأتُ بالإيجاب على كل حال.

«ولا يعرف والداك بشأن هذا، صحيح؟».

«لا،» أجبتُه.

«ولا(فراني)؟».

«لا».

«عندما تفشل هذه الخطة، ولا أقول «إذا» بل «عندما»، أنا من سيبدو أكبرَ وضيع في العالم، أليس كذلك؟».

أعدتُ عرض نسبةَ عشرة بالمئة من الربح، لكنه اكتفى بهزّ رأسه، وقال: «لا، لا، إنها نقودُك ورهانك. ولا أريد أن أخيّب ظنك، لكن لو كنتُ مكانك لما توقّعتُ أرباحًا».

«هل ستقوم بذلك إذًا؟ هل ستقوم بالرهان نيابةً عني؟».

«بعد كلّ ما فعلتَه من أجل ابني، لا أستطيع أن أحرمك من هذا، بقدرما هو أحمق.. لكن لا تأتِ باكيًا ونادمًا حين تصبح مفلسًا، اتفقنا؟ لن أكون قادرًا على الدفاع عنك لمجرّد أنك طفل».

«أشكرك، أشكرك، أشكرك».

«يبدو أنني أرغب بأن أقضي على نفسي». تمتم والد (فراني).

أو لعلني أنا من يرغب بالقضاء على نفسه بخيانة (فراني)، والتصرف بلطف مع «الكوبون». وغلبَني شعور مُلحّ لم استطع تجاهله، فما فائدة الفرصة الثانية (أو الثالثة) إن كنت سأفسد كل شيء؟ لا مع (كيت) فقط، بل مع (فراني)، فماذا لو غيّرت الصفقة التي عقدتُها مع والده مسارَ حياتِهم بأكمله؟ هل كان (فراني) و»الكوبون» ليعيشا بسعادة، وأنا من تسبب بالنفور بينهما؟ وماذا عن (جيليان)؟ ستصبح عالقة ما بيننا، وستشعر أنه عليها أن تختار طرفًا.. ماذا لو اختارته؟ ماذا إن خسرتها إلى الأبد؟ هل أنا مستعدّ لخسارة كل من أحبّ مقابل احتمال إنقاذ (كيت)؟

بينما كنتُ أنتظر أن تردّ (كيت) على رسالتي الإلكترونية، شاهدتُ نقاشًا على قناة «سبورتس نيتوورك» حول الفِرَق المضمون وصولها إلى البطولة، والفرق التي قد لا تفعل.. اختلَف المذيعون الرياضيون، وقال أكثرهم كلامًا إن أداء فريق جامعة «ماندريك» غير جيد، حيث قال رافعًا يديه: «لا أرى أنهم سينجحون في الوصول إلى البطولة. لقد لعبوا بشكل لا بأس به، وقاموا بما عليهم فعله للحصول على فرصة لدخول البطولة، لكن فرقًا أفضل منهم فعلَت الشيء ذاته».

ولم أكن لأعرف أن كانت مراهنتي على فريق «ماندريك» صائبة إلا بعد يومين، يوم الأحد المخصص للتصفيات، وكنتُ قلقًا، إلا أنني لم أجِد وسيلة أخرى لأساعد (كيت) بالطريقة التي تحتاجها وتستحقّها. وكانت هذه الوسيلة، بحسب التحليل الرياضي المذكور أعلاه، مهددة بعدم النجاح.. وما فائدة القدوم من المستقبل إن لم أغيّر شيئًا في الماضي؟

•••

«مرحبًا يا (جاكي)، ما الأمر يا عزيزي؟».

شيءٌ ما بشأن والد (فراني) يجعلني أظنّ أنه كان ذا شعبية في السبعينيات.

«اتّصلت لأتأكد من أن كل شيء يسير.. بحسب الاتفاق».

«المراهنة؟ نعم، كل شيء سار على ما يرام».

«حسنًا، هذا جيد».

«هل هذا كلُّ ما أردتَ معرفته؟».

«في الواقع..».

«نعم، أعطِني الطبق رقم ستة بدون خس أو مخلل، ومع مايونيز إضافيّ جانبي.. وأضِف بعض البطاطا المهروسة أيضًا».

«هل تسمعني؟».

«مهلًا يا (جاكي)، ماذا تقصد بأنكم ما عدتم تقدمون البطاطا المهروسة؟

ظننتها طبقًا يقدّم خلال اليوم كله، كنت متحمسًا من أجل.. حسنًا، مهما يكن، سآخذ فطيرة الكرز.. عذرًا يا (جاك)، ما الذي كنتَ تقوله؟».

«الأمر يخص (فراني)، (فرانسيسكو)».

«ماذا بشأنه؟».

«يرغب برؤيتك».

«يا لها من طريقة ليُعبّر عن ذلك».

«ماذا تقصد؟».

«لا يردّ على مكالماتي أو على رسائلي، وحين رأيتُه منذ مدة، تجنّبني ولم يُفسح لي مجالًا للكلام».

لم أستطع تصديق ما قاله، ألم يكن الأمر معكوسًا؟ ألم يكن «الكوبون» يتجنب (فراني)؟

«أنا متأكد من أنه يرغب.. أظنّه سعيدٌ لأنك.. قد عُدتَ».

همهمَ محاولًا أن يقتنع.

«أظن أنك لو حاولتَ مرة أخرى، وبذلتَ جهدك، فسيرى الأمر من منظور مختلف».

«أضِف بعض علب الصلصة الحارة أيضًا، وشوكة».

«ألو؟».

«سمعتُك يا (جاك)، سأفكّر في الأمر».

•••

تصفيات يوم الأحد

كنتُ متوترًا عند قدوم يوم الأحد، ولم استطع البقاء وحيدًا، لذا دعَوت (فراني) و(جيليان) إلى منزلي لنشاهد بطولة «مارش مادنس»، ونعرف الفررق التي ستختارها لجنة البطولة.

سخِر(فراني) من دعوتي قائلًا: «منذ متى أنت مهووس بكرة السلة؟».

فادّعيتُ أنني لم أفهم قصده، وقلت: «لطالما أحببتُ كرة السلة».

«أخبرني باسم فريق واحد غير أمريكيّ من رابطة كرة السلة العالمية»، قال (فراني) متحديًا.

قلتُ بلامبالاة: «عفوًا، أنا مهتم بالفرق الجامعية».

«حسنًا،» قال وتكتّف. «سمّ ثلاثة فرق جامعية إذًا».

«هذا سهل! «ذا بيغ تن»، «ذا ساذرن ويسترن» لا، مهلًا، «ذا ساذرن إيسترن»،

و.. «ذا بيغ ساذرن».

انفجر(فراني) ضاحكًا، وفكرتُ في أنه قد يفسد الأمر إن لم أُنهِ تمثيليّتي.

«لا يهم، ليس على أن أُثبت لك إعجابي بكرة السلة»، قلت.

فأجاب: «هذا صحيح، ليس لديك شيء لتثبته».

كنتُ أعرف أن أمي تحبّ كل ما يتعلق بالرياضة، لكنني تفاجأت لانضمام أبي إلينا في القبو، وبطُل عجبي حين أحضر معه الفشار والصودا وعلبة بسكويت.. تولّت أمي مؤخرًا مهمة تنبيه أبي للعناية بجسده بعدما بلغ منتصف عمره، لذا رحّب أبي بكل فرصة للتهرّب من الحمية التي فرضتها عليه أمي.

قال أبي مترددًا: «أشعر أنه ينقصنا شيء ما.. لقد عرفت! هل ترغبون بتناول البيتزا؟ عرفتُ بالصدفة أن مطعم «بيتزا زار»، يقدّم حاليًا تخفيضًا على نوع بيتزا فاخر».

«لقد أكلتُ مسبقًا، شكرًا يا سيد (كينغ)،» قالت (جيليان).

«تعرف أنني جاهز دائمًا لتناول الطعام»، قال (فراني) وهو يضطجع على حافة الأريكة».

«عظيم، أصبحنا اثنين.. (جاك)، يبدو أنك من سيحسم هذا الأمر.. أنت ابني المفضل في العالم.. بل أنت أحد الناس المفضلين في حياتي». نظر نحو أمي وأكمل: «بالإضافة إلى والدتك طبعًا».

كانت أمي قد استسلمت لحقيقة أن أحدًا ليس باستطاعته أن يغير أبي، وأن كل ما باستطاعتها فعله هو محاولة احتوائه.. رفعت يديها مستسلمة وقالت: «افعلوا ما شئتم، لكن فليكُن نصف البيتزا بالخضار».

«أو نصف النصف؟»، قال أبي بصوت رفيع، فرفعت أمي حاجبيها.. «لا، أنتِ محقة يا عزيزتي.. بإمكاننا أن نستمتع ونكون صحيّين في ذات الوقت».

ذهب أبي نحو الطابق العلوي ليطلب الطعام قبل أن يبدأ البرنامج.. شعرتُ بغثيان، ورغم أنني كنتُ جالسًا على الأرض ولا أقوم بأي نشاط جسدي مُجهِد، فقد كان قلبي ينبض بقوة شديدة، لم أكن خبيرًا في كيفية التعامل مع الرهانات.. عانينا نصف ساعة من النقاشات الرياضية قبل أن يبدأ إعلان النتائج.

«... وقد نجح فريق «ماندريك»، وقد كافأت اللجنة جولتَهم النهائية بخمس عشرة نقطة مبدئية..».

نهضتُ محتفلًا كالمجانين، ضاربًا الأشياء من حولي بصدري وقبضتيّ، على حائط القبو، ودعامة السقف وذراع الأريكة، لأن أحدًا لن يقبل بمصادمتي خوفًا من ارتجاج دماغي. لكنني لم أتمالك نفسي، فلعلّني سأنجح في النهاية.

...

الطبيب اللطيف

«قبلتُ أن ألتقي بك لأنني تلقّيت رسائلك النصيّة والإلكترونية واتّصالاتك المتكررة إلى المكتب والمخبر، وعليّ أن أقرّ بأنك قد حِزت على فضولي».

«والداي علّماني أن أكون مثابرًا».

«أنت أصغر مما تخيّلت».

«أنوي القيام بمساهمات كبيرة،» قلت لمجرد أنني لا أعرف ماذا أقول.

رمقني الطبيب (سوونمي) بنظرة من فوق نظاراته وقال: «كم عمرك؟ تسعة عشر عامًا؟ عشرون؟».

«ثمانية عشر عامًا، وليس هذا أمرًا مهمًا أيها الطبيب، فماذا كان عمرك حين قررتَ أنك ستعالج فقر الدم المنجلي؟ اثنان وثلاثون أو ثلاثة وثلاثون؟ كيف شعرتَ حين قام الناس بافتراضات مبنية على عمرك وحسب؟».

أعاد الطبيب (سوونمي) نظاراته قريبًا من عينيه ولم يقل شيئًا.

أكملتُ حديثي: «أنا هنا لأنني أؤمن بك، وبأبحاثك، وبممارستك للطب، ولأنني واقع في الحب».

تنحنح الطبيب، وارتخي في كرسي الجلد، ثم وضع يده قريبًا من فمه كما لو أنه يدخّن الغليون، لكنه لم يكن يحمل واحدًا، ولا أظنّه يدخّن التبغ. قال: «من الأفضل ألا تخلط الطب بالعاطفة».

«حسبما عرفت، فقد عانى أفرادٌ من عائلتك من فقر الدم المنجلي أيها الطبيب..».

«نعم».. أومأ بالإيجاب.. «ولهذا أعرف أنه ليس من الحكمة خلط الطب مع العاطفة، فلن ينتهي الأمر إلا بطريقة سيئة يا (جاك)».

«لكن أليس كلاهما مرتبطًا بالقلب أيها الطبيب؟».

ابتسم الطبيب (سوونمي) واسترخى، ولانَ وجهه كأنه يتناول حبوب الفطور المفضلة لديه أو يُعيد مشاهدة فيلمه المفضل.. «أخبرني كم عمرك مجددًا؟».

«ثمانية عشر عامًا،» قلتُ وأنا أبتسم بدوري.. «هل ذكرتُ أنني أملك النقود؟».

«ليس بإمكاني أن أعِد بشيء، مازال اختبار العلاج في المرحلة السريرية».

«أتفهّم ذلك».

«وأرغب بمقابلة المريضة أولًا، لتقييم صحّتها الحالية وتحاليلها، ومناقشة ما سيتضمّنه سَير العلاج، في حال كنا سنتابعه».

«بالطبع أيها الطبيب».. قلت وأنا أنهض وأصافح يده.. «أشكرك جزيل الشكر، أشكرك».

«لا أعِد بأي شيء»، كرر دون ابتسامة.

«صحيح»، أكّدت قائلًا: «لا وعود».

•••

حين خرجت من مكتب الطبيب، رنّ هاتفي فظننتُ أنها (كيت) وفكّرتُ في أنها تتصل في الوقت المناسب تمامًا، لكن لم تكن هي المتصلة.

«مرحبًا، هل نسيت؟».. سألني (فراني) بصوت مذعور.. «أرجوك أخبرني أنك لم تنسَ وأنك في طريقك إلى هنا».

«لم أنسَ، أنا قادم»، أكّدتُ له رغم أنني كنتُ قد فقدتُ إحساسي بالوقت.

«متى؟».

«قريبًا».

«قريبًا حقًا؟ هل أنت في طريقك إلى هنا؟».

«نعم، قريبًا حقًا».

«أخبرني أن كل شيء سيكون على ما يرام يا (جاك)».

«(فراني)»، قلتُ له بكل الأمل والإيمان الذين قدِرت على استحضارهما.. «كل شيء سيكون على ما يرام».

وأردتُ أن أصدق ذلك فعلًا.

مهلًا، ماذا؟!

كانت أعصاب (فراني) متوترة ومتداخلة أكثر من الأسلاك خلف تلفاز منزلي، لكنه بذل جهده ليُخفي ذلك. في الظروف العادية، (فراني) مثالُ الاسترخاء، فمثلًا، في مباراة آخر الموسم التي كان على فريقه أن يفوز بها، كان هادئًا ومتماسكًا، فأحرز في أرعًا وعشرين نقطة لفريقه، ونجح في إدخال هدف في آخر لحظة لتوّج نصره وتقدُّم فريقه في التصفيات.

لكن (فراني) الذي رأيتُه وقتها لم يكن متبسّمًا ولم يلقِ الدعابات واحدة تلو الأخرى.. في طريقا إلى المنزل في اليوم السابق، أصرّ على أن نتوقف ليقصّ شعره، أجبرَ (جيليان) على الوقوف وسط الزحام والسيارات التي تطلق أبواقها، حتى يقطع الشارع ويلحق بباص (رغم أن (جيليان) قالت إنها لا تمانع اصطحابه) للذهاب إلى منزل أحد أقربائه، والذي يعمل كحلاق.

الغريب في الأمر أن (فراني) لم يقصّ شعره منذ وقت طويل حتى صرنا ندعوه القادم من «بورتو ريكو» بحثًا عن حُبّه، لكن بدءًا من بعد ظُهر اليوم

السابق، أصبحت فروة رأسه حليقة ونظيفة ولامعةً، كأنه مدير تنفيذي يستعدّ لقيادة اجتماع مهم لمجلس الإدارة.

«ليس أمرًا عظيمًا»، قال عندما فتح لي باب منزله وانفغر فاهي وأنا أُشير إلى رأسه. «كان الوقت قد حان لحلاقته»، قال بطريقة توحي بأنه لا يرغب بمتابعة الحديث عن الأمر.

ثم صار يمشي جيئة وذهابًا مدّعيًا أنه يتمرّن، وكأن المشي في البهو الضيق هو جزء من تحضيره للعبة مهمة.

«(فراني)، ستكون الأمور على ما يرام يا رجل،» قلتُ للمرة الألف ذلك اليوم.

«لمَ قد لا تكون على ما يرام؟»، مشى نحو المطبخ، ولم أتزحزح من مكاني على أريكة غرفة المعيشة.. «عليّ التأكّد من اللحم لن يحترق وإلا فستبرحني جدتي ضربًا».

«أنا من سيبرحك ضربًا إن احترق»، صِحت.

«طبعًا»، قال ضاحكًا.

سمعنا قفل الباب الأمامي ينفتح، فاندفع (فراني) نحوي من المطبخ وعيناه متسعتان وقال: «مهلًا، ماذا أفعل؟» قالها لي، وللغرفة، ولِلا أحد.. «ماذا أفعل؟».

«ليس عليك أن تفعل أي شيء يا (فراني)، الأمر على عاتقه، لا على عاتقك».

وقفنا هناك، وانتظرنا أن يُفتح الباب أو أن تنشقّ الأرض.

«(فرانسيسكو)»، قال والد (فراني) بصوت عريض. دخل «الكوبون» نحو المنزل، ووقفت الجدة بصمت إلى جانبه.. لم يتحرك (فراني)، ولم أعرف إن كان قد تجمّد في مكانه أم أنه اختار الوقوف هناك. لكن والده أسرع في مشيته واحتضن (فراني) بذراعيه، وبديَا مشابهين لبعضهما.

«ظننتَ أنك لن تراني مجددًا، أليس كذلك؟».

قال (فراني) متململًا من السؤال ومُبعدًا ذراعي والده عن كتفيه: «لم أفكر بالأمر من قبل».

تفحّص عينيّ (فراني) كما يفعل أبي حين يريد أن يقول أمرًا هامًا ويرغب بالتأكد من أنني مُنصت، ثم قال: «لقد عِدتُ الآن يا بني، إلى الأبد هذه المرة».

ضحك (فراني) وقال: «وهل تريد ميدالية لأنك باقٍ؟» استدار ليواجه جدته وقبّلها على خدها. «الطعام جاهز». ودخل إلى المطبخ.

نظر والد (فراني) نحوي وكأنه أدرك وجودي للتو، وبدا على وجهه التفاجؤ أو لعله كان الإحراج، لكنه أجبر نفسه على الابتسام، ورأيتُ في وجهه ملامح من وجه (فراني)، شفتاه البنيتان الفاتحتان وأنفه الرفيع، والذقن البيضوي ذاته، إلا أن عينا (فراني) تضيئان أكثر.

تساءلتُ إن كان سيَشي بي إلى (فراني) ليقول له أنني خنتُه وتواصلتُ مع والده من أجل عمل.

«يا للمفاجأة! (جاك) هنا.. حين رأيتك آخر مرة كنت بهذا الطول، لكن انظر كم كبرت الآن». قال وهو يمد يده بأصابع مستديرة كما لو أنه يستعمل الفأس ليكسب لقمة عيشه.. «لقد مضى وقت طويل يا (جاك)».

«وقت طويل»، ردّدتُ.. «كيف جرى الأمر؟» سألتُه لغبائي.

«ما هو؟ السجن؟ كان مريعًا، أسدِ لنفسك معروفًا ولا تتسبب بسجن نفسك».

«حسنًا»، قلتُ وأنا أضع يدي في جيبيّ. «سأحاول ذلك».

«هل ما زلت تكتب الشعر؟».

«لا، صرتُ مهتمًا بالنثر أكثر».

«النثر، جميل»، قال.

وقعَت مقلاةٌ أرضًا في المطبخ، ثم أخرى.

أشارت الجدة نحو البهو وقالت: «اذهب واستحم يا عزيزي، لقد غسلتُ بعض الثياب وتركتها على سريرك.. سنذهب أنا و(جاك) إلى المطبخ قبل أن يحرق ابنك منزلي».

«حسنًا يا أمي»، قال وانحنى ليقبّل جبينها.. «كنتُ أحلم آخر أسبوعين بطبق اللحم الذي تصنعينه، لا تعرفين كم سيُسعدني أن أتناوله أخيرًا».. صفَر صفيرًا خافتًا وهو يجتاز البهو.

•••

لم يكن والد (فراني) يبالغ، فقد التهم طبق اللحم، وسكب آخر، مما أسعَد الجدة التي تبتهج عندما يحب الناس طعامها.. بينما بالكاد أكل(فراني) من طبقه.

«هل شاهدتَ مباراة بطولة الولاية منذ عدة أيام يا (فرانسيسكو)؟ كانت عودة مذهلة، صحيح؟ كان ذلك الفريق خاسرًا لا محالة، ثم بقدرة إلهية نجحوا».

«لم أشاهدها».. قال كاذبًا، فهو لم يتوقف عن الكلام عن تلك المباراة.

«سيُعاد بثّها على قناة «إس بي إن كلاسيك»، كانت مباراة رائعة لهذه الدرجة».. قال والد (فراني) وهو يسترخي في كرسيه، ووجهه متحمس: «راهنتُ على تلك اللعبة في الشوط الأول، عندما كانوا خاسرين بمقدار عشرين نقطة.. لا تسألني كيف عرفت، شعرتُ أن اللعبة لم تنتهِ وحسب، كان حدسًا عميقًا،» عصر والدُ (فراني) معدته ليشدّد على مدى عمق شعوره بحدسه.

«(فرانسيسكو)، تعرف أنني لا أحبذ المراهنات»، قالت الجدة.

«كانت مجرد عشرين دولارًا يا أمي، لم يكن بالأمر المهم».

«العشرون دولارًا ليست غير مهمة»، قالت.

ابتسم والد (فراني) ابتسامة عريضة وقال: «حين كنتُ في السجن، اضطررتُ لفعل أشياء لقضاء الوقت، والقليل من المراهنة تجعل الحياة مشوقة، هذا كل ما في الأمر».

«لقد خرجتَ من السجن، وكل هذا أصبح ماضيًا».

«نعم يا أمي»، قال وانحنى ليقبّلها على خدها. «أخبرتني أمي أنكما تستعدان من أجل حفل التخرج».

لم يكلّف (فراني) نفسه عناء النظر للأعلى، وساد صمتٌ ثقيل اضطرّني لأقول بصوت خافت: «نعم».

«قابلت والدتك في حفل التخرج، هل ذكرتُ ذلك؟ كانت قد أتت مع فتى آخر من مدرستها كما أتيت أنا مع فتاة أخرى، لكن عندما رأيتها...»، توقف للحظات يحدّق على الحائط كما لو أن الذكرى تُعرضُ على الحائط، وقال مبتسمًا: «عندما رأيتُها علمتُ أنها مقدّرة لي.. ماذا عنك يا رجل؟ هل ستذهبُ مع فتاة؟.»

لم يجب (فراني).. «هيا يا رجل».

«هيا ماذا،» قال والده «إلى أين نحن ذاهبون؟».

«لا تتظاهر بأنك مهتم».

«أنا لا أتظاهر بأي شيء».

«لنأكل فحسب، حسنًا؟»

«يجب أن تأتي إلى إحدى مباريات فرانسيسكو. هو سيأخذهم إلى النهائيات وبالطبع سيفوزون».. تدخلت الجدة قائلة: «دائما ما يُسأل فرانسيسكو عن مهاراته، وأين حصل عليها. ما لا يعلمونه أنني كنتُ راقصة في وقت ما وهذا يساعد في لعب الكرة».

صفّقتُ معلنًا موافقتي، ملاحظًا عدم ارتياح (فراني) عندها قهقه «الكوبون».

دفع (فراني) بكرسيّه بعيدًا، جاعلًا أقدامها تحتكّ بشمعية الأرض وقال: «استاذنكم جميعًا.»

«لكن لديّ فطيرة في البراد مع بعض المثلجات، صنعتها هذا الصباح.»

«فقدت شهيتي.»

«والدك وصل توًا، يجب أن..».. قال الجدة.

«أمي»، قاطعها والد (فراني) «قال الفتى أنه ليس جائع، ليس هناك أي داعٍ

لجعله يبقى». وغمز (فراني) مما جعله ينظر بعيدًا.

«حسنًا» تنهدت الجدة وقالت: «لكن أنهي وظائفك، يا فرانسيسكو.. تأكد من أن تفعل.»

أمسك بيدها (فراني) وقال: «أعدك»، منظفًا طبقهُ ورمقني بنظرة ليشير لي أنه علينا أن نذهب.

«شكرًا على الغداء يا جدتي.. كان لذيذًا كالعادة».. قرصت الجدة خدّي «على الرحب، يا (جاك). أنت من العائلة الآن.»

•••

لبقية ذاك المساء لم يكن (فراني) بمزاجٍ جيدٍ للكلام، ولهذا حاولتُ أن ألتزم الصمت، رغم أن هناك الكثير لأتحدث عنه.. كان صوت والده يدوي من آخر الرواق وكانت الجدة تضحك بطريقة لم أسمعها تضحك بها من قبل. كما لو أن ضحكتها كانت محبوسة لسنوات.. سعادتها جعلتني سعيدًا أيضًا، ولكن كلما عَلَت ضحكاتها، كلما أصبح (فراني) أكثر هدوءًا.

«يجب أن نبقى في منزل لهذه الليلة».. قال (فراني).

«لا أمانع هذا إن كان ما تُريدُه».

«هذا ما أُريدُه.»

«حسنًا».. أجبتُ.

«حسنًا».. كَرّر.

غرفة (فراني) مزيج من الأشياء المريحة مثل الكرسي الذي أجلسُ عليه دومًا منذ تعارفنا وملصقات لفرق لم يعد يستمع إليها بعد الآن.. رفوفه تثقل بكومةٍ من القصص المصورة مع آخر نسخة من مجلة «بلاك بانثر» أعلاها.. كان جالسًا على مكتبه بجانب ما ندعوه الحزمة. باستطاعتك أن تشعر بالحزمة تقول بيأس «انظُر إليّ، أرجوك افتحني!»

الكثير من المدارس مستعدة لتفتح له أبوابها والغريب هو أنه يرفض ويريد أن يبقى أبعد بأربعين ميل، معنا أنا و(جيليان).

ولكن هو مستعدّ للبقاء في مدرستنا لأنه لا يريد أن يكون بعيدًا عن (جيليان) وعني. بالطبع هو لن يقول هذا أبدًا إلا أنّه شيءٌ معلوم.. حاولنا أنا و(جيليان) أن ندفعه لفعل ما هو صحيح ولكنه دومًا ما يرفض قائلًا «أعلم ما هو الأفضل لي، يا رجل، ثق بي».

رآني (فراني) أحدق بالحزمة، عندها ابتسمَ أول ابتسامه له ذاك المساء.

«كم زادوا منذ الأسبوع الذي مضى؟.»

«نصف دزينة ربما، ولكن لا رد من «ويتير» الغالية».. قال.

هززت كتفي وقلت: «إن كانوا أغبياء بما فيه الكفاية لعدم قبولك إذا ربما يجب ألا أذهب أيضا.»

«أنت مجنون، يا بني».. قال مع ابتسامة كبيرة «هل قلت لك ذلك اليوم أي مجنون أنت؟ كانت والدتك لتبرحك ضربًا في البداية، ثم يحين دوري بعدك».

«ربما» اعترفتُ ضاحكًا.

«لا ربما هنا، إنها حقيقة».

«من لا يريد (فرانسيسكو هوغان) في مدرسته؟ من قد لا يريد (فرانسيسكو هوغان)؟»

«أقول لك هذا، يا رجل» هز (فراني) برأسهِ، محدّقا باتجّاه المطبخ «إما أن تريدني أو لا، ولكنني لا أريد أي شيء لا يريدني أيضًا.»

•••

جيليان: كيف جرى الأمر؟ هو لا يرد على رسائلي أو اتصالاتي.

أنا: ليس جيدًا، إنه هادئ.

جيليان: هل فات الأوان لآتي؟

أنا: أبدًا.

•••

بعد عشرين دقيقة، (جيليان) هبطت أسفل أدراج الدور السفلي.

«مرحبًا، يا فتيان».. قالت.

نظر (فراني) إليها ثم إلى «كنتما تتراسلان في الخفاء؟.»

ذهبت (جيليان) لجانبه وقبّلت رأسهُ عندها نظر إليها (فراني) بعينيه البنية الواسعة مستعدًا لأي شيء تعطيه إياه.

«عزيزي» هي هَمَسَت وجلست على الأريكة بجانبه واضعةً رأسَهُ في حضنها وهو لا يُقاوم «عزيزي» كرّرت، وأنا لا استطيع أن أقول لك ما نشاهدُه، نحن فقط جلسنا هناك لساعات، وفي وقتٍ ما رفعتُ من الصّوت لأن هناك شيء بداخلي، جزءٌ منّي كان يعلم أن (فراني) لا يُريدُني أن أسمع بُكَاءَه.

موسيقى «مايتي موت».. الساحرة.

كانت حفلة «مايتي موت»، أفضل في المرة الثانية، والسبب واضح جدًا، فقد استمتع كل من (كيت)، (جيليان) وحتى (فراني) بوقتهم.

«هل أنا الوحيد الذي يشعر بأن الفرقة تعزف لنا فقط؟».. صرخ (فراني).

«لست الوحيد» صِحت مُجيبًا.

بعد العرض (كيت) أخذتني بيدي وقادتنا إلى الكواليس، وكان الأمر كأن الجميع يعرفها؛ لأن الجميع يتوقف عن عمله فقط ليرحّب بها. ولكن للصراحة أنا متأكد بأنها لا تعرف أي من هؤلاء الأشخاص، لكنها كانت ساحرةً ومن المستحيل ألا تجذب الانتباه.

توقفنا عند بابٍ أحمر مغطّى بنموذج لعصاة سحرية سوداء اللون بعدها (كيت) قرعت الباب وشخصٌ أجاب «ادخُل».. ودخلنا. ورأينا أعضاء فرقة «مايتي موت» بشحمهم ولحمهم!

«كيتي!» قال عازف الغيتار ملحّنًا. «تعالي هنا». نظر (فراني) و(جيليان) إلى باستغراب «هذا حقيقي، صحيح؟».. سأل «هل هذا حقيقي؟».

«هل تريدون بعض الشمبانيا؟».. صرخ المُغني الرّئيسي، ثم اندفعت فلينة صغيرة عبر الغرفة وبعدها العديد من الفلينات الأخرى حتى بدأت الفرقة كلّها بِرَش الجّميع بحمّام من الشمبانيا.

صرخ.. بحماس، وغطى عينيه، واندفع نحو ساحة حرب الشامبانيا.

«ما الذي تنتظرينه؟» قلتُ لـ(جيليان).

ولكنها كانت بالفعل قد انضمت للجميع، بشعرها الذي بلله المشروب.. أمسكتُ بيد (كيت) وسحبتها إلى وسط الغرفة ضاحكًا.

«يجب أن نأخذ صورة قبل أن نذهب»، قالت (كيت) لعازف الجيتار.

«قولوا «لنعش للأبد»، دندن المغني الرئيسي بينما اجتمعنا لأخذ الصورة.

احتشدنا حول قارورة عصير التفاح عندما عُدنا إلى السيّارة «الشرب عند القيادة ليس جيدًا، وكيرا قد تقتلني إن جعلتُ أُختها الصغير تثمل».

نبّهنا عازف الجيتار «خُذوا هذه»..

قال عندما أعطانا قنينة شمبانيا زائفة.

«نخبُ كيت»، قال (فراني) رافعًا كأس العصير «بكل بساطة، نخبُ أفضل ليلة في شبابنا.»

«والكثير الكثير بعدها»، أضافت (جيليان).

«نخبكم جميعًا،» قلت وأنا أرفع كأسي.

هزّت (كيت) برأسِها وكأنّها خجلة من كل الانتباه الموجّه إليها وعندما نظرت إلينا، كانت أصابعها تُغطي وجهها ولكن ليس بما فيه الكفاية لحجب ابتسامتها العريضة، وقالت: «أنتم أروع من هذا الحفل، أتعلمون ذلك؟».

ابتسمَت (جيليان).. في تلك اللحظة، كان بإمكاني أن أرى أننا بالتأكد سنبقى أصدقاء بعد ثلاثة عقود، حتى بعد أن نصبح محاميين ودكاترة مشغولين

ومتطوعين في مدارس أولادنا (كيت) كل الشّك اختفى وطرد للأبد.
غطى (فراني) كأسه بيده وهزّها مما أخافني فقلت: «لا تفعلها، يا رجل» ولكن (فراني) تجاهلني.

•••

ودّعْنا (جيليان) و(فراني)، وتسللنا إلى المطبخ وبعدها القبو.. شغّلت التلفاز واستلقينا جنبًا لجنب على الأريكة، وكان الأمر مربكًا قليلًا لأنه لم يكن هناك متسعًا إلا لشخص واحد، لكن الإرادة تصنع المستحيل.
«..، على أن أخبرك بشيء».
وكانت تلك اللحظة المنتظرة.
«أحيانًا... أنا..»، بدأت بالكلام ثم توقفت.
«لا بأس يا (كيت)».
«أحيانًا أصبحُ مريضة.. مريضةً جدًّا».
نظرت إليها لأعطيها كامل انتباهي وأطفأت التلفاز: «كيف ذلك؟ ما الذي تقصدينه؟.»
«ولدتُ مع فقر الدم المنجليّ، كلا والدي يتمتعان بهذا المرض، هل سمعت به من قبل؟».
«قرأت القليل عنه من قبل ولكنني غير متأكد إن كنتُ أفهم الأمر كليًّا».
«المختصر هو أن الكريات الحمراء في دمي تتصلّب مما يعني أنها تحدّ من نقل الأكسجين لأجزاء جسمي.. الكريات الحمراء عند معظم الناس تبقى لبضعة أشهُر ولكن مع فقر الدم المنجلي، هي تدوم لأسابيع معدودة فقط لهذا مخزون الأكسجين لدينا لا يستطيع أن يتماشى معه. تمر أيام، أسابيع، وأحيانًا حتى أشهر حيثُ أكون فيها ضعيفة».
«وهل هذا يؤلم؟.»
«أعتقد بأنني استطيع تحمّل الألم، ولكن بلى، إنه يؤلم كثيرًا».
«أنا حقّا آسف».
وضعت (كيت) إصبعها على شفتيّ وقالت: «لم أقُل لك هذا لتعتذر.. لا أريد شفقتك أو شفقة أي شخص آخر. أنا فقط... أريدك أن تعلم لأنني ولسببٍ ما أشعر بأنني أريد أن أخبرك بكل شيء. أريدك أن تعلم كل شيءٍ عنّي، هل هذا غريب؟».. ابتعدَت قليلة كي ترى وجهي وقالت: «هذا مخيف، أليس كذلك؟ لم أقصده بهذا الشكل...»، هنا حان دوري لأضع إصبعي على شفتيها.. وبدَا أن ذلك أصبح هوايتنا المفضلة الجديدة، أن نضع أصابعنا على شفاه بعضنا لنُعلم بعضنا

بأنّنا هُنا وبأمانٍ معًا.
«إنه ليس غريبًا أبدًا، يا.. إنهُ جميل، حقًا جميل وأنا أشعرُ بالمثل، أُريدك أن تعلمي كلّ شيء».
نظرتُ إلى عينيها، لأنني أريدها أن تتأكد من أنّ هذا حقيقي، بأننا حقيقيون قبل أن أُبدّل إصبعي بشفتيّ.
ليس وكأنّهُ يهم.
لا شيء يُهم.
كيف لأي شيء أن يكون مهمًا؟
«أنا حقًا معجبٌ بك، يا..»، قلتُ لأنني خائف من أن أقول الشي الآخر، الأقوى.
«لا أُريدك بأن تُعجب بي وحسب، وفّر إعجاباتك لمواقع التواصل الاجتماعي.. أريدك أنت، يا ...» هَمَست في أذني، وصوتُها يُسافر عبرها إلى دماغي وصدري.. وانفصلتُ فجأة عن محيطي بأكمله، وما عاد بوسعي إلا أن استوعب أمرًا واحد فقط، أنني أريدها أكثر من أي شيء آخر.
إذًا الأرض تدور حول الشمس، أليس كذلك؟ سيكون الأمر غريبًا لو أصبح بالعكس، وكأن الشمس أصبحت ترتكز على الأرض (كيت) إلا أن هذا ما يحدث عندما تحبّ شخصًا.. أنت تمضي في حياتك، تفعلُ أشياء وتنظّم بين أولويّاتك ومهامك (كيت) وفجأة تقابله هو وتقع تمامًا خارج مسارك، الذي كنت تدور به والآن أن تلفّ في هذا العالم الجديد متمنيًا بأن تتحملك الجاذبية، ولكن لا يوجد أي طريقة لتعلم ذلك إلا إذا لم تتحملك.. أعتقد بأنّها كلّها دورة القدر.
أولًا هي لم تكن تعلم بأنني مهتم بكرة السلة، وثانيًا ليس لدينا أي صلة بفريق جامعة «ماندريك».. ضربت كفّي وقالت «كانت رائعة جدًّا».
وعندها رنّ هاتفي.
والد فراني: كيف علمت؟
أنا: ماذا؟
والد فراني: علمت بأنهم سيفوزون.
أنا: كانت أطول مدة قط وأنا فقط فكرت بلم لا هم من سيفوزون؟
والد فراني: أنا لا أصدق هذا، ولكنه لا يهم. مباركٌ لك! الآن أصبحت ثريّا، يا فتى.. لنأمل بألّا تموت قبل أن تحصُل على جائزتك.
أنا (لخمس دقائق من دون رد...).
أنا (بعد خمس دقائق): هل الموت هو ما يجب أن نقلق منه هنا؟
والد فراني: ليس نحن.. سأراسلك بوقت ومكان لنلتقي به غدًا.
أنا: أنت تمزح، أليس كذلك؟ عن فكرة الموت.

أقصد أنا أعلم بأنك تمزح ولكن أريد تأكيد لأنني جديد لأمر المقامرة و...
ولكنني لا أضغط على زر الإرسال لأنني لا أريد أن يظن بأنني غبي مع أن أفكارًا غبية تراودني الآن..
بالطبع هو يمزح، صحيح؟ لن أنام لأتأكد فقط.

•••

المكان: مكتبة «إليتاون» العامة.
الوقت: الرابعة مساء.
ركنتُ سيّارة أُمّي وذهبت إلى الداخل.
أتى والد (فراني) متأخرًا بعشرِ دقائق وبدا سعيدًا جدّا أو ربما هو يتظاهر بذلك؛ لأن الأشخاص الذين يخطّطون لقتلي نبهوه بألّا يرشدني إلى الخطر الذي أنا به الآن(كيت) «اكسب وقته، والد قراني» هم قالوا «بينما نحن نضع بندقية القنص بين رفوف الكُتُب».
«مرحبًا».. قلتُ واقفًا عندما وصل إلى الطاولة.
«مرحبًا، يا قاتل» أجاب وقذف بحقيبة نحوي «لو كنتُ أنت لكنتُ خبّأت هذه في مكانٍ ما على الفور.»
«حسنًا».. قلتُ وأنا متفاجئ من خفّة المئتيّ ألف دولار.
«عدّها في الحمام إن أردت، سأنتظرك».
«أثق بك.. هل أخذت مبلغك بعد؟».
ابتسم بطريقةٍ ذكّرتني بـ (فراني) «قلتُ لك بأنّ هذا مالُك».
«حسنًا، شكرًا لك»، أجبتُ «آمل بأنّها لم تكُن بمُشكلة».
«جمع مئتي ألف دولار؟ مشكلة؟ لا» قال مع تلويحةٍ بيده مما جعلني حائرًا، إن كان يقصد ذلك أو هو فقط يتهكّم ولكنني مقتنعٌ بأنه جاد لأن هناك شيء في والد (فراني) يجعلني أعتقد بأنه قد مشى مع أكثر من مئتي ألف دولار من قبل «إذًا إلى أين الآن؟.»
«ماذا تقصُد؟.»
«لنحتفل، يا رجل. الشراب على حسابك.»
«حسنًا».
وكأنّه أبرم صفقة الآن، صفّق بيديه «اسمع، يجب أن نخبّئ المال أولًا.. اخرُج مع هذه الكمية من المال وتأكّد بأنك ستقتل لا مُحال».
ذهب والد (فراني) إلى البار بينما أوصلتُ المال إلى منزلي.. أنا مرتبك أكثر مما توقعتُ، القيادة مع كومة من المال معي تجعلني أفكر بماذا إذا أوقفني

أحد؟ ماذا لو بحثوا عن سيارتي؟ ماذا لو(كيت).

التزمتُ بكل إشارات الطّريق: السّرعة، إشارات التوقّف، **. أعلنت عن انعطافاتي بوقتٍ أبكر ووصلتُ إلى المنزل من دون حادث. بعد جولة عبر غرفتي، لاحظت بأن ليس لدي أدنى فكرة عن أين سأُخفي صندوق المال.. هذه أو تجربة لي مع حقيبة مليئة بالمال.

«أنت لن تفهم، يا رجل».. قال والد (فراني).

«لمَ لا؟».

«عندما تنظُر إلى والدك، ما الذي تراه؟ رجل قوي، صحيح؟ شخص لتتطلع إليه.. شخص تحترمُه حتى عندما يفعل شيء يُفقدك أعصابك، أنت تُحبّه.. هذا ليس بسؤال، أليس كذلك؟.»

أنا لم أَكُن متأكد إن كان عليّ الإجابة إلا أنت أمال برأسه وكأنّ يقول لي، «إذًا؟».

«أنا ووالدي مقربين، أجل.»

«فرانسيسكو لا يرى أي من هذا بي.. معظم الأيام هو لا ينظر إلى حتّى ولم قد يفعل ذلك؟ ما الذي أستطيع أن أعطيه إياه؟ ليس لدي أي شيء يحتاجُه».

«هو لم يُرد المال قط، سيدي، هو(كيت).»

لوّح والد (فراني) بيده، شرابه يهتز، ولكن لم ينسكب «توقف عن هراء «سيدي» ذلك»

«آسف» أجبت.

«لا بأس، أكمل».

«ما كنتُ أقوله هو أن فراني لم يرد أي شيء، هو فقط أرادك أنت وهذا ما يجب أن تعطيه إياه. هو يريد شيًا واحد منك وهو أنت.»

رفع والد (فراني) بكأسه، وانتظرني لأفعل المثل وعندها طرقنا كؤوسنا ببعضها وابتلعناها، أو هو ابتلعها بينما أنا شربتها بثلاث أو أربع جرعات صغيرة.

«أنا لست بالنّوع الذي يخاف، أتعلم؟» أكملَ وهو يشير للنادل بأن يحضر لنا جولة أخرى من الشراب وعندها أنا حاولت أن أومئ له بألّا يفعل ولكنّه كان بالفعل قد عبّا الكؤوس»؛ حيثُ كبرت، إن كنت تخاف من أي شيء فأنتَ ستتحطم ولكن هل تريد أن تعلم شيء؟ الحقيقة، جاك؟ أنا خائف، يا رجل.. أنا خائف من أن الأوان قد فات. فشلي ليسَ بسر ولم يكن في حياتي فقط بل أثر عليه أيضًا وأنا أعلم هذا ولكنني لا أريد أن أترك الأشياء على حالها ثم أنني لا استطيع أن أصلحها إلا أن بإمكاني أن أتأكد بأن لا شيء سيتكرر مجددًا.. أنا هنا الآن واستطيع أن أؤكد بأنني سأبقى».

«يجب أن يتأكد هو أنك ستبقى في الأرجاء».

هزّ والد فراني برأسه، «أنا سأكون هناك، سترى».

دخلت إلى غرفتي بدون أن يلحظني أحد مما أعطى حالتي الثملة حس بالارتياح وما زادها هو رؤية حقيبة المال أسفل سريري بعد أن تحققت منها.. وكل شيء بخير (ألم معدتي ورأسي ليس بالكثير) لأن غدًا والد (فراني) سيأتي إلى المباراة هذه المرة، ليس وكأن كل المرّات التي لم يكن هناك فيها ستُنسى بكل بساطة ولكنها ستكون البداية.. كل شيء، جيد أو سيئ، يبدأ في وقتٍ ما.

بينما عقلي يعذّبني بأسئلة عن (فراني) والمال الذي أنام فوقَهُ الآن و»كم سيغضب فراني إذا علم بأنني أعمل مع والده من دون إخباره؟».

هل سيتفهم بأن نواياي حسنة؟ بأنني أحاول إنقاذ (كيت)؟

هل سيهتم (فراني) لمحاولتي بإصلاح علاقته مع والده فس الوقت الذي قضيته معه؟

غطيت في النوم من دون إجابات ولكن مع فكرة تركُض في عقلي بسرعة مسابق في الأولومبياد (كيت).

والد (فراني) سيكون هناك.

•••

الكاذب

إلا أنه لم يأتِ، لا حين بدأت مباراة (فراني) المهمة، ولا بين الشوطين، ولا عندما انتهَت. عندما أعلنت الصافرة نهاية المباراة، وتمّت هزيمة فريق مدرستنا، ركضنا أنا و(جيليان) نحو الملعب لنُحيط (فراني) بدائرة محبة ودعم غير مشروطَين، ورغم أنه ابتسم، كان من الواضح أنه غير مهتم.. لم بدُ على (فراني) أنه متضايق لخسارة فريقه، مع أن روح التنافس لديه أعلى من أي شخص أعرفه، كان متضايقًا لسبب آخر. فالشخص الذي أراده أن يحضر، لم يأتِ.

حاولت الجدة أن تخلق له أعذارًا وقالت: «(فراني)، أبوك أراد أن..».

«إنه والدي، وليس أبي»، قال (فراني) مصحّحًا.

أمسكت الجدة بيده وقالت: «اسمع يا بنيّ، من الأفضل أن نسامح، ليس باستطاعتك أن تكرهه إلى الأبد، أتفهّم أنك..».

قاطعها (فراني) قائلًا: «أنت من عليه أن يسامحه يا جدتي، لأنه ابنك أنتِ. من المفترض أن تدعميه، وأتفهّم أنه ليس بإمكانك أن تتجاهلي وجوده، لكنني ابنه، وعليه أن يدعمني، وأن يحضر عندما أحتاجه، هو لا يريد أن أسامحه، وعليه أن يعتذر».

«اسمع يا بنيّ..».

«أنا آسف، أحبك أكثر من أي شخص. أنت الأمر الوحيد الجيد الذي بدَر عنه، لكن حاليًا، ليس باستطاعتي أن أبقى، حسنًا؟ أنا آسف، سأتصل بك».

أومأت الجدة وعيناها دامعتان: «أنت أيضًا الأمر الوحيد الجيد الذي بدَر عنه».

اقترب (فراني) منها بجسده الذي يعادل ضعف حجم جسدها وعانقها حتى اختفى جسدها.. قبّل خصلات شعرها التي غزاها الشيب وضمّها بشدة قبل أن يتركها.. «ستكونين بخير حين تعودين للمنزل؟».

أومأت الجدة بالإيجاب وقالت: «اقضِ وقتًا ممتعًا يا (فرانسيسكو).. استمتع مع أصدقائك».

أومأ وقال: «ابعثي لي رسالةً حين تصلين إلى المنزل، اتفقنا؟».

«تعرف أن أحدًا لا يستطيع العبث مع جدتك»، قالت مبتسمة.

«من الأفضل ألا يفعلوا»، قال وهو يرفع قبضته أمامه.

نظر نحوي ونحو (جيليان) وقال: «هل أنتما مستعدان يا رفاق؟».

«فلنذهب»، قالت(جيليان).

«إلى أين؟»، سألتُ.

نظر (فراني) نحو الملعب مرة أخيرة وقال: «إلى أي مكان غير هذا».

بعد أن أخذنا زجاجتي نبيذ من مخزون والدة (جيليان)، قادت (جيليان) السيارة بنا إلى كوخ جدّيها الصيفي، بالقرب من بحيرة «إري». كانت رائحته عفنة وكانت الكهرباء مقطوعة؛ لأن جدّيها ما كانا سيعودان إليه إلا بعد عدة أسابيع. لكن التسكّع هناك سوية بدا أمرًا لطيفًا.

أضاءت (جيليان) و(كيت) شموعًا حولنا، وشغّلتُ الموسيقى على هاتفي وتراقصَت ظلالنا على الجدران.. ورغم أن (فراني) كان حزينًا وغاضبًا، فقد نهض عن الأريكة وانضمّ إلينا في جلستنا الروحانية.

اتكأ على يديه وقال: «دعوني أُريكم كيف يجب أن تجلسوا».. وكان محقًا.

جلسنا في الشرفة الخلفية، ورغم الظلام الحالك الذي منعَنا من رؤية البحيرة، فقد كان بإمكاننا سماع المياه تهدر وتتضارب تحتنا.

«لايزال لدينا فرصة في البطولة»، قلتُ حين ساد الصمت.

«هل هذا مجرد عزاء؟».. قال (فراني). «الفرص قليلة».

«لكنها موجودة».

سحب (فراني) ورقة من جيبه وقال: «أظنك محق. إن تحقق هذا، فقد يتحقق أي شيء».

«ما هو؟».. سألَت (جيليان).

«انظري بنفسك».. قال (فراني)، فأخذَت الورقة من يده واستخدمَت هاتفها ليُضيء الرسالة. «يا إلهي».. همسَت وهزّت الورقة كأنها تحترق.

«ما الأمر؟».. سألتُ.

«ماذا؟» قالت (كيت).

«لقد تم قبولك،» قالت (جيليان) وهي تقفز في مكانها. «لقد فعلتَها يا (فراني)!»

«تم قبوله في ماذا؟» سألَت (كيت).

لم أكن بحاجة الرسالة لأعرف ما جرى.

«»ويتير»، قال (فراني).. «سأكون معكم يا رفاق!».

«هذا رائع»، قالت (كيت) بحماس وشاركَت (فراني) و(جيليان) في احتفالهما.

«أصدقاء إلى الأبد»، قلتُ بصوت مبتذل، لكنني كنتُ أعني ذلك.

«لا أعرف إن كنتم تشعرون بالمثل يا رفاق، لكن النبيذ بدأ يعصر مثانتي مثل ليمونة»، قلتُ وأنا أخرج من الغرفة.

«لدى (جاك) طريقة راقية للغاية في التعبير عن رغبته بالتبول،» قال (فراني) لـ(كيت).. «إنه فتى رائع، لكنه مغفل قليلًا».

«لستُ مغفلًا»، صِحت.

«لا تلوّث المرحاض يا روميو»، قال مناديًا.

«لا أستطيع أن أعِدك».

وضعتُ يدي على الجدار مستندًا عليه، ولم أعرف إن كان إحساسي بالراحة سببه تفريغ مثانتي، أم ضوء القمر المتسلل من النافذة الصغيرة بجانبي؛ ليجعل كل شيء مضيئًا، إلا أنني كنتُ أعرف أن كل شيء سيكون على ما يرام.. ستعيش (كيت)، وتم قبول (فراني) في الجامعة معنا أنا و(جيليان). قد نستأجر شقة نحن الأربعة، ونصوّر برنامجًا واقعيًا خاصًا بنا وندعوه «أربعة أصدقاء أذكياء أغبياء في الجامعة».. ضحكتُ لشعوري بالراحة والحظ.. لم يكن هناك أي شيء مُقلق إلا علاقة (فراني) بوالده، وكنت أملك الوقت لأحلّ تلك المشكلة بدورها. باستطاعتي حلّها، وسأحاول حتى أفعل.

«(جاك)، هاتفك يرن،» ناداني (فراني) من خلف الباب.

«لعلهما والداي، سأتّصل بهما حين أنتهي».

«لا، ليس رقمهما».

«اترك الأمر للمجيب الآلي إذًا».

«لقد تأخّر الوقت على هذا، قال ضاحكًا، وهو يجيب عن الاتصال.. «خدمةُ سكرتاريا (جاك)، من المتصل؟» ضلّ يضحك ثم توقف فجأة، فما عاد

باستطاعتي سماعُ إلا غناء الفتاتين البعيد.

«(فراني)، من كان المتصل؟»، قلتُ غير واثق من أنه ما زال عند الباب.. «سنحتاج المزيد من النبيذ، أصبحتُ جاهزًا».

تعثّرتُ في طريقي إلى المغسلة، وأدرتُ المياه، وغسلتُ يديّ ووجهي.. ابتسمتُ لانعكاس وجهي على المرآة، فقابلني الانعكاس بابتسامة أوسع.. عندها فُتح باب الحمام بقوة فاصطدم الباب بالجدار وارتدّ. «ماذا بحق..»، قلتُ، وقبل أن أغلق الصنبور وأجفف يدي، تم دفعي إلى جدار الحمام الخلفي.

«ما الذي كنت تفكر به بحق الجحيم؟» صاح (فراني).

بالكاد كان بإمكاني أن أتنفس، فقد كانت يدا (فراني) قريبتين من حنجرتي.

«(فراني)»، تمتمتُ.. «ما الذي تقوله؟».

«من المفترض أن تكون صديقي! ألا يكفيك وجود والدَين مثاليين في حياتك، كان عليك أن تسرق أبي أيضًا؟».

«هذا ليس ما جرى، كنت أحاول أن..».

«لم يكلب منك أحد أن تحاول فعل أي شيء».. رفع قبضتَه، فأغمضتُ عينيّ، لكن اللكمة لم تُصب وجهي، بل الجدار قريبًا من فكي، واخترقت قبضتُه الحائط الجاف مما جعل سحابة من الغبار تغطي أنفَينا وطرف وجهي، فتذكرتُ محاولتنا لصنع قالب حلوى لجدته، والطحين الذي غطّى ووجهَينا عندها.

«لا يُجيب ذلك الرجل على اتصالاتي، لم يفعل يومًا، ولم يحضر مباراتي يومًا، والآن يتصل بك منتصف الليل كما لو أنكما صديقين مقربين؟».

«(فراني)، أنا آسف».

«آسف؟ أنت آسف؟ لماذا اتصل بك؟».

«(فراني)..»، قلتُ وأنا أميل برأسي.

«قل لي سبب اتصالها بك يا (جاك)، لا تقل أي شيء آخر».

«لا أعرف السبب،» تمتمتُ لأنني لم أعرف كيف أشرح له الحقيقة.

«لستَ خائنًا تافهًا وحسب، بل كاذبٌ كبير أيضًا».

أفلتني، فانهرتُ على أرض الحمام لاهثًا.

«لقد انتهى كل ما بيننا، إن لم هذا واضحًا لك»، قال بصوت لا أسمعه إلا حين يشتم «الكوبون». «سأُنهي حياتك إن نظرت نحوي أو نحو (جيليان)، هل تفهم؟».

«ما الذي يجري؟ وما هذه الفوضى؟» قالت (جيليان) بصوتها الفرح».. يا للهول، ما الذي جرى؟».. قالت وهي تتفحّص الحمام، ونظرت نحوي وأنا

جالسٌ على الأرض، ونحو الحفرة في الجدار، ثم نحو (فراني).. «هل أنت بخير يا (جاك)؟» قالت وهي تقترب إلي، لكن (فراني) أوقفها.

«هل كنت تعلمين بهذا؟».. سألها (فراني).

«(فراني)، لا علاقة لها بـ..»، خطا (فراني) خطوة كبيرة نحوي وهو يكزّ على أسنانه غاضبًا: «قلت لك اصمت».

سحبته (جيليان) وقالت: «هل كنت أعلم بماذا يا (فراني)؟» سألَته.. «انظر إلى يا (فراني)، انظر إليّ! ماذا تقصد؟».. حضنَت وجهه بيديها وأرغمته على النظر إليها.

«بشأنه هو وأبي.. لا عجب من أن أبي لا يريدني، فلديه (جاك) الخارق.. ما الذي قد يريده مني حين يكون لديه فتى مثالي، صحيح؟».. ضحك (فراني)، لكن كان بإمكاني رؤية دموعه من مكاني.

«حبيبي»، قالت (جيليان) وهي تمسح دموعه وتمسك يديه. «أنا أحتاجك»؛ لأن وجه (فراني). «أحتاجك وأريدك»، كررت (جيليان).

أحاطها (فراني) بذراعيه وقال: «أعدك بألا أخذلك يومًا»، بكى من بين دموعه وغضبه.

«ليس عليك أن تعدني، أعرف أنك لن تفعل، أعرف»، قالت (جيليان) بصوت خافت. «فلنعُد إلى المنزل الآن، حسنًا؟ فلنعد إلى البيت يا عزيزي».

أومأ (فراني) موافقًا، وترك (جيليان) تقوده خارج الحمام، ثم نظرا إلى مرة أخيرة، (فراني) والغضب يقدح في عينيه، و(جيليان)، وهي متألمة وحزينة كأنه الوداع.

وكان هذا ما لم أحسب له حسابًا، ماذا لو أنقذتُ (كيت) وخسرت الجميع؟ هل أريد أن أقضي بقية أيامي هكذا؟ مع هذه العواقب؟ بدون (فراني) و(جيليان)؟ متعايشًا مع حقيقة أن (فراني) لن يحظى بعلاقة طيبة مع والده بسببي؟ في الواقع، لا حدود لمحبتي لـ(كيت)، لكنني لستُ واثقًا من أنني أحبها أكثر من كل تلك الأشياء سويًا.

•••

علاج الدم العليل

مضت أربعة أيام لم أتحدث فيها مع صديقيّ.. ظلّت (كيت) تردد أنهما يحتاجان وقتًا، وهو أمر يقوله الجميع دائمًا: «أمهِل الأمر وقتًا وحسب»، ولا يبذلون عناء التفكير بالوقت، وبمدى فعّاليته في تحسين الأمور.. فلو عرفوا ما أعرفه، لكانوا أدركوا أن الوقت يُفسد الأشياء غالبًا.

لذا كنتُ في غاية السعادة حين تلقّيت ذلك الاتصال، فقد أردتُ أن أنشغل عن

التفكير.. أخبرتُ (كيت) بأنها مفاجأة، لكنها كررت سؤالها كلما قطعنا القليل من المسافة: «إلى أين نحن ذاهبان؟».

«أين سيارتك؟».. سألتني للمرة الثانية، وكنتُ قد تجنّبتُ الإجابة في المرة الأولى وغيّرتُ الموضوع، لكنني كنتُ أعرف أن ذلك لن يفلح هذه المرة.

«لقد بِعتها».. قلت.

«ماذا؟».. سألتني وهي تلتفت نحوي. «لماذا؟».

«فيها العديد من الأعطال، فقررت أن أبيعها طالما أنها لاتزال غالية الثمن».

«هذا غريب».

«إن سار كل شيء على ما يرام، فلن نشعر بغيابها».. قلت.

بدت على وجهها أمارات التعجب، وخصلات شعرها الجعدة تتأرجح عند أذنيها.. «أنت تتصرف بغرابة هذا الصباح، لقد كنت غريبًا طوال الوقت مؤخرًا».

كانت محقة، لكن الأمر طبيعي باعتباري كنت أترقّب اصطحابها إلى موعد طبيب من المفترض أن ينقذ حياتها.

«أعتذر».. قلت.

«نعم، نعم، قُل أي شيء».. قالت، وساد الصمت فترةً حتى تكلمت مجددًا: «قد تحظى بعلاقة طيبة مع أخي».

«أنت الغريبة إن كنت تظنين ذلك. هذا مستحيل، إنه يكرهني مسبقًا».

صراحةً، كنتُ قلقًا بشأن تناول العشاء مع عائلة (كيت)، مع والديها وإخوتها، لكنني منتُ متحمسًا أيضًا.. حين نامت (كيت)، كنا على بعد أربعين دقيقة من عيادة الطبيب، واستيقظت وأنا أركن السيارة في الموقف. حدّقت بالمبنى الرمادي الكبير وسألتني: «ما الذي نفعله هنا؟»

أمطرتني (كيت) بوابل من الأسئلة طوال فترة جلوسنا في غرفة الانتظار، وكان الأمر متعبًا:

«لماذا أملأ هذه الاستمارة يا (جاك)؟».

«لماذا نحن هنا؟».

«لا أظنك تدرك كم يكلف هذا الطبيب».

«كم سيكلف هذا الموعد؟».

«أنت تدرك أن تأميني الصحي لا يغطي علاجه؟».

«لا أفهم سبب قدومنا، من المستحيل أن نتحمل تكلفة هذا، أنت تعرف ذلك، صحيح؟ أخبرتك بهذا من قبل يا (جاك)».

«نحن نضيع وقتنا ووقت الطبيب».

«ما الغاية من كل هذا؟».

«يا إلهي يا (جاك)، هل بعت سيارتك لهذا السبب؟».

بطريقة ما، أبقيت فمي مغلقًا وهي تتكلم، رغم أنني كنت على وشك أن أقول أشياء مثل: «من يبالي للسعر؟ حياتك على المحك، نعم، بعتُ سيارتي من أجل هذا، وكنتُ لأبيع منزل والديّ أيضًا لو كان هذا ممكنًا».

إلا أنني تعلمتُ أنه من الأفضل ألا نقول ما الأشياء المهمة، رغم أنها قد تساعد، لكن الأفعال أهم، بذل الجهد للقيام بالأمور المهمة هو كل ما على فعله.

نادت ممرضة باسم (كيت)، ترددتُ في الوقوف لأنني لم أشأ أن أبدو وقحًا، رغم أنني أردتُ أن أدخل مع (كيت). وقفت (كيت) وقالت: «أريدك أن تدخل معي.» فوقفتُ إلى جانبها.

•••

ماهية فقر الدم المنجلي وطريقة الطبيب (سوونمي) في علاجه

خلايا (كيت) الحمراء الحاملة للأوكسجين، تميلُ إلى التقوّس، أي أنها قاسية وشبيهة بالمخروط، وتعلق في شراييننا أحيانًا تاركةً أنسجتها بلا أوكسجين، ولا يستطيع الجسد أن يستمر بلا الأوكسجين اللازم للحركة والتنفس، مما بسبب ألمًا هائلًا وأعراض أخرى لم أفهمها تمامًا. إلا أنه باستطاعة الطبيب (سوونمي) وفريقه استخدام أنزيمات تدعى نويّات أصابع الزنك، والتي ستدخل في مورّثاتها أملًا بتصحيح الخلل الوراثي، الذي يجعل كريات (كيت) الحمراء تصبح منجلية الشكل، وأملًا بأن الخلايا السليمة ستتكاثر في جسدها.. تتضمن العملية حقنتين مصنّعتين بعناية.

«ستحتاج (كيت) كِلا الحقنتين»، قال الطبيب (سوونمي). «هذا مهم جدًا».

«ما المدة التي سننتظرها ما بين الحقنتين؟».

ابتسم الطبيب (سوونمي) وقال: «بعد الحقنة الأولى، سنراقب التغيرات عن كثب، وإن سار كل شيء كما نأمل، فسيحين موعد الحقنة الثانية بعد ستة أو سبعة أشهر فقط».

بالطبع لم يكن الطبيب ليهتم، لكن ستة أو سبعة أشهر هي بمثابة حكم بالموت إذا تكرر أمر عودتي بالزمن، فعندها لن يكون أمانا سوى ثلاثة أشهر.

«ما الذي قد يجري إن أخذت الجرعة الثانية في وقت أقرب؟».

«لن يكون جسدها جاهزًا، وستعاني من صدمة».

«ماذا تقصد؟».

«قد تموت».

•••

حاول ألا تجعل من نفسك أضحوكة

كيت: تجاهل (ريجي)، فهو يتصرف بطريقة غريبة اليوم.

وصلتني هذه الرسالة من (كيت) في طريقي إلى مقابلة (ريجي) وبقية عائلة (إدوادرز)، وقد كان تأثير الرسالة عكسيًا، وبدا أنه من غير السهل تجاهل (ريجي) لأنه كان قد قرر أن يزعجني.

«(جاك)، هذا (ريجي)، أخي الأصغر»، قالت (كيت).

مددتُ يدي قائلًا: «مرحبًا يا (ريجي)، تسرّني..».

لكنه اكتفى بالتحديق بي وبيدي الممتدة كأنه أمسك بي وأنا أحكّ مؤخرتي.. «إن فطرت قلب أختي يا (جاك)»، قال اسمي بطريقة انفجارية، «فسأكسر وجهك بالتأكيد».

كان (ريجي) أصغر مني بثلاث سنوات وأقصر مني بعشر سنتمترات، لكن تهديده كان رنانًا. كانت بقية العائلة ألطف بكثير، حتى والدها، مما أثار عجبي لأنني افترضتُ أن كل الآباء يكرهون مجرد وجود شخص يواعد بناتهم، لكن لم يكن لدى السيد (إدواردز) وقتٌ يضيعه على الكره، على عكس (ريجي).

«لا تحاول لمس أختي من تحت الطاولة يا (جاك)»، قال (ريجي) ونحن نجلس على طاولة العشاء.. «أبقِ يديك وقدميك حيث بإمكاني رؤيتهما».

«لا أعرف طريقة لإبقاء قدمي أمام ناظريك، لكنني سأبذل جهدي،» قلت محاولًا إضحاكه يكف عن العبث معي.

«(ريجي)»، قالت السيدة (إدواردز): «إن ظللت تتصرف هكذا فستحظى برؤية جيدة ليديّ وقدمي».

«هل ننتظر (كيرا) للبدء بتناول الطعام؟».. قال السيد (إدواردز) بطريقة توحي بأنه لا يفضّل أن ينتظر.

قالت السيدة (إدواردز): «فلتقرر (كيت)».

«فلننتظرها خمس دقائق إضافية،» قالت (كيت)، فتململ السيد (إدواردز) قليلًا.

فقرر (ريجي) في هذه الأثناء أن يستغل الوقت المستقطع ليسألني أسئلة محرجة بادئًا كل سؤال بنطق اسمي مع التشديد عليه: «إذًا يا (جاك)، كم حبيبة واعدتَ قبل (كيت)؟».

«أنا آسف»، قلتُ وأنا أنظر نحو (كيت) طالبًا المساعدة.

«(ريجي)،» قالت (كيت).

قال (ريجي) متجاهلًا إياها: «لا تأسف يا (جاك)، أجب على السؤال وحسب».

حسنًا..».. تمتمتُ.

«(ريجي)، اترك (جاك) وشأنه،» قالت السيدة (إدواردز).

ابتسم إلى (ريجي) بخباثة وقال: «أنا أحادثه وحسب يا أمي».

«لم أواعد الكثير من الفتيات، كان تركيزي منصبًا على الدراسة»، قلت.

ابتسم السيد (إدواردز) وقال: «أخبرتنا (كيت) أنك تلميذ مجتهد يا (جاك).. نحن نقدّر الاهتمام بالدراسة».

ارتفعت حرارتي أكثر، رغم أن جبهتي كانت متعرقةً من قبل، وقلت: «أحاول، فأنا استمتع بالتعلم، أنا مهووس بالدراسة.

«أنا أستمتع بالتعلم أيضًا يا (جاك)، فمثلًا، أظن أننا مهتمون جميعًا بمعرفة نواياك تجاه أختي».. قال (ريجي) وهو يبتسم.

«(ريجي)،» صاحت السيدة (إدواردز).. «من الأفضل أن تُسارع بتحسين سلوكك، إن لم تكن تريدني أن أتسبب بإحراجك.»

على الرغم من تهديد السيدة (إدواردز) لـ(ريجي)، فقد شعرتُ أن كل العائلة تنظر نحوي متوقعين جوابًا، وكان ذلك محرجًا، وما كنتُ لأجيب؛ لأنه من المقزز مناقشة الأمور الحميمية التي تجري مع حبيبتي أمام والدَيها وأخيها الصغير على طاولة العشاء.

«كيف كان حال (آمبر ري) البارحة؟ يا (ريجي)؟» قالت (كيت) وهي تحدق به كأنهما يخوضان نقاشًا بالتخاطر، وكان ذلك أحد مساوئ كوني ابنًا وحيدًا، لم أكن طليقًا في لغة الإخوة.

غاص (ريجي) في كرسيه وهز رأسه ببطء كما لو ليقول لها ألا تكمل كلامها.

قالت السيدة (إدواردز): «لم يرَ (ريجي) (آمبر ري) البارحة، كان يدرس علوم الأحياء مع (كونتن) و(جوني)».

«أوه»، قالت (كيت) مبتسمة ابتسامة تحدّي وهي تحدق بـ(ريجي). «إنه خطئي».

قال السيد (إدواردز) الذي لاحظ كل ما يجري: «لعله علينا أن نتناقش بعد العشاء يا (ريجي)، حول علوم الأحياء».

«هاها،» قال (ريجي).. «لا يا أبي، ما من داع لذلك».

حدّق السيد (إدواردز) بـ(ريجي) وقال: «لم أكن أخيّرك إن كان هذا ما ظننتَه».

رمق (ريجي) (كيت) بنظرة كما لو ليقول أن هذا بسببها، فضغطت (كيت) على يدي، منقذتي.. ولم أفهم الشيفرة بينهما، لكن كل شيء مباحٌ في الحرب ما بين الإخوة.

«آسفة لتأخّري، آسفة جدًا.» قالت (كيرا) وهي تندفع نحو غرفة الطعام معتذرة ومقبلة جبين الكل، بمن فيهم أنا.. تلونا صلاة ما قبل الطعام، وأمسك (ريجي) بيدي جون أن يؤذيني، متناسيًا كراهيته لمدة ثلاثين ثانية.

بعد العشاء، جلستُ مع (كيت) و(كيرا) على الشرفة الأمامية، وتناولنا المثلجات والكعك الذي أعدّته السيدة (إدواردز).. تذكرتُ أنني توقفتُ عند هذه الشرفة تحت المطر ظانًّا أنني لن أرى (كيت) مجددًا.

«تبدوان لطيفين سويًا،» قالت (كيرا).

«تظنين ذلك؟».. سألتها (كيت) وحاجبيها مرفوعين.

«هل أخطأت أختك الكبرى بخصوص أي شيء مسبقًا؟».

وقبل أن تُجيب (كيت)، فُتح الباب وأتى (ريجي) حاملًا وعاءً بين يديه.

«لا تأتِ إلى هنا لتُعيث الفساد يا (ريجينالد)»، أمرته (كيرا).

تململ (ريجي)، لكنه جلس عند السلم وحيدًا وبدأ بتناول الحلوى، وعاد ثلاثتنا إلى التحدث والضحك، تحدثنا عن وريث (ويل سميث) في التمثيل، ولم يقاوم (ريجي) فقال: «بالطبع هو (جيدن)، هذا ما يقوله المنطق».

انضمّ السيد والسيدة (إدواردز) لنا مع وعاءيهما، وسألنا السيد (إدواردز) عمّا نتحدث بشأنه ثم قال: «ما خطبكم أيها الأولاد؟ السؤال يجب أن يكون من هو وريث (دانزل)، فهو ممثل رائع».

في النهاية، انسحب أفراد عائلة (إدواردز) عن الشرفة واحدًا تلز الآخر، وتركونا أنا و(كيت) على السلم.. ورمى عمود إنارة الفناء الأمامي بضوئه الحالم على محادثتنا.. «قدومك إلى منزلي يعني لي الكثير،» قالت وهي تنظر في الشارع الخالي.

اقتربتُ منها حتى تلامست رجلانا وأمسكتُ يدها بيدي، وشعرتُ بأصابعها الباردة بسبب المثلجات.. حلّقت يراعة مضيئة قريبًا من أنفها. قلت: «أذهب إلى أي مكان من أجلك».

مالَت نحوي ولامست خدي بشفتيها، فكرتُ بالنظر خلفًا للتأكد من عدم وجود أحد أفراد عائلتها، لكنني انسجمتُ معها، وتلاقت شفاهنا وهي تنفتح وتنغلق، وتتشبث ببعضها كالوعد.

•••

اتكأت (كيت) على سيارة أمي، وقبّلتها مجددًا، وكنا منسجمين لدرجة أننا لم نشعر باقتراب والدها.. تنحنح السيد (إدواردز).

وقفت (كيت)، وضغطتُ زر الوقود بالخطأ، مما أدراك المحرك، فشكرتُ الله لأنني وضعتُ السيارة في وضعية الرّكون.

«أبي، هل كل شيء على ما يرام؟».. قالت (كيت).

«هل تمانعين أن أتحدث مع (جاك) على انفراد؟»

وتبيّن أن الحديث المنفرد يتضمن الابتعاد عن السيارة والمشي على الرصيف المظلم مع والد حبيبتي.

«أظن أنه علينا أن نتحدث حولك أنت وابنتي».

أومأت بالإيجاب، فأكمل السيد (إدواردز): «أظنك مدرك لحقيقة أنها قد عانت الكثير».

«نعم يا سيدي».

«مختصر الحديث هو أن ابنتي معجبة بك، وأنت تبدو فتىً جيدًا، ولن يسرّني أن يُفطر قلبها، أو أن تتوتر، فذلك قد يقتلها.

«لا أريدها ان تتوتر، وبالطبع لن أسبّب ذلك».

«هذا صحيح»، قال السيد (إدواردز)، ثم توقف قريبًا من منزله وقال: «ولهذا أظنه عليك أن تنفصل عنها الآن».

«عذرًا، لم أفهمك».

«أظنك قد فهمت قصدي تمامًا. أنت فتى ذكي، وقد تكون نواياك حسنة، لكن علاقتكما لن تنجح، فأنت لم تتخرج بعد من الثانوية يا (جاك)، لهذا، أفضل قرار قد تتخذه إن كنت تريدها أن تكون بخير، هو أن تتركها».

«لا استطيع أن أقول لك إنني أوافقك الرأي يا سيدي،» تلعثمت قائلًا.. «مع كامل احترامي، فإن علاقتي بـ(كيت) هي أمر رائع بالنسبة لكلَينا».

عقد السيد (إدواردز) حاجبيه وقال: «هل تظن أنك تعرف أكثر مني ما الأفضل لابنتي؟».

«لا، أنا أقصد، أنا فقط..».

«هل تظن أنك خبير بالحب أكثر مني يا فتى؟».

«ليس هذا ما..».

«إن كنتَ تحب (كيت)، فعليك أن تتركها يا (جاك).. إن كنت تريدها أن تحيا أفضل حياة ممكنة، فعليك أن تتركها».

عدنا صامتَين، فاجتازت (كيت) سلم الشرفة قفزًا وركضت نحوي لتعانقني، ثم سألت والدها: «هل كنت لطيفًا مع (جاك) يا أبي؟».

ابتسم السيد (إدواردز) وقال: «كان مجرد حديث قلبيّ بين الرجال، ما من شيء لتقلقي بشأنه يا عزيزتي».. ثم نظر إلى ووضع يده على كتفي قائلًا: «سرّني التعرف عليك يا (جاك)».

أومأتُ لأنني لم أجد ما أقوله، ودخل السيد (إدواردز) نحو المنزل.

«كانت ليلة لطيفة،» قالت (كيت) ويداها فوق كتفيّ وعيناها واسعتان ومبتهجتان.

«نعم»، قلت محاولًا الابتسام. «لطيفة جدًا».

«ما الأمر؟».. سألتني وكأنها عرفت ما يجول بخاطري.

«هل أنت واثقة من أن علاقتنا أمر جيد؟».

مالت (كيت) برأسها وقالت: «ما الذي تقصده؟».

«لا أريد أن يكون تأثيري سلبي عليكِ، لا أريد أن أكون السبب في أنك لا تعيشين أفضل حياة ممكنة».

«ماذا قال لك أبي؟».

«لا شيء».. قلت كذبًا.. «لكنني أهتم لأمرك كثيرًا و..».

«يظن الجميع أنهم يعرفون ما الأفضل بالنسبة لي، متى لم يعد رأيي مهمًا في ذلك؟».

جذبتها، ورأيتُ ستارةً تتحرك عند النافذة الأمامية خلفنا، أحد ما كان يراقبنا. قلت لها: «لا أبالي برأي الآخرين، فطالما تريدينني يا (كيت)، لن أتركك يومًا».

قبّلتني وقالت: «أريدك».

فقبّلتها بدوري، قبّلتها بشغف وبكل قدرتي على الحب.

•••

قبل السابعة صباح اليوم التالي، تلقّيت رسالة: «كن في الخارج بعد عشر دقائق».. نهضتُ من السرير، ولم أرتدِ جواربي أو حذائي، فقد كانت عند الشرفة الأمامية.. جلستُ بجانبها.

«لقد أفسدت الأمر حقًا هذه المرة»، قالت (جيليان).

شددتُ أسناني وقلت: «أعترف أنني مذنب».

«ما الذي ظننته سيحصل يا (جاك) حين يعرف (فراني) بالأمر؟».

«بصراحة؟ كنت آمل أنه لن يعرف».

«وكأن كل ما تبالي بشأنه هو (كيت)، ومشاعرها، وحمايتها، لكن ماذا بشأننا يا (جاك)؟ صديقاك؟ الأشخاص الذين ساندوك وشاركوك الكثير من الأوقات؟ ماذا عني؟».

«(جيليان)، لم يكن من المفترض أن يحدث هذا».

«أنت محق، لأنك وعدتني بأنك ستكون بجانبي دائمًا، وبعد فترة قصيرة، خلفتَ بوعدك».

«كنت أحاول أن أساعد (فراني)، ما زلتُ أحاول».

«لا تستطيع مساعدة الناس بالطريقة التي تظنّها الأفضل يا (جاك).. النوايا الجيدة ليست مبررًا لتصرفاتك الحمقاء».

«ما الذي يمكنني فعله؟ لا يرد (فراني) على مكالماتي، أو رسائلي الإلكترونية أو النصية».

«أمهله وقتًا، سيحتاج الكثير منه».

«ماذا إن لم يكن الوقت كافيًا».

عبست (جيليان) وقالت: «يجب أن يكون كافيًا».

•••

بما أن (فراني) كان يمر بمرحلة يكرهني فيها بشدة لأسباب مفهومة، فترة كنتُ مصممًا على إنهائها، قررتُ تجاهل تهديده بإيذائي جسديًا، ومحاولة التحدث معه.. لكنني لم أجده في أي مكان، لا في منزله، ولا في النادي الرياضي، ولا في منزل (جيليان).. استدركتُ أنه قد مضى اثنان وسبعون ساعة منذ قرر إباحة دمي، وأنه قد يكون عثر على صديق مقرب جديد ليتسكع معه. حين وجدتُه أخيرًا، لم يكُن السؤال هو ما الذي يفعله هنا، بل كيف لم أفكر بهذا المكان سابقًا؟

العرزال الخشبي الذي بنيناه خلف منزلي في الصيف منذ عدة سنوات.. كانت جدرانه مغطاة بالطحالب من الخارج، والسقف يُفسح مجالًا لأشعة الشمس والمطر.

«ألم أخبرك أنني لا أرغب برؤيتك؟»، قال (فراني) حالما أدخلتُ رأسي من الفتحة الأرضية للعرزال، ظننت لوهلة أن سيلكم وجهي، لكنه استدار ليدير ظهره إلى ويواجه النافذة الوحيدة في العرزال. رفعتُ نفسي لأدخل واتكأت على الجدار خلف (فراني) وقلت له: «ما كان على أن أكلم والدك من دون علمك، كنتُ مخطئًا، وأنا آسف لأنني آلمتك، ما كنتَ لتفعل الأمر ذاته معي».

«أنت محق، ما كنتُ لأفعل».

«كل ما بإمكاني قوله هو أنني فكرة مرض (كيت) الشديد كانت مستولية عليّ، وخطرت على بالي فكرة لكسب نقود لعلاجها، لكنني كنت بحاجة للمساعدة، فخطر والدك على بالي، لكن كان على أن أفكر بك أيضًا، لم أفكر في ما قد يعنيه ذلك لك أو لـ(جيليان).. كنت أنانيًا، وأنا آسف حقًا. كل ما بإمكاني قوله هو أنك إن أعطيتني فرصة أخرى، فسأبذل جهدي لأكون شخصًا أفضل، ولأتصرف بطريقة أفضل».

استدار (فراني) نحوي وهز رأسه: «ماذا؟ هل من المفترض أن أسامحك

الآن؟ أو أن أقول شيئًا مثل أن الجميع يُخطئ، وأرحّب بصداقتك مجددًا؟ لأن هذا لن يحصل، ولستُ مستعدًا له، ولا حتى قليلًا».

أومأت وقلت: «حسنًا».

«اللعنة يا رجل، ليس عليك أن تتصرف وكأن شخصًا قد أصاب مؤخرتك السوداء بطلق ناري.. كل ما أطلبه هو أن تعطيني القليل من الوقت، وسنرى بعد ذلك».

وبدا أن الوقت أصبح محور حديث الجميع.

•••

رسائل المصالحة

حين قال (فراني) إنه يحتاج وقتًا، بدا أنه يقصد يومين.

رسالة إلى مجموعتنا، يرسلها (فراني) إليّ وإلى (جيليان):

فراني: هل سنتمرّن اليوم أم أنكما تريدان أن نحضر الحفل ونجعل من أنفسنا أضحوكة؟

أنا: أختار الخيار الأول بالطبع. أين ومتى؟

جيليان: في منزلي! حالًا!

رميتُ ذراعي حول عنق (فراني) كما لو أننا نرقص وسط مرآب.

منزل (جيليان) وقلت له: «لقد افتقدتك أيها الضخم».

حاول ألا يضحك، وأمسك برأسي كما لو أنه كرة سلة.. «ما خطب هذا الفتى؟» سأل (جيليان)، ثم ابتسم وصار الكون مكانًا آمنًا مجددًا.

ابتسمت (جيليان) وركضت نحونا، وارتمت على ظهري لتدفع بنا أنا و(فراني) على الأريكة البرتقالية القديمة، فشكّلت أجسادنا عقدة واحدة، وشعرتُ أن الأمور عادت لنصابها.

حاولنا دفع بعضنا عن الأريكة مدّعين أن الأريكة طوف نجاة، وأن واحدًا فقط من بيننا سينجو دافعًا الآخرين خارجه، وفازت (جيليان) كالعادة، وقفزت في مكانها على الوسائد. استلقينا أنا و(فراني) جنبًا إلى جنب على الأرض الملطخة بالدهان، نظر إلى قائلًا: «لقد عدنا صديقين، لكن إن حاولت مرة أخرى أن..».

رفعتُ يدي لأقاطعه وقلت: «لن تكون هناك مرة أخرى».

أومأ برأسه وقال: «جيد».

تبادلنا نظرةً مفادها أنه علينا أن نواصل اللعب، وقفزنا نحو الأريكة البرتقالية مجددًا وحاربنا من أجل حياتنا.

...

قبعات وعباءات التخرج

حان موعد التخرج، وكان أبي يتهيأ لممارسة هوايته في توثيق الذكريات إلى الأبد، فقد جلس في المطبخ في الليلة السابقة للتخرج، لينظف عدساته المختلفة بقطع قماش مصممة لتلك الغاية، وتفقد الكاميرا بكل عناية بذات الطريقة التي يتفقد فيها الصياد بندقيته قبل الصيد.. أبي صياد يستهدف المناسبات الخاصة.. إلا أنني لم أتذمر، أتفهّم اهتمام الأهل الشديد بالمناسبات المفصلية على طريق نجاح ابنهم المرتقب.. أمي بدأت بالبكاء منذ الليلة السابقة، وظلت تجفف عينيها بمنديلها.

«أمي، هل أنت بخير؟».. سألتها رغم أنني كنت أعرف أنها دموع الفرح، لكن تذبحني مشاهدة أمي تبكي لأي سبب.

«طفلي الصغير»، قالت كأن هذا يلخص كل شيء.

أما أنا، فلم يسَعني إلا أن أشعر بالفخر، والحب، والخوف، فكل ما كنت أفكر به هو الخطوة القامة، والجواب الجزئي هو الجامعة، لكنني لا أعرف كيف ستكون بقية الأشياء في حياتي. نظرتُ إلى نفسي في المرآة، بقبعة ورداء التخرج. قلت لانعكاسي على المرآة: «حظًا موفقًا يا رجل»، فأجاب: «ستحتاجه».. ولم أعارض.

نظرتُ في غرفتي وبدأت أشعر أنني ما عدتُ أنتمي إليها، وكأن تلك الأشياء ليست لي، وكأنني لست من دهن الجدران بالأزرق الزاهي، حين بدت تلك فكرة مذهلة، وكأنني لست من تسبب بالبقع الملونة الشبيه بآثار أقدام حيوانات فضائية على السجاد، وكأنني لستُ من ألصق الملصقات تلك على خزانة الثياب، وكأنها ليست بطانيتي المفضلة التي تغلغل بها عرقي ورائحتي، ولا رف كتبي الذي يتململ من ثقله. لمَن هذه الأشياء؟ ذكريات من هذه المتكدسة في رأسي؟ شعرت بالامتلاء، وتساءلتُ كيف قد استطيع أن استضيف أشياء وأشخاص آخرين في مكان كهذا، أو مكان كنفسي.

وقفتُ عند حافة الباب المليئة بعلامات من قلم غامق، حيث كنت أقف وظهري ملاصق للخشب بينما حدد طولي كاتبًا عمري بجانبه، وضحكتُ لأنني وجدت نفسي قصيرًا.. أطفأت الأنوار، ورن جرس البيت. نادتني أمي: «(جاكي)، (كيت) هنا».

تجاوزتُ عتبات السلم الاثني عشر بقفزة واحدة كما كنت أفعل في صغري، إلا أنني تعثّرت وكدت أكسر عنقي، مما ذكّرني بتلك المرة التي كسرت فيها عنقي فعلًا، والتي أودَت بي إلى كل هذا. لكنني لم أهتم لتعثري، لأنني شعرتُ بأنني لن أكسر أشيء بعد ذلك اليوم، أنني قوي وأن الكون يدور بطريقة

جميلة.

•••

كان جمال (كيت) جميلةً مثل انفجار ضوئي لا يتوقف عن الإشعاع.

«لقد أتيتِ»، قلت لها، وشعرتُ بوالديّ ينظران نحونا، شعرتُ بسعادتهما لأن حبيبة ابنهما غاية في الجمال، لكنني لم أكن أرى إلا (كيت)، ولم أشعر إلا بها، بفستانها الأبيض المورّد، وكعبها الأزرق، وربطة زرقاء على معصمها الأيمن.. ابتسمَت وارتبكنا غير عارفين إن كان علينا أن نتعانق أم أنه مسموح بقبلة سريعة على الشفاه، وكاد رأسانا يتصادمان. قبلتُ خدها وشعرتُ بحرارته، أو أنها كانت حرارتي أنا. مدَّت يدها وعدّلت مكان قبعتي وقالت: «مبروك التخرج يا (جاك) المحارب».

هززتُ كتفي وقلت: «إنه مجرد تخرج من الثانوية».

لكن كل شيء كان أكثر مما هو بكثير مع (كيت)، حتى أنني لم أمانع الصور التي أمطرنا بها أبي.

•••

الذكرى الثلاثون

قبل أن تصعد فرقة «جوي توي» إلى المنصّة - أي الفناء الخلفي- نادَتني أمّي لأذهب إلى الباب الأمامي.. حضّرتُ طبقًا كبيرًا من البسكويت الفاخر ووصلت هناك لأرى أمّي تحضن شخصًا بقوّة شديدة.

«مرحبًا»، قالت (كيت)، ولوّحت بيدها عندما تحررت من قبضة أمّي.

«مرحبًا»، قلت لها.

تراجعت أمّي، وبدّلت نظرها بيني وبين (كيت) كأنّها تشاهد مباراة تِنس.

«لقد فَعَلتِها»، قُلتُ أخيرًا، تخطّيت أمي وأرشدت (كيت) خارجًا إلى مكان به بعض الخصوصية على الشُرفة.

«واو، أنتِ تبدين..واو، في الحقيقة كلمة مُذهلة أول ما تبادرت في ذهني، لو أنني لا أريد أن أظهر قديم الطراز كجدّك».

ابتَسمَت، «لا تقلق، فجدّي لن يقول شيئًا كهذا، إنه أروع مِنك».

«بانغ! أوقعتِ بي»، مثّلت صوت المسدس وقبضت على صدري.. «لكن مجددًا، أن يكون شخصٌ ما أروع مني هو شيء غير جدير بالذكر، فإطاحتي عن عرش انعدام الروعة عليك أن...».

قبّلت خدّي، فقلت: « ماذا فعلتُ لاستحق هذا؟ أسألك لأنني أريدكِ أن تفعليها

مجددًا».
«من أين أبدأ؟».
«أنا حقًّا ممتن لأنكِ هنا،» قلتُ هذا وأنا على وشك أن أضيف «هذه المرّة»، لكن تمالكت نفسي.
«شكرًا لدعوتي. إذًا.. أين الحفلة؟».
«آه نعم، الحفلة، لم تأتِ إلى هنا لكي نقف على شُرفتي ونحدّق ببعضنا إذًا؟».
«كان هذا مشروعنا للأسبوع القادم»، قالت لي.
«أوه، أنتِ على حق، إنه في الأسبوع المقبل»، وافقتها.. «آسف، أشعر على الدوام بأن أيامي مختلطة».
أمسكت يدها وذهبت بها إلى الفناء الخلفي.
«واو، لقد قمتم بعمل رائع، إنّه راقٍ جدًّا».
«صمّمت أمّي كل شيء، أعطتنا الإرشادات، وكل ما فعلناه أنا وأبي هو تحريك الأشياء جيئةً وذهابًا حول الفناء إلى أن أُحبِطت وقالت أنه جيد كفاية».
«حسنًا، إن ذوقها جيد جدًا».
«أعتقد أنني أملك ذوقًا أفضل»، قُلت هذا وأنا أحرّك أصابعي على كتِفها.
دفعتني بِلهوٍ.. «مُقزّز، لا تفعل هذا في ذكرى زواج والديك».
«لِمَ لا؟ أتعلمين؟ إذا لعبتي بالأوراق جيّدًا، من الممكن أن يكون عيدنا، أيضًا».
«حسنًا، هذا أمر مخيف لتقوله».
«قلت لكِ بأنني لستُ رائع».
«كم مرة يجب عليّ أن أقول لك إنك تروق لي لهذا السبب؟».
قبّلتني مجددًا على نفس الخدّ، ففقدت التحكم بعضلاتي مؤقتًا.
«ها هي! المرأة التي تجعل من صديقي رجلًا أفضل»، صاح (فراني) عبر الحديقة.
كان هو و(جيليان) يرتديان نفس النظارات الشمسية، عدا أن نظارات (جيليان) لونها أسود بينما نظارات (فراني) تحمل لونًا ورديًا فاقعًا.
«نظارات جميلة»، أخبرتهُ (كيت).
«هيّا (كيت)، لا تشجّعيه،» قُلت متذمرًا.
«شُكرًا، (كيت).. مثلما كنت أقول إلى هذا الإنسان البدائي، يلزم الأمر رجل حقيقي لإظهار شيء جريء جدًا، مُلهمٍ جدًا».
قالها (فراني) وهو يسحب نظّارته ليرمقنا بغمزةٍ مبالغ بها.
«أجاهزون أنتم للصخب؟».. قالت (جيليان) مشيرًا نحو المنصّة.

«لقد ولِدتُ من أجل الصخب،» قلت وقد رفعت يدي ففعل (فراني) ذات الشيء بسرعة وصفقنا أيدينا سويًّا.

«الصخب هو اسمي الأوسط»، قال (فراني)، وهو يموّج شفاهه بطريقة لم أره يفعلها من قبل أبدًا.

«إذًا، لابدّ من أن اسمك الأخير ضجيج.» قال (جيليان)، وهو يضرب كف (كيت) عاليًا قبل أن يضع يدها فوق أيادينا جميعًا، ضَحِكت (كيت).

«حسنًا، ما الذي تنتظرينه (كيت)؟ فلتنضمّي».

«لكنني لستُ جزءًا من الفرقة»، اعترضَت.

«لكنك صاخبة، صحيح؟».. قال (جيليان).

«وتجيدين الضجيج، صحيح؟».. أضاف (فراني).

فوضعت (كيت) يدها على أيادينا ضاحكة.

«أوه نعم، الآن نحن جاهزون»، قلت لهم.

«ضجيج صاخب عند ثلاثة»، صرخ (فراني)، تقوّس حاجباه.. «واحد، اثنان، ثلاثة...».

كان ذلك اليوم مثاليًا، لدرجة يصعب التصديق أنه كان ذكرى سنوية لأمر آخر، إن الحزن ساد في ليلة مشابهة.. فهذه المرّة لم تكن (كيت) في المشفى، وعلاجها كان فعّالًا، أفضل من المتوقع، فوفقًا للطبيب (سوونومي)، هناك العشرات من الأسباب لنكون متفائلين، لنكون سعداء.

لذا، طرح سؤالٌ نفسه: لماذا كنت أشعرُ بالخوف؟

«ربّما تستطيعين البقاء الليلة،» اقترحت على (كيت).

ضّحِكت وقال»، تقصد، في منزك بموافقة والديك؟».

«لِمَ لا؟».. وكلّا، أنا لستُ متأكدًا تمامًا أن فكرة بقاء (كيت) الليل عندي ستسعد أبويَّ، لكنني لم أرغب أن تغيب عن ناظريّ في تلك الليلة.

بالرغم من محاولاتي الحثيثة، لم توافق (كيت) وقالت بإصرار: «لدي أشياء أقوم بها مع (كيرا) غدًا صباحًا، ويجب عليك أن تبقى مع أصدقائك وعائلتك الليلة».

لا يوجد ما يمكن فعله لتغيير رأيها، حتى إنها لم تدعني أقلّها رجوعًا إلى منزل والديها.

«أرجع إلى الداخل واسكر مع والديك»، قالت وهي تبتسم.

«لا تقلق، يا (جاك)»، طمأنتني (جيليان)، وهي تشغل محرّك سيارتها. «سأقلّها إلى منزلها بأمان».

تشاركت مع والديّ زجاجة نبيذ، وأنا استمع إلى حديثهما حول خطوبتهما،

وأول سنين زواجهما، وتساءلت كيف كنت لأشعر لو التقيت بهما في ذلك الوقت، لو التقيت بالنسخة الأصغر من والديّ.. هل كنت سأعتقد بأنهما رائعان؟ هل كنا سنصبح أصدقاء؟

ماذا لو عُدت بالزمن إلى الوراء كفاية لأرافق أمي إلى حفل التخرّج؟ من المزعج التفكير بالأمر (بالسؤال الأخير خاصة، على الأقل).

قبل أن أصعد إلى الفراش رفعتُ صوت رنة هاتفي في حال حدث مكروه.

اتصلتُ بـ(كيت)، لكنها لم تُجب.. بعثت لها برسالة لتتصل بي عندما تستطيع.

(فراني)، (جيليان)، وأنا تبادلنا الرسائل النصية حتى ساعات الصباح الأولى، كُنت مُصممًا على أن أبقى مستيقظًا كل الليل، ظانًا أن استيقاظي قد يصنع فرقًا.

استيقظت عند منتصف الليل تقريبًا، على رنّة منبّهي. نفضتُ النعاس عن رأسي، ومددتُ يدي إلى هاتفي، إلّا أنه لم يكن المنبّه.

«(جاك)، لا أعلم ماذا يحصل لي،» صرخت (كيت) مذعورة في الهاتف.

«انتظري، ماذا تقصدين؟ ماذا يحصل؟».

«أعتقد أنني أواجه أزمة»، قالت لي.

«هذ غير ممكن، العلاج. الطبيب (سوونمي) قال..».

«(جاك)، أنا مذعورة... أشعر بشيء مختلف هذه المرّة. أسوأ من ذي قبل.. لا أعلم ما الذي على فعله».

«أين أنتِ؟».

تنفست (كيت) بارتعاش.

«(كيت)، أين أنتِ؟ سآتي إليكِ، سأتصل بالإسعاف. فقط قولي لي أين أنتِ..».

أسرعت إلى أعلى الدرج، لا أصدّق، إنه يحصل مجددًا.

«(جاك)..»، قالت بصوت ضعيف، وسمعت صوت ارتطام كأنها أوقعت هاتفها.

«أنا قادم»، أقسمت لها، برغم أنني لا أعرف مكانها.

نزلت مهرولًا على السلّم متوخيًا الحذر في كل خطوة، وصلت إلى الأسفل دون أن أقع، دون رحلات كونيّة، دون مفاجآت من ثقوب سوداء.

خلال عشرين ثانية كنت أقود سيارة أبي خارجًا مدرج المنزل.

تذكرتُ الحقنة الثانية وفكّرت في أن (كيت) تحتاجها.

حاولتُ إجراء مكالمة وأنا في السيارة.. رنّ الهاتف مطوّلا فتوقعت أن يحولني إلى البريد الصّوتي، لكن عندها...

«مرحبًا؟».

«لقد كَذبت،» قُلت لهُ.
«ماذا؟ من المُتصل؟».
«قُلت لي أن بإمكانك إنقاذها».
«(جاك)؟».
«مازالت ستموت، أليس كذلك؟».
«(جاك)،» قال لي، بينما أسمع أصوات أناس تتحدث في الخلفيّة، سمعت كيف وضع يده على السّماعة ليخفي الصوت، أصبح كل شيء ضبابيًا.
«(جاك)، استمع إليّ»، قال مجددًا.
«فقط قل لي الحقيقة أيها الطّبيب».
«الحقيقة الوحيدة في الطب هي أن ليس هناك حقيقة.. نحن لا نعلم، نحنُ نجرّبه ونمارسه ولا نستطيع جعله يعمل على الدّوام، لهذا نطلق عليه ممارسة الطّب.. أحيانًا نتائجنا تكون مخطئة تمامًا».
«لكنّك مُختلف، (كيت)، عائلتها، كلّهم آمنوا بِك، الجميع قال إنّك الأفضل».
توقف عن الحديث، وتنهّد بعمق، ثم قال: «أتمنى لو أنني كُنت الأفضل».
«...».
«(جاك)، (جاك)؟ هل أنت هنا؟».
«عِمت مساءً أيها الطبيب».. ورميتُ بهاتفي على المقعد بجانبي.
وضعت قدمي على دوّاسة الوقود، وانطلقت بالسيّارة إلى الأمام.
لا أستطيع تقديم شيء سوى التعجّب ما الذي أفعله.. هل هنالك فرصة أن كل ما يحدث الآن غير حقيقي؟
ربّما أنا بغيبوبة، وهذا كله نتيجة عارض ثانوي للمخدرات وعقلي الباطن المهزوز؟
أو ربما حياتي عبارة عن برنامج واقعي متقن الإنتاج، لإحدى شبكات التليفزيون بميزانية متوسطة، وكل من أعرفه هو ممثل يقبض أجرًا، مثل فيلم «عرض ترومان».
ماذا لو أن والديّ ليسا حقًّا والديّ الحقيقيين؟ ماذا لو تم توظيف (جيليان) و(فراني) ليصبح أعز أصدقائي؟ و(كيت).
ماذا لو هي.. ماذا لو نحن حقنا لسنا واقعين في الحُ....
ثم صوت انفجار، أو بالأحرى، هذا ما ظننته.
تهشّمت مقدمة السيّارة، انطوت على نفسها كأنها ورقة تصميمات إنشائيّة، حديد يلتوي، يتمزّق، شعرتُ بالحرّ والنّار.

شممتُ رائحة دخان، أحد ما، وسمعتُ راخًا لم أعرف مصدره.. ثم اتّضح أنه أنا، كنت أنا من يصرُخ، ولم استطيع التوقف عن الصُّراخ، ولم أعتبر الصراخ تعبيرًا عن الضعف، بل كان صرخة معركة أخوضها.

أردتُ أن أصل إلى (كيت) حتى إن اضطرني الأمر للزحف على يديّ وقدميّ، أو عرجًا على قدم واحدة، لا يهمّ.

ولعل كل ما يحدث الآن غير حقيقي، لكنه حقيقي بالنسبة لي.

«أيها الفتى، يا فتى، هل أنت بخير؟» سمعتُ صوت سيدة تصرخ عبر نافذتي.

«يا إلهي، يا إلهي، لم أرك، أقسم أنني نظرت بالاتجاهين، لكنك أتيت من اللامكان..»

حاولت أن أدفع الباب لكنه لم يتحرك.. «ارجعي إلى الوراء»، قلت للسيّدة.. كسرت ما تبقّى من زجاج النافذة وخرجت من نافذة السائق، لكن رجليّ لم تساعداني، فجثيت على الأرض.

لامست يدها كتفي.. «عليك أن تبقى مكانك، لقد اتصلت بالنجدة».

لكنني نهضت على أية حال، بساقيّ المرتعشتين، لكنني كنت واثقًا أنني سأكون بخير.

«يا إلهي ماذا تفعل؟ يجب ألا تتحرك، سوف تجعل الأمور أسوأ، من الممكن أن تكون قد أُصبت بارتجاج دماغ، ربّما كسرت بعضًا من عظامك، أو..».

تخطيتها ومشيتُ على الطريق.

«حبيبتي»، قُلت لها.. «يجب على أن أصل إليها، إنها تموت».

سمعت دويّ صفارة إنذار على بعد عدّة شوارع، أسرعت بخطواتي، التي كانت غير سريعة كفاية.

شعرتُ برئتيّ تحترقان وأظن أنني كسرت ركبتي اليمنى.. لم يخطر على بالي مطلقًا أن الركبة قد تصاب بالكسر، لم أسمع أحدا من قبل قال: حسنًا، سأكون بخير، إنها ركبة مكسورة فقط.

«يا إلهي، هل هناك أحد آخر في السيارة؟ حبيبتك؟ الإسعاف قادم، المُسعفون سوف...».

وبعدها لم أستطع أن أسمع كلمة مما قالت.

كل ما استطعت أن أفكّر به، هو أنني حاولت، حاولت كل جهدي، لكنني أخفقت.

سطع ضوء مُبهر خلف بؤبؤي، وشعرتُ بدماغي يطوف في جمجمتي، وبأسناني تصدر موسيقى من داخل لثّتي، وشعرتُ أن قلبي قد وُصل إلى مأخذ كهربائيّ مكشوف وسط إعصار استوائيّ.

بكلمات أخرى، لقد حدث.
لقد حدث الأمر مجددًا.

•••

الفصل الرابع

أربعة طبقات للأسى

العجز

الأسوأ من أن تفقد شخصًا تحبّه، هو أن تفقده مرّة أخرى مجددًا.

يقول النّاس أنهم سيفعلون أي شيء لرؤية من فقدوهم مجددًا، وسماع صوتهم مرة أخرى، لكن ما لا يحسبون له حسابًا هو أنهم سيفقدونهم مجددًا. ولا يصبح الفقدان أسهل، بل أسوأ بكثير.

«عذرًا، أنت تسد الطريق»، قالت (كيت).

«معذرة، سأبتعد عن طريقك.» وقد فعلت، ابتعدتُ عن طريقها، عن مجراها، عن كل محيطها.

لأنه بالرغم من كل شيء مررنا به سويّةً، بالرغم من أنني سعيد جدًا لرؤيتها على قيد الحياة مجددًا، لم استطيع أن أفعلها مجددًا.

أنا آسف، أنا فقط لا استطيع.

لا تكرهوني، لأنني سأقول شيئًا غبيًا بشكل سخيف لدرجة لا تصدّق.

سأستشهد بصيغة مبتذلة لأبرر هربي من (كيت): لقد استهلكتُ أمنياتي الثلاث.

فقد خطر على بالي عندها (حسنًا، فكرتُ بالأمر من قبل، لكنني أرسلت الفكرة مباشرة إلى أعمق وأظلم مكان في زاوية عقلي).. أنه ربّما ليس على أن أنقذ (كيت)، أنّه ربّما لم يكن علينا أن نلتقي أساسًا.

باعتقادي الطريقة التي استطيع أن أنقذها فيها هي أن أتركها لوحدها.

استهلكت فرصي الثلاث، وأخفقت، بشكل سيئ جدًا.

يئستُ تمامًا، وفعلتُ ما كان على فعله منذ البداية.

اقتحمت المطبخ ومشيتُ بين الجمع ثم قلت للمتجمعين حول التلفاز، أن يترقّبوا عودة فريق الولاية بطريقة مذهلة، «استحالة يا رجل»!، قالوا لي بعدم اهتمام.. لم أجادلهم، شققت طريقي مراوغًا بين الراقصين وحاملي كؤوس الشراب حتى أصبحت خلفها تمامًا.

استدارت نحوي، وكأنها تعرف ماذا سيحدث الآن، وكأنها كانت تنتظرني.

«(جاك)»، نادتني (جيليان)، «ماذا تفعل؟».

«ما كان يجب على فعله منذ زمن بعيد».

سَحبتها نحوي، وحدّقتُ في عينيها، ثم ضغطت بشفتيّ على شفتيها.. توقعتُ أن تدفعني عنها، لكنها لم تحرّك ساكنًا سوى أنها فتحت ثغرها، فانساب لسانها الدافئ بين شفتي، احتضنت رأسي بأصابعها.

ولم أتخيل أن تسير الأمور بهذه الطريقة، لكنني كنتُ مطمئنًا من أن كل

شيء سيكون على ما يرام.

•••

كيف تخون حياتك

عجبي الوحيد كان أن (فراني) لم يبرحني ضربًا.. بعد.

فقد دفعني، واصطدم بي، ثم حدّق بي مرارًا وتكرارًا في بهو المدرسة بنظراته التي توحي بأنه يرغب بقتلي بأبشع الطرق، لكنه لم يقرر القضاء عليّ، وكنت أعلم أنني استحق كل أنواع الأذى.

تصرّف (فراني) بلطف مع (جيليان)، بل زاد لطفه، ولعلّ مقولةَ أننا لا نقدّر ما لدينا حتى نفقده واقعية.

لم أشأ أن أعيش دون (كيت) حتى أشعر بمدى أهميتها وأقدّرها. وقررتُ أن حياتي لن تتغير دون وجودها. إنه من الصعب أن تكون نذلًا، أو أن تعرف أن صديقك المقرب السابق يرى أنك أكبر نذل عرفته البشرية، وأن تصدّق ذلك بدورك.

ولا أستطيع القول إن السعادة كانت تغمر أنفاسي، لكنني كنتُ سعيدًا بوجود (جيليان)، فهي تفهمني، وتعرف حقيقتي. وحقيقة أنني قد قضيتُ السنوات الأربع الأخيرة من حياتي وأنا أكبر معها هي أمر مهم، لقد ساندتني، ومازالت تساندني.

•••

خيبة أمل الماضي

حاولت أن أبقي الأمر كتمانًا قدر الإمكان وألا أخبر والديّ. وقد سألاني مرارًا وتكرارًا: «أين (فراني)؟ هل هو بخير؟ هل علاقتكما جيدة؟».

رفعت شوكتي، وغرزتها بملفوف الكرنب، وتساءلت لماذا يقترن الكرنب دائمًا بالتوتّر؟

يحضر التوتر والانزعاج على طاولة العشاء في كل مرة يكون فيها الكرنب حاضرًا، إنّي أشعر بالحزن على الكرنب، فالجميع يكرهونه لسببين.. الأول: هو أنه ما من أحد يجيد طهيه، والثاني: هو أنه مقترن بعشاء فظيع حيث لا يوجد على الطاولة سوى الأخبار السيئة، مسكين ملفوف الكرنب. في الحقيقة، أحب الكرنب، فأمّي تُجيد طهوه.

لكن طعمه كان مختلفًا في تلك الليلة.

ومن السهل أن أقول إنني لم أرَ والديّ غاضبين لهذه الدرجة من قبل، وبالأخص بسببي.

ولإيضاح الأمر، صنعتُ جدولًا حول ذلك:
جدول أبي وأمي للحزن العميق وخيبة الأمل الكبرى فيّ

أبي	أمي
كم مرّة أمضى الليل عندنا؟ ألف؟ ثلاثة آلاف؟ أظن أن رقم ألف واقعيّ جدًا. أنا وأمك فعلنا ما بوسعنا لتربيتك بشكل حسن. يردد كل أصدقائنا أنّك صبيّ جيّد. ماذا سيظنّون الآن؟ (فراني) ليس لديه أصلا الكثير من الأحداث الجيّدة في حياته والآن يستطيع أن يضيف على اللائحة الخيانة من شخص من المفترض أن يكون صديقه المقرّب، رائع! إنني لا أفهم.. ألم نعلّمك مدى أهمية وقداسة الصداقة؟ من تكون اليوم؟ لأنك لست (جاك) الذي أعرفه، أين ولدي (جاك)؟ هذا ما أريد معرفته. بجديّة، من أنت؟	أنا فقط لا أصدّق أنك فعلت هذا بـ(فراني)! إنه صديقك المقرّب يا (جاك)! لقد استحممتما سويًّا! لا أستطيع أن أعبر لك عن مدى خيبة الأمل التي أشعر بها بسببك الآن، أتمنى لو أجد طريقة، لكن لا أظنني سأفعل. حسنًا، على مقياس خيبة الأمل من ٠ إلى ١٠، على فرض أن ١٠ هي الأسوأ، كأن تكون مجرمًا أو شيئًا من هذا القبيل، ما فعلتَه أنت يستحق تقييم ٨.٥ أتختار (جيليان) على (فراني)، (جاك)؟ لا يجب أن تخذل أخاك من أجل أيّة امرأة، حتّى أنا أعرف هذا، ألم تسمع بها من قبل؟ إنني أقوم بمتابعة كل مباريات (فراني)، حرفيًّا لم أفوّت أية مباراة، هل ترى كم سيبدو الأمر غريبًا، إن استمررت بالذهاب لمتابعته علمًا بأنه لم يعد صديق ابني؟ هل فكّرت بهذا مسبقًا يا (جاك)؟ أقوم بالشراء من المتجر حاجيات إضافية فقط؛ لأنني أعلم أن (فراني) سيكون هنا، والآن ماذا؟ أتريدني أن أعيد ترتيب استراتيجيتي في شراء الحاجيات من المتاجر؟

أنت شخص سيئ يا (جاك)

وأنا أتفهم ردّات فعلهما بالطبع، فأنا غاضب من نفسي أيضًا.

لكن ما الذي كان على فعله؟

الاستمرار بالمحاولة مرارًا وتكرارًا؟

كان ذلك عبثًا.

أنا آسف.

لقد حاولت وفشلت، من ثم حاولت مجددًا وفشلت مجددًا.

ما الخيار الذي أملكه؟

ما الحل برأي القارئ؟ سأنتظر جوابًا.

الدرس رقم أيّا يكن: من الضروري مراقبة الأنماط المتكررة.

عندما تمر بنفس التجربة، أو على الأقل لحظات مشابهة جدًا لما حصل عدّة مرات، يكون من السهل على دماغك أن يقوم بتركيب هذه اللحظات بمشهد واحد.

المشكلة أنك تقول أشياء لن يقوم بفهمها الطرف الآخر، لأن التفاصيل الصغير لا تكون متشابهة تمامًا.

جيليان: مرحبًا، أين أنت؟

أنا: انظري نحو الأعلى.

رفعت عينيها عن كومة من عجين البيتزا كانت تخبزها، فقط لتراني أقوم بحركات راقصة غريبة أمام نافذة واجهة المتجر، بجانب الصورة الرثّة العملاقة للبيتزا، فَتحتُ الباب، دخلت الرياح إلى المكان من ورائي ليحدث الباب صوت صرير.

«لقد تأخرت يا (جاك كينغ)»، قالت (جيليان)، وهي تتكتّف.

«أن تصل متأخرًا خير من...»، وقفزت إلى وراء المنضدة وقبّلتها عوضًا عن إكمال جُملتي، مما جعل أنفها ينكمش بسبب أنفي.

كم مرة حلِمت بذلك؟ أن أُقبّل (جيليان)، أن تقبّلني (جيليان) بدورها، حصلتُ على ذلك.

توقفنا عن التقبيل عندما ابتسمت، ووضعت يدها على خصرها. «إذًا، سوف تساعدني في الفرنسيّة أم أنّك أتيت إلى هنا لتأكل وجهي؟».

«هممم».. قلت لها وأنا أنقر على ذقني، «حتمًا الخيار الثاني»، وتمايلت لأقبّلها، فابتعدت بِدلال.

«حبيبي، هيّا، أرجوك»، توسّلت لي «سأفل باختبار اللغة الفرنسية».

«لن تفسلي، ففكرتك عن الفشل هي الحصول على علامة جيد جدًا بدلًا من ممتاز».

«حسنًا، إذا كنت أريد أن أدرس في جامعة «ويتير»، فأنا أحتاج أن أتعلّم اللغة، ألا تعتقد ذلك؟ وإلّا، كيف سيمكنني أن أعيش برفاهية؟».

أحسست بالضيق، لأنه صدقًا عندما أفكّر بشكل جدّي بالمستقبل أشعر أنه من الصعب على تخيّله بدون (كيت).

وجلّ ما في الأمر أنني أشعر بأن (جيليان) تقرأ أفكاري لأنها سألتني، «هل تعتقد أننا فعلنا الصواب؟ القرار بأن نكون سويًّا؟».

هذه ليست المرّة الأولى التي تجول برأسنا هذه الأفكار بصوت عالٍ.

وفي كلّ مرّة أرد فيها بنفس الجواب، «الطريقة التي سارت بها الأحداث، بدى وكأنه القرار الوحيد الذي كان علينا اتخاذه».

«نعم»، قالت لي بنبرة مترددة. «هل ستأتي لتناول العشاء الليلة؟ ستعدّ أمي طعامك المفضّل».

«نقانق الفاصوليا البيضاء الحارّة؟».

«أنت فتَىً مُدلّل».

«كيف حال والدتك؟».

هزّت (جيليان) رأسها، «لقد تحدثنا عن الموضوع مرّة أخرى».

«عن والِدك؟».

«أكثر ما يزعجني في الأمر، بغض النظر عن الأشياء العديدة الأخرى، التي تزعجني، ليس حال أمي، بل تأثّري بحالها، وأعلم أنه يبدو أنانيًا مني قول هذا».

«هذا ليس أنانية، (جاي)، أنتِ لديك مشاعر أيضًا».

«يجب عليك ألا تُشفق على أهلك، أعني، ليس بهذه الطّريقة».. توقفت عن خَبز العجين..»، في كل مرة آتي بها إلى المنزل، أشعر وكأنها تنتظرني فقط، جاهزة للانقضاض، وكأنها تعيد تحويل كل الطّاقة التي كانت تعطيها لأبي إليّ. وأنا أحب أمي، لكن.. هذا يشكّل ضغطًا على أحيانًا، وهي مشتتة جدًا، سعيدة وحزينة، تضحك وتغضب و.. هذا يسبب لي ضغطًا هائلًا. عدا عن أنّها أعادت ترتيب كُل الأشياء في المنزل».

«مثل ماذا؟ الأثاث؟ إنها دومًا ما تفعل هذا، أليس كذلك؟».

«ليس فقط الأثاث، كُلّ الأثاث، والبارحة دخلت إلى المنزل لأرى الصحون والأطباق والأقدار، كل طعامنا، كل حجرة المؤن كانت منتشرة على المنضدة وأرضيّة المطبخ».

«ماذا؟ لماذا؟».

«لأنها شعرت أن الأشياء يجب عليها أن تبقى منظّمة».

«واو».

«نعم».

«هذا محزن».

أومأت (جيليان) برأسها، «جزء مني يرغب أن يعود أبي ويعوَض أمّي، لكي تعود أمي كما كانت، لكنني لا أرغب برؤيته مجددًا، ورأيي بذلك يتغير كلّ حين، أتقلّب بين الاشتياق له وعدم الرغبة برؤيته مجددًا، فما يحدث الآن هو بسببه، لكنه رحل، كيف استطاع الرحيل يا (جاك)؟».

«لا أعرف، أنا متيقّن بأنه يشتاق اليكِ، أنا متيقّن بأنه الآن في مكان ما حزين ونادم».

«أتمنى ذلك،» قالت (جيليان).. «لكن كلّما أتخيّله، أتخيّله سعيدًا في مكان ما، أراه يضحك، يتقلّب على رأسه وكأنه ذئب، ها» قالتها باستهزاء.

«أتعتقدين أن (فراني) يشعر كما تشعر أمّك؟».

هزّت (جيليان) كتفيها، «أمّي خسرت حُبّها وصديقتها العزيزة، (فراني) خسر الحُب وأفضل صديقين له، قم أنت بالحِساب».

«أكره الرياضيات».

مسحت (جيليان) العجين العالق على يديها بمئزرها،» سمعت بأن «الكوبون»

قد أطلق سراحه.»
رفعتُ حاجبيّ، «حقًّا؟».
لكني كنت أعرف مسبقًا.
غدًا سألتقي بوالد (فراني).

•••

ما أعرفه مُسبقًا

«سيّد (هوجان)»، قلت وأنا أمدّ يدي.
لكن والد (فراني) ضحك، أمسكني من كتفاي، «ها، أنظر اليك، أنت رجل مكتمل النضوج الآن، ذقنك أصبحت زغبة».
وكنت على وشك القول حسنًا، لقد مرت ثمان سنوات، لكنني اكتفيت بالابتسام.
«من الجيّد رؤيتك، يا سيّدي».
«إمّا ان تناديني (فرانسيسكو) أو لا تنادني بأيّ اسم على الإطلاق، وإيّاك أن تفكر بمناداتي سيّدي مجددًا».
«حسنًا»، قلت له، وقررت في داخلي أنني لن أنادي والد (فراني) بأيّ شيء، «إذًا، سبب رغبتي بمقابلتك هو..».
«انتظر قليلًا،» قال والد (فراني)، مناديًا للنادلة، «ألديكم أي مشروب جيّد على البار؟».
قامت النادلة بإخراج اللائحة.. «سآخذ كأسًا طويلًا من المشروب الأخير يا عزيزتي».. قال وهو يرمقها بابتسامة جعلتها تحمرّ خجلًا، مما أكّد لي أن تلك الابتسامات الجذابة متوارثة. التفت نحوي وقال: «الآن، لمَ نحنُ هنا؟».
ضحك لمدة ثلاث دقائق متواصلة عندما أخبرته بالسبب، لكنه وافق على مساعدتي.
«شيء آخر، يا سيّد (هوجان)».
فقط لأن (فراني) يمقتني لا يعني أنني لا أهتم بما حصل له، أو لـ(كيت)، أيضًا أنا أقوم باتخاذ خيارات متعددة في الوقت الحالي، ما زلت أريد أن يكونوا سُعداء، أن ينالوا ما يحتاجوه.
«قلت لك أن تمتنع عن دعوتي بسيّد هراء».
«آسف، كل ما في الأمر يا سيّد، آه..، كل ما في الأمر أنني أعتقد بأنك لا تعلم مدى اشتياق (فراني) لكَ».
مضغ والد (فراني) عود أسنان، نحن في بار ومشوى اختاره هو، وزعم أنّهم

يقدّمون أفضل لحم بقر مجفف، بالرغم من أن كل ما طلبَه هوالبيرة.

انتظرت ريثما قضم لقمة كبيرة من شطيرته وأخبرته عن الأشياء التي لا يريد (فراني) أن يعرفها والده.

«في عيد ميلاد فراني الثاني عشر، انتظرك على النافذة لمدّة ثلاث ساعات، انتظرك رغم أن جدّه أخبره أنك لن تأتي، برغم هذا هو يعرف في صميم قلبه انّك لن تأتي، أنك لن تستطيع القدوم، انها المرّة الوحيدة التي رأيت فيها (فراني) يبكي عندما كنّا صغارًا».

«فراني؟ يبكي؟ يصعب على تصديق أنه كان يهتم كفاية بما أفعله ليبكي».

«أتعلم أنه بعث إليك مئات الرسائل الإلكترونية، عندمًا كنت في السجن؟».

حدّق بي»، لم تصلني ولا واحدة».

«لأنه لم يضغط على زر إرسال ولا مرّة».

«ولماذا يفعل شيء كهذا؟ لماذا يقوم بكتابة رسائل إلكترونية ولا يرسلها أبدًا؟».

«لأنه كان يخشى ألّا تردّ عليه، أظنه فضّل ألا يسمع أخبارك منك على أن يحاول التواصل معك ولا تردّ عليه».

«هذا غباء»، قال والد (فراني)، لكن أستطيع أن أخبركم بأن الطريقة التي قال بها غباء، إنّه لا يعنيها.

«هل تعلم بأن فراني اختار لعب كرة السلّة بالرغم أنه أفضل بكرة القدم، لأنه كبر وهو يشاهدك تلعب كرة السلّة في الحديقة؟».

«هل يتذكّر هذا؟».

«مازال (فراني) يحتفظ بملاحظاتك اللاصقة، التي على الأغلب لا تستطيع أن تتذكرها، لكنك خربشت بِضع كلمات على قصاصة خضراء من الورق ولصقتها على حقيبة غذاء (فراني) البنيّة قبل المدرسة، (فراني) مازال يحتفظ بها، إنّها في دُرج جواربه».

«استحالة».

«إنها الحقيقة، إنه يظهرها عندما يظن أنّه غافلني».

وأنا أعلم أنني أخون (فراني) مجددًا، بالبوح عن حقائقه العميقة.

لكن أحيانًا نرتكب الأخطاء لأهداف نبيلة.

•••

أخبار الطبيب

«ممّ تتكون هذه الحقن على أيّة حال؟».

«أنزيمات الزّنك».
«وهي تحتاج كِلا الحُقنتين؟».
أومأ الطبيب (سوونمي)، «بدون الحقنتين، ستعود حالتها إلى النكوص مجددًا، نعم».
«أتفهّم ما تقول».
«هل هذه المشكلة، (جاك)؟ أن تأخذ (كيت) جُرعتين؟».
«كلّا،» قلت له، «لا مُشكلة».
«لأنك تعيد ذِكر الموضوع للمرة الثالثة أو الرابعة، إذا كُنت قلق من المبلغ، قلت لك مُسبقًا، لا يوج..».
«ليست النقود ما تُقلقني، إنه فقط، هل انت متأكد بأنّه لا يوجد طريقة للإسراع بالحُقنة الثانية؟».
«لا، ليس دون مخاطرة جدّية، (جاك)».
«وأنت تعلم هذا لأنك حاولت مسبقًا؟».
«لم أحاول مسبقًا، لا»، اعترف لي»، لكن بناءً على الأبحاث..».
تقدّمت نحوه وانحنيت، «أيها الطبيب، ما الذي حصل لجملة لِندع مجالًا للمعجزات؟».
«معذرة؟».
«أعني، العِلم هو ما عملك أنت بشكل واضح، صحيح، لكن، ألست بحاجة للإيمان أيضًا؟ بعض الأمل؟».
الإيمان والأمل يلعبان دورًا بالطبع يا (جاك)، لكن لو كنت..».
توقف عن الكلام ثم أكمل: «الإيمان والأمل مهمّان، طبعًا».
«أنا أؤمن بك أيها الطبيب».
جلس الطبيب (سوونمي) يتفحّصني عبر مكتبه.
انحنيت على مكتبه وقلت، «إذًا، سوف تقبل بها كمريضة؟»
«أفضّل أن أراها بدايةً، للتعرّف عليها قبل أن نقرر العِلاج».
«جيد»، قُلت له»، لكن دعني أحذّرك، إذا تعرّفت عليها، يجب عليك أن تعالجها حُكمًا، من الاستحالة أن تتعرف على (كيت) وترفض مساعدتها».
أطبق الطبيب (سوونمي) كِلتا راحتي يديه على المكتب أمامه وقال، «منذ متى وأنت تعرف (كيت)؟».
حسنًا، أيها الطبيب، عمليًّا نحن نعرف بعضنا منذ سنة لكن في هذه المرحلة من تاريخنا أنا غريب تمامًا على (كيت)؛ لأنني على ما يبدو علقت في حلقة من

السفر بالزّمن، وبدل من إخراج الأشياء من جديد، اخترت أنا الجّبان أن أهرب بالاتجاه المقابل، لذلك...

«في الحقيقة، نحن لسنا..، آه، كل مافي الأمر أنّه..، يبدو أن الأمر غريبًا لكن..، أحيانًا ليس من الضروري أن تتعرف على أشخاص لتعرفهم، هل تفهم ما أقصده هنا؟».

«(جاك)، أنت تقول لي إن (كيت) لت تعرفك إطلاقًا؟».

«ليس إن صِغتها بهذه الطريقة».

«أحقًّا؟»، قال لي الطبيب، «إذن صِف لي علاقتك بـ(كيت)؟».

«معقّدة».

«معقدّة»، كرر ورائي وأضاف مُبتسمًا ولأوّل مرة منذ أن وطئت أقدامي مكتبه، «أتمنى لو استطيع أن أقول لك ستصبح الأمور أسهل عندما تتقدم في العُمر، لكن كطبيب أقسمت ألا أسبب أي أذى».

«من الجيّد معرفة أنني لست الوحيد الساذج في الحُب».

«إذًا» قال لي وقد اكتست وجهه بتعبير يوحي بأنه ما عاد يرغب بالاستماع إلى المزيد من الحماقات.

«ان كانت (كيت) لا تعلم من أنت، كيف ستقنعها بالمجيء ورؤيتي؟ وجعلك، أنت الغريب، تدفع عنها تكاليف العِلاج؟».

«لديّ خُطّة».

لا، لم تكن لدي خطة.

لكنّي وجدتُ خطّة لاحقًا، ولا أقول إنها كانت خطّة جيّدة.

«مرحبًا، السيّدة (إدواردز)؟».

«من المتحدّث؟».

«معذرةً، اسمي هو... إمم... (ثِرْغود مارشال توماس الثّاني)، إنني عضو في مجلس أمناء جامعة «ويتيير»، لكننا نستطيع أن نتحدث دوري في الجامعة لاحقًا».

«هل هنالك من خطب مع (كيت)؟».

«هاه؟ أعني، ماذا تقصدين يا سيّدة (إدواردز)؟».

«أعلم بأن علاماتها قد انخفضت قليلًا، فقد دخلت وخرجت من المستشفى مرارًا وتكرارًا في الفصل الماضي، لكن أؤكد لك بأنها متفانية تمامًا بما يخص دروسها».

«ما من داعٍ لذلك يا سيّدتي، في الحقيقة هذا هو سبب اتصالي بكِ اليوم، إن هدفي هو مساعدة (كيت) في استكمال تعليمها هنا في «ويتيير».

«لا أعتقد أنني أفهم مقصدك».

«مرضها، سيّدة (إدواردز)، نريد المساعدة في علاجها».

أنت تريد أن... لا أعتقد أنني أفهم».

«نحن نقوم بتحضير حملة تبرعات كبيرة نيابة عن لإرسالها لواحد من أفضل أطباء علوم الدّم في العالم، ونأمل أن يضع خلايا الهيموغلوبّين المنجليّة تحت السّيطرة على الأقل».

«لا يوجد طريقة أبدًا لنتحمل تكاليف هذا، والدها وأنا لا نملك...».

«إننا قمنا بالإجراءات مسبقًا، سيّدة (إدواردز)، أنتِ وعائلتك ليس عليكم أن تدفعوا أي شيء».

ساد الصمت فظننتُ أنها أنهَت الاتصال.

«سيّدة (إدواردز)، هل ما زلت هنا؟».

«نعم... أنا هنا... سيّد؟».

«(توماس)».

«سيّد توماس، هل استطيع أن اسألك سؤالًا فظًّا، سيّدي؟».

حاولت جاهدًا أن أفكر كيف لفاعل خير ثريّ أن يتصرف ويقهقه، شيء بين لا تكوني ساذجة وإنني أمسح مؤخرتي بفاتورة قيمتها خمسين دولارًا لأنني فقط أريد ذلك، «رجاءً اسألي، سيّدة (إدواردز)».

«هل انت وابنتي... هل أنتما... هل تنام مع ابنتي؟ هل هذا هو السبب الذي يدفعك لمساعدتها؟».

«سيّدة (إدواردز)، لأخبرك الحقيقة، لم أُقدّم رسميًا لابنتكِ بعد، لكن استطيع أن أؤكد لكِ أنه لا يوجد شيء من عدم الاحتشام هنا، في كُلَ سنة تراجع الهيئة عشرات الطّلبات لمتقدّمين قد يكونون بحاجة لبعض المساعدة، هذا شيء نقوم بالتوصية به على الدّوام، ولأكون واضحًا أكثر، نقدّم المساعدة المالية للطلّاب التّواقين للعودة إلى الجامعة التي يحبّونها، وطلب ابنتك هو الطّلب المُختار لهذه السّنة».

«إذا، هذا شيء قدّمت طلبًا لتحصل عليه؟ (كيت) عبأت طلبات لهذا الأمر؟».

كلّا، نحن نعمل أيضًا بقاعدة ترشيحات، (كيت) تمّ ترشيحها من قِبل أقرانها».

«هل تستطيع أن تخبرني من قام بفعل هذا؟ من رشّح (كيت)؟».

«أخشى بأنني لا استطيع ذلك، لكن يمكنني إخبارك بأنه وبمباركتكِ أنتِ و(كيت)، نحن توّاقون لنبدأ، أريد منكِ أن تعطيني عنوان بريدك، وأفضل وسيلة اتصال، لنستطيع أن نبقى على تواصل، سيّدة (إدواردز)؟».

المزيد من الصّمت.

«سيّدة (إدواردز)...».

«أنا فقط لا استطيع تصديق ما يحصل، أنا ممتنّة، أنا، لكن...، حسنًا، اعذرني على سخريتي، لكن...،».

«سوف أُرسل لكِ الأوراق الرسمية، عزيزتي، سترين، كل شيء يسير بسلاسة».

«لا أعلم ما الذي على قوله».

«ليس عليك قول شيء عزيزتي، لقد أنشأتِ طفلّةً استثنائيّة، الجامعة هي من تودّ توجيه الشّكر لكِ».

عدّلت حنجرتي وشعرت بأن صوتي بدأ بالحشرجة، «إذًا، ما رأيك أن ندع كرة الثّلج تتدحرج؟».

•••

مشاكل متتالية

حتّى بعد تمثيلي لدور (ثِرغود مارشال توماس الثّاني)، أو ربّما يكون السبب المباشر، إنه من الآمن القول إن والدة (كيت) مازالت متشككة، بالطبع، لكن أخيرًا بعد أن سلّمتها كل معلومات المواعيد، مصحوبةً برسالة تشرح الأمر مطبوعة باسم جامعة (ويتيير)، مستخدمًا معجزة الفوتوشوب، موضّحا فيها أنه يتم تقييم الحاجة لدفع الرسوم مع هاتف مباشر يستحيل أن تتعقبه لخرّيجي (ويتيير) لجوابها عن أي سؤال، بدأت تدريجيًا بالتصديق.

أقوم بما وسعي لمشاهدة (كيت) عن بُعد، مما يثير الامتعاض؛ لأن محاولة مشاهدة شخص من على مسافة هو تمامًا ما يبدو الأمر عليه، كمشاهدة شخص من على المِنظار.

بالطبع، أن تكبّر زاوية الرؤية عليهم، وتستطيع أن ترى كلَ شيء يفعلونه بشكل مكبّر، لكن هل تستطيع حقًّا أن تقول إنك تعرفهم؟ عندما تغفل عنك كلّ تفاصيلهم، ما الذي يحدث من حولهم، ما الذي يشعرون به حقًّا، بماذا يمرّون؟

وكلّ شيء يذهب أدراج الرّياح، لأن أفضل جزءٍ من حياتي مؤخرًا هو (كيت)، عدا أنّه في هذه الحياة، لا أعرفها على الإطلاق، إنها ليست حبيبتي، إنها ليست صديقتي، إنها ليست حتّى من معارفي، أنا لا شيء بالنسبة لها، وهي من المفترض أن تكون لا شيء بالنسبة لي.

وبالرغم من ذلك...، هذا الشيء الوحيد التي لن تكون عليه على الإطلاق.

أحيانًا أشعر بأنني أخون (جيليان)، أقضي معظم وقتي أرتّب الأشياء وأراقب تقدّم (كيت) وأتكلّم مع الطبيب (سوونمي) الذي أعلمني أنه إن لم أحصل على

موافقة كتابيّة من (كيت) لن يستطيع مناقشتي بشيء عنها سوى تفاصيل علاجها، وأنّه لم يجب عليه مناقشتي بالسكتات الدماغية التي تحدث عنها مسبقًا.

اليوم أقتطع وقتًا قدره ثلاث دقائق من موعد من مريضه ليحدّثني.

«لا أريد أن أزجّ بك بأيّة مشكلة، ان لم تشعر بالرّاحة وأنت تتحدث معي عن عملك، سأفهّم ذلك، لا أريد منك أن تشعر بأنك مُلزم».

«أظن أنني أشعر أنك تستحق أن تعرف شيئًا، لا أعرف (جاك)، الأمر معقّد».

ضَحِكت.

«إذًا، لِمَ هذه الفتاة (جاك)؟».

هززت كتفي بحركة لامبالية، «فقط أدفع مُقدّمًا».

قلّب عينيه ساخرًا، «بحقّك، (جاك)، تستطيع فعل شيء أفضل من هذا».

«لأنها واحدة من هؤلاء الناس الذين يخوضون حياتهم لرعاية الآخرين، تقديم كل ما لديهم للآخرين، إنها تستحق أن يفعل لها أحدهم ذات الشيء، إنها ذكيّة جدًا، فكاهيّة جدًا، وهذا الكوكب يحتاج لها هنا مادام يستطيع المحافظة عليها».

«إذًا، أنت تُحبّها».

«ليس أنني لا أحبّها».

(جيليان) إقناعها دائمًا ما يكون أصعب.

تريد أن تعرف لماذا أقوم بالذهاب إلى مستشفى الطبيب (سوونمي).

أو لماذا أصبحت مهتمًّا فجأة بمرض فقر الدّم المنجلي.

أو ما الذي علينا فعله إذا التحق (فراني) بجامعة «ويتيير».

ومن الذي سوف يأخذ مكانه في الفرقة؟

كل ما سبق هو أسئلة جيّدة جدًا، لم أجد إجابات عن أيّ منها.

•••

الحديث المهم

كنّا في طريقنا إلى الجامعة عندما أخبرتني (جيليان)، «(فراني) أخبرني أنه بحاجة للتحدث لي».

«متى؟».

«بعد الجامعة».

«اليوم؟».

«اليوم».

«حسنًا».

«نعم».

«هل على أن أكون متواجدًا أيضًا؟».

«لا أعتقد هذا».

«حسنًا».

«أعني، لا أريد للوضع أن يتفاقم أكثر من ما عليه الآن، تعلم هذا؟».

«كلّا، نعم، بالطّبع، إنّه منطقيّ».

«إذًا، هل تستطيع أن تجد من يقلّك إلى المنزل؟ بعد الجامعة؟».

«بالطّبع».

أمضيت بقية يومي في الذهاب إلى المحاضرات، لكن لم أتعلّم شيئًا سوى أنني فكّرت كيف يكون من الجّيد أن تقابل (جيليان) (فراني) وتتحدث معه عن حقيقة أننا خنّا ثقته، وأصبحنا سويّة من خلف ظهره.

«كيف سار الأمر؟».. سألتها حالما وصلت عتبة درج شقّتي.

«لقد آذيناه يا (جاك)».

«نعم».

«كلّا،» قالت وهي ترفع مخدّة وتضعها مكانها على الأريكة.. «لقد آذيناه حقًّا».

«ماذا قال؟».

«ليس كثيرا في الحقيقة، كان الأمر مجمله أنني أعتذر، ثم نظر إلى وقال، أنا لا أعتقد أبدًا أنك ستفهمين كم كنت أكنّ لكما من الحب أنتما الاثنان».

هذا لم أكن ما توقعته، أحسست بأنني طُعنت مجددًا.

«اللعنة».. قلت.. «وماذا كان ردّك؟».

هزّت (جيليان) رأسها، «لا شيء، فقط جلست هناك وأنا كارهة لنفسي، بعدها أمسك يدي بيده وقال، كل ماكنت أتمناه لك أن تكوني سعيدة» وما زلت أتمنى هذا».

«أشعر بأن هذا الجزء الذي على فيه أن أكون أمام فرقة رماية تطلق الرصاص».

«أنت وأنا معًا»، وافقتني (جيليان). «وسوف ننجو من هذا العقاب بسهولة».

•••

انفجار الحقائق

كنا أنا و(جيليان) في المشفى سويةً، نقوم بزيارة قريبها، الذي يعاني من

الزائدة الدودية التي على وشك الانفجار، عندما التقيت بأكثر صدفة عشوائية بشخص لم أتوقع أبدًا أن أراه في أي مكان على هذه الأرض، دخل إلى المصعد وطلب بصيغة الأمر، «الطابق السادس يا أخ».

لا أحب النظر في العيون عندما أكون في المصعد عادةً؛ لأنه من الغريب بما يكفي أن نقف بلا حراك في صندوق بالقرب من أشخاص غريبين.

لكن صوت هذا الشّاب، الطريقة التي قال بها يا أخ بدل أن يقول من فضلك، وكأن تلبية أوامره جزء من عملي، وكأنني مشغّل هذا المصعد وكنت هنا جالسًا مع أصابعي الجاهزة للضغط بحماس كبير منتظرة أحد الحمقى ليأمرني بإيصاله إلى طابق ما.

لقد تعرفت عليه مباشرةً، لكن طبعًا إنه لا يملك سببًا وجيهًا لمعرفتي، وحتى لو كان يعرفني، جاء لي وكأنني ذلك النوع من الأشخاص الذين تراهم وتميّزهم لكنك لا تزعج نفسك بتذكر اسمهم، أو حتى كيف تعرفوا عليك، لذا عوضًا عن ذلك يقولون لك يا أخ.

لكن أنا أعترف بأنني منحاز.

أشرت بإصبعي نحوه وقلت، «آه، ألست أنت...،» وأردتُ أن أقول، (فلاندرز) أو (ساندرز) كرد عليه لمناداتي يا أخ، لكنّي في الحقيقة سعيد جدًا لرؤية هذا الشاب مما جعلني أتوقف عن كوني لئيمًا معه.. «أنت في جامعة «ويتير»، أليس كذلك؟» قُلت له،

فرفع (زاندر) وجهه عن هاتفه، «هل أعرفك؟» سألني.

«كلّا، رأيتك في حرم الجامعة ليس إلّا».

بدون ولا كلمة، عاد (زاندر) ليقلّب بشاشة هاتفه.

«إذًا، ماذا، إمم، ما الذي أحضر بك إلى هنا؟».. سألته.

«ماذا؟».

«ما الذي جعلك تأتي إلى المشفى؟ هل كل شيء على ما يرام؟».

«نعم، كل شيء ممتاز، أنا هنا لأجل السمك والتاكو».

قطّبت وجهي، «مهلًا، ماذا؟».

«سحقًا لك يا رجل، اهدأ، حبيبتي مريضة، لذا».

«آه، إنها مقيمة هنا؟».

«نعم».

«هل سوف تكون بخير؟».

هزّ (زاندر) كتفه إلى اعلى، «ليس بالجديد عليها، هي عمليًّا عاشت في المستشفى طول عمرها، أعتقد أنها معتادة على الأمر الآن».

«أظن أن هذا أمرٌ لا يعتاده أحد».

«ربما».. ودفن وجهه في شاشة الهاتف وأكمل، «أحتاج إلى أن أدرس الآن، لكن على أن أكون هنا، يجب على أن أكون الحبيب الدّاعم والشغوف».

«ليس عليك ذلك».

«ماذا؟».

«ليس عليك أن تكون أي شيء لها، لا أحد يجبرك على أن تكون هنا».

«ها. أنت تحاول هجر فتاة مريضة؟».

والآن أنتم تعلمون أنني لست بمقاتل، لكن أقسم لكم ضبطت نفسي بكل ما أوتيت صبر متراكم في الماضي، والحاضر والمستقبل كي لا أدفن (زاندر) في نكتته اللعينة عن السمك والتاكو.

لكنني تذكرت بأنني قد هجرت فتاة مريضة سابقًا.

إذًا الخطّة البديلة:

أولًا، قمت بتأمين رقم غرفتها من مكتب المعلومات، من ثم أسرعت إلى متجر الهدايا، وقمت بشراء كل الزهور بالمتجر حرفيًا، تطوع محاسب المتجر وأعارني عربة المتجر لنقل زهوري، بالكاد استطعت تنظيف المصعد من الزهور المندثرة في كل اتجاه، لكنني استطعت الوصول إلى الداخل، مع بتلات سليمة إلى حدٍّ كبير، بدأت السيّارة بالصعود وشعرت بتوعّك في معدتي، لقد بدأ المصعد بالتحرّك.

توقفت خارج باب غرفتها، أشعر بالغثيان الآن، ماذا تفعل هنا، (جاك)؟، عندئذٍ بدون تفكير، طرقت الباب.

«تفضّل» نادت (كيت).

دفعت بالعربة إلى الداخل، لا استطيع رؤيتها وأتخيّل أنها لا تستطيع رؤيتي لأن جدار النباتات يفصل بيننا.

خطيت أمام العربة، وها هي، مستلقية على الفراش، بكتابٍ مفتوح على حُضنها، وعيونها تحدّق بي، من الواضح أنّها لا تعرفني، والذي هو كما متوقّع، لايزال قاسيًا على مستوى أنني غير قادر على التلفّظ.

«ألستِ (كيت إدواردز)؟».

«نعم، هذه أنا».. أكّدت لي.

«لا خطًا إذًا».

جمعت ما استطعت من الباقات، ونسّقتُ الزّهور حول الغُرفة.

«من أرسلهم؟».. سألتني.

نسّقت مزهرية ملأتُها بأزهار التوليب الصفراء والحمراء على عتبة النافذة،

هناك كدسة من الكُتب، وأفلام أيضًا، (١٢ Short term)، شاهدناه معًا، حسنًا، إنها أكثر أنا شاهدته، وهي شاهدتني في جميع أجزائها المفضّلة، ماذا تفعلين؟ كنت سوف أسأل وأحمرّ بينما تحدّق، كنت فقط أريد أن أرى ردّة فعلك، كانت سوف تقول، إذا احسست بها مثلما فعلت، هل تريد مني أن أتوقف؟ أنا أثيرُ رعبك، أليس صحيحًا؟

كلّا، كنتُ سأقول، لا تتوقفي.

«هل هنالك بطاقة معهم؟».

«أه، لا، سيّدتي، ليس حسبما أرى».

ضَحِكت، «أرجوك، لا تناديني سيّدتي مجددًا».

«آه، حسنًا، آسف».

«لا بأس، وأمالت رأسها إلى العربة، «لا أفهم من قد يفعل هذا».

«حبيبك؟».. أقترح.

«من الواضح أنّك لم تلتقِ بحبيبي بعد».

حسنًا، أعترف هذا جعلني سعيدًا، لكن أيضًا غير سعيد، لأنها تستحقّ حبيبًا يملئ غرفتها بالزهور، كما أنها تستحق حبيبًا لن يتخلّى عنها فقط لأن الأمور أصبحت أصعب، لذا لا استطيع أن أتفاخر بنفسي.

«الأهل ربّما؟ أقارب؟».

«ليس من عوائدهم».

درستُ عيونها، لم أمنع نفسي عن التساؤل ان كانت في الأعماق، بمستوى يصعب إعادة إحياءه، لا تزال تعرفني.

لو أنها مثلًا حفرت في الأعماق بعيدًا كفاية في لا وعيها، من الممكن أن تجد أثرًا لنا، أنّه ربّما بالتركيبات الصحيحة للجُمل، إذا تحرّكت بطريقة معيّنة، من الممكن أن تتذكر، لكنها التقطت هاتفها، وأصبحت تضغط على الشاشة.

«هل عَرفته؟» سألتها.

نظرت إليّ، وابتسمت، «إلى أن يتقدّم شخص ما ويتحمل مسؤولية هجوم الزهور هذا، أعتقد أنه سيبقى الأمر غامضًا».

أومأت، «صحيح».

وعادت إلى هاتفها.

«حسنًا هذه هي كل الزهور».. قلت لها وأنا أتقدم لأرتب آخر الزهور على الطاولة بجانبها.

«شكرًا»، قالت لي بدون أن ترفع نظرها.

«بالتأكيد، من دواعي سروري».. تباطأت، لا أريد أن أذهب، لكن إذا ما بقيت

مدّة أطول سيصبح الأمر غريبا وغير مريح، ربّما ستتصل بالأمن، توقّفت عند ممر الباب، «حسنًا، اعتني بنفسك، أمل أن تشعري بتحسّن قريبًا».

في الممر، قلبي كاد أن يقفز من مكانه، اضطررت إلى أن أتكأ على الجدار لأتمالك نفسي.

« يا هذا، انتظر»، صَاحت، «يا هذا!» .

هل من المعقول أنها تحدث؟ هل تشعر بشيء؟ تتذكر بطريقة ما؟

تراجعت خلفًا والى الدّاخل، «تفضّلي؟».

«زهرة السّحلب، المعوفة باسم زهرة الأوركيد.»

«آه، حسنًا، السّلحب...، السّلبح...، ماذا قُلتي؟».

ضَحِكت.. «إذًا أنت لا تعرف أنها أزهاري المفضّلة؟».

«ماذا تقصدين؟».

ابتسمت «من بين كل الأزهار، وضعت الأركيدة بجانب فراشي؟ من أنت؟ هل نعرفُ بعضنا؟ هل بعث بك شخص ما إلى هنا؟».

«أنا فقط متطوع في المشفى».

«أه حقًّا؟ إذا أين معطفك الأحمر الخاص بالمتطوعين؟».

وجهة نظر جيّدة، «إنه في قسم الغسيل الجّاف» قلت لها، واستهلكت كل طاقتي كي لا أصفع نفسي على جبهتي.

حدّقت بي وكأنها لا تصدّقني، «حسنًا، شكرًا، على أيّة حال، لقد جعلت نهاري سعيدًا».

«من دواعي سروري أنني ساعدت في ذلك» قلت لها، متمنّيًا أن أقول أكثر، أنه باستطاعتي ان اسحب كرسيًّا إلى جانبها، معرفة كيف حالها، أعتذر لها عن هجري لها.

لكنني لم أستطع.

مشيت متثاقلًا إلى منتصف الطريق، ودفعتُ الباب ورائي.

بينما يغلق، نظرت اليها نظرة أخيرة، لأجدها تستنشق زهور زنبق النّمر موجّهة أعينها نحو النافذة، الرائحة تستحدث الذاكرة.

صوت إغلاق الباب.

(جيليان) في غرفة الانتظار خارج غرفة قريبها، تقضم بصوت عالٍ توتًا بريًّا جافًّا.

«ها أنت ذا،» قالت (جيليان).

«هل كل شيء على ما يرام؟».. لمست ذراعها. «هل قريبك بخير؟».

«لا يوجد خطب، كنت فقط قلقة عليك، لقد اختفيت، ولم تجب على هاتفك».

سحبت هاتفي وكأنني أصطاده، تسعُ مكالمات فائتة، مستنقع من الرسائل النصّية، كلهم عدا واحدة من (جيليان) والأخرى من أمّي تسألني بها إن كنت سآتي على العشاء، «آسف يا (جاي)».

أمالت نفسها نحوي، «اشتقت اليك، حبيبي».

لففت ذراعيّ حولها، كانت غامرة جدًا، دافئة جدًا، مريحة جدًا.

«(جاك)؟».

«نعم؟».

«هل كنت تشاهد احتفالية لولادة ما؟».

«لماذا؟» سألتها وأنا أرخي بنظري للأسفل فوق رأسها، «لا تقولي لي أن طفل أحدم بصق على بدون أن أرى ذلك».

«ليس هذا ما أقصده، تبدو وكأنك أتيت من مشتل للزهور، رائحتك تبدو وكأنك كنت تتمرّغ في تخت مليء بالزّهور».

هل تعلم كيف هي في الأفلام هنالك شخصان واقعان بالحب والذين بلا مفرّ سينتهي بهم، الأمر إلى كل تلك العثرات المصطنعة التي يرمونها أمامهم؟ كيف نحن كجمهور، نشاهد حبيبان يقاتلان ببسالة تلك المعوقات باسم الحب، لا نريدهم إلّا أن يكونوا سويّة مهما كلّف الأمر، مهما كان، يجب عليهم أن يكونوا سويّة، أليس كذلك؟

عدا أنه على الأقل واحدًا منهما، أو كلاهما، أصلا هم بعلاقات شبه جادّة، والكل يعلم أنّ الشخصيتين الأساسيتين بحاجة إلى أن يروقا لنا بشكل أو بآخر.

لذا، أنت لن تستطيع تقديمهما على أنهّما «حمقى» تمامًا وإرغامهم على هجر عشيقهما.

وهكذا، لجعل النهاية المحتومة قابلة للتصديق، يقرر الكتّاب لجعل أحد الحبيبين «أحمق» تمامًا، وبهذه الطريقة نحن نكنّ الكره لعشّاق الشخصيات السريين، لذلك ليس لدينا مُشكلة أن نقتلع علاقتهم المُريبة من جذورها، ليعودوا لأذرع حبّهم السّرمدي الحقيقي.

و بووم، النهاية الهوليوودية السعيدة، الكل رابح.

عدا أن علاقتي بـ(جيليان) ليست فظيعة، (جيليان) تقريبًا كاملة، الخطأ الوحيد الذي أستطيع نسبه لها، بغض النظر عن أشياء بسيطة وتافهة، هو أنها تعصر أسفل أنبوبة معجون الأسنان، أو كيف تترك مقعد المرحاض بدون أن ترفعه بعدما تنتهي، (أعصابي!)، وأنها ليست (كيت).

أنها ليس (كيت).

لكن طبعًا إنها ليست هي.
إنها (جيليان).
و(جيليان) بطبيعتها رائعة، ونحن سعيدان معًا طبعًا، أليس كذلك؟
طبعًا.
إذا كيف يبدو لي بأنني ارتكبت خطأً؟

•••

شيء من هذا القبيل

«منذ فترة طويلة»، جلست (جيليان) تعترف، «كنت أفكر أنه سوف ينتهي الأمر بنا سويًّا»،
الى الآن، بعد كلّ ما حصل، كنت أشعر بما كانت تقوله تمامًا، لكن من المختلف أن أسمع الأمر بصوتها، لترديد صدى ماكنت أفكّر به دائمًا.
«حقًّا؟».
حرّكت يدها جانبًا كأنها تفكّر بما تقوله وهي تقوله: «ربّما ليس في المستقبل القريب، حكمًا ليس...».
نعلم كلانا ما الكلمة التي لم تقلها.
ليس هكذا.
لكنّ الكلمة لم تتفوه بها إطلاقًا، ظلّت معلقّة، كشبح محبوس في الغُرفة.
«برغم من ذلك،» تتابع، «فكّرت أنه ربمّا كنّا سنلتقي في الثّانويّة، أنت تعلم، إذا لم يكن في الثّانوية، فبعد أن نتخرّج، ونذهب إلى جامعات مختلفة».
«نعم».
«تكون عندا أنت هذا الكاتب الرّائع، وأنا محامية مشاهير ممتازة».
«أفضل محامية مشاهير»، أقحمت جملتي.
«وكنا سوف نحضر اجتماع ما، ناضجين وعزّاب، وأخيرًا جاهزين، أو شيئًا من هذا القبيل».
«نعم،» وافقتها، «شيء من هذا القبيل».
لكن ليس هكذا.

•••

حقائب وأمتعة

أعطاني حقيبة سفر سوداء بنظرة مجمّدة كأنه لا يصدق ما يجري.

«بحقّك، لا تفعل هذا معي، عليك إخباري كيف علمت هذا».

لم أنظر داخل الحقيبة، حملت فقط رزمة مائتا ألف دولار في يديّ مرّة قبل، وهذه تقريبًا بنفس الوزن.

«كُنت محظوظًا».

«توقّف، هذا لم يكن حظ، بطريقة ما لقد عرفت، لقد عرفت، والآن لا تريد أن تقول لي من الرجل الذي ساعدك لتنجح بهذا».

«ماذا تريد مني أن أقول؟».

«ماذا عن قول الحقيقة، (جاك)؟».

أنا قادم من المستقبل، من ستّة أشهر وكنت أعلم مسبقًا أن فريق جامعة «ماندريك» سيفوز».

لوّح والد (فراني) لي، «حسنًا، لا تخبرني، لكن هذه المرّة الأخيرة أقوم بالرّهان من أجلك. مررت بظروف عصيبة لأجمع لك المبلغ، جرّب حظك مجددًا وسترانا نطفو كجثّتين هامدين على سطح بحيرة (إِريِ)».

«اعتزلتُ المراهنات».

«جيّد.» قال لي وهو يكتّف ذراعيه.

«لكن هنالك شيء آخر».

«حسنًا، أخبرني به في الحانة، المشروب على حسابك، لكن أوّلا نبيّت الأموال في مكان ما، أنا لا أتوتر عادةً، لكن اللعنة».

كانت الحانة مثل مدينة أشباح.. جلس عاشقان في مؤخرة الحانة، أوجههم متقابلة، والتقطت المرأة مشروبها بين فينة وأخرى مصحوبا بصوت قرقعة الثلج.

بعد أن طلب والد (فراني) المشروب لنا، التفت لي وقال، «إذًا، ما الذي تريد أن تتحدث به معي».

اخترت ألا أنتقي كلماتي بعناية.. «أنت لم ترَ (فراني)».

هبط من على كُرسي البار، التقط البيرة.. «نعم، حسنًا، لقد كنت مشغولًا، سأقوم بهذا، عندما يحين الوقت المناسب».

«كُنتَ مشغولًا، ستقوم بفعل هذا».. قلت لهُ وأضفت، «لقد خرجت من السّجن منذ أسبوعين ولا تستطيع خلالهم أن تقوم بمكالمة واحدة؟ لابنك الوحيد؟».

«ما أدراك ما الذي فعلته به؟».

الحقيقة أنني لا أعرف الحقيقة بنسبة مئة في المائة، لكنه يبدو رهانا آمنًا.

«(جاك)، لقد قمت بتقديم خدمة لك لأنك صديق ابني، لكن هنا يبدًا عملنا وهنا

ينتهي، لا تظنّ لثانية واحدة أننا أصدقاء الآن، أننا سوف نناقش سويّة موضوع ابني، علاقتنا ليست من شأنك».

«علاقة؟ هل تمزح؟ أيّة علاقة؟».

قفز والد (فراني) من خلف كُرسيّ البار، وأشهر قبضة يده عليّ، «لا تجعلني أخرج عن طوري، يا فتى».

«انظر، أنا آسف إن كنت قد...».

«ابقَ هنا ثانية أخرى، وسوف تكون أكثر من آسف».

«حسنًا»، أخرجت عشرين باوندًا من جيبي، ألقيت بالنقود على البار.

«المشروب على حسابي، تبًا لك».. قلت.

•••

دخلت إلى المنزل ونداءاتُ أبي وأمي، لكن لم يجبني أحد.

خلعت حذائي، جلبت الماء من المطبخ، تقوقعت تحت فراشي غير المرتّب، وبدأت جلسة تأمل طويلة في سقف الغرفة.

عندها تذكرت... الحقيبة!

مددت يدي أسفل السرير لأمسك حزام الحقيبة، لا شيء، ممددتها مجددًا، لا شيء أيضًا، جثيت على رُكبي آخذ نظرة أفضل، توعّكت معدتي، لأنني كنت أعرف من دون أن أنظر، اختفت الحقيبة.

أصبت بنوبة هلع كبيرة، تفقدت أسفل الوسادات، بعثرت أوراقي، قمت بفعل أشياء وحركات سخيفة مثل سحب دروج مكتبي جميعًا والتأكد أسفل البِساط، وكأن مبلغ ٢٠٠ ألف دولار سوف يتّسع لدرجٍ بحجم الظّرف، أو أنه يقبع في مكان ما تحت زاوية السجّادة التجارية تلك.

ركضت أرجاء المنزل بنوبة هستيريا، تفقّدت كل زاوية وصُدع في المنزل، ثم أعدت التفقّد، حصل كل هذا وأنا أصرخ وأشتم شتائم وليدة اللحظة من نوع لقد فقدت ٢٠٠ ألف دولار.

شتائم غير منطقية في الغالب، وعبثية مثل يا لِأمّ، الضغط، نمر، زنبق، بنطال، هراء، سخافة.. وغيرها.

لكن في النهاية، جهودي في تدمير المنزل، أصابتني بضيق في التنفس، وبكائي، ووجه مرتعش.

اتصلت بأمي، مُجيبٌ صوتيّ، كنت على وشك تحطيم جهازي برميه على الحائط، لكن توقفت في آخر لحظة، اتصلت بأبي.

«أبي، أمم، هل وجدّت...»، قُلت له، متلعثمًا، وصوتي يبدو منهارًا ملؤه الخوف.

«(جاك)، هل أنت بخير، بني؟ ما الخّطب؟».
«كلّا، أنا بخير، أريد أن أعرف إن وّجدت شيئًا».
«وجدت ماذا؟ عمّ تتحدث؟».
«حقيبة، يا أبي».. قلتها بلا تفكير، برغم معرفتي أن أبي لم يكن لديه أدنى فكرة عمّا أتحدث.
«أية حقيبة؟ هل أنت واقع في مشكلة ما (جاك)؟ هل تحتاج...».
ولم أسمع كلمة مما قال بعدها، لأنني أبعدت الهاتف واسترقت الظر إلى الشاشة.
ظهرت رسالة نصيّة.
أمتلك شيئًا يخصّك.
كُن في الغابة عند الساعة الثامنة.

•••

لا أعرف لماذا نُطلق على ذاك المكان الغابة، فهو متواجد الغابة، ما نقصده حين نقول الغابة هو فُسحة كبيرة في أقل مكان يحتوي أشجارًا في الغابة.
على أيّ حال..
عندما رفعت رأسي إلى العرزال، وجدتُ (فراني) يقف عند الحائط، عاقدًا ذراعيه، والحقيبة السوداء ترتمي عند أقدامه.
«مرحبًا،» قُلت له.
«لماذا بحق الجحيم تمتلك هذه الكميّة من المال؟».
«لقد سَرقتُ مصرفًا؟».
«الحقيقة، الآن، يا (جاك)».
لمَ الجميع يطالبون بالحقيقة؟
الحقيقة؟ الحقيقية؟ لن تستطيع تحمّل الحقيقة! كلّا، حقًّا، لن تستطيع، أنا أعلم الحقيقة وأنا بالكاد استطيع تحمّلها.
«فُزت برهان».
ارتفع حاجبا (فراني)، «فُزتَ بِرهان؟ هل هذا أفضل ما تمتلك؟».
«إنها الحقيقة».
«أنت تُحفة حقيقية، يا (كينغ)، هل تعلم هذا؟»
«راهنتُ على أن يفوز «ماندريك» المسابقة».
«قُمتَ بماذا؟ فقط الأحمق من يقوم بهذا الرّهان».

«بِعتُ سيّارتي، وجمّعتُ كل مدّخراتي لأقوم بالرّهان».

«حتى لو كان ما تقوله صحيحًا، لم تكن لتعرف أين ستقوم برهان كهذا.»

«جعلت شخصًا يقوم بهذا لأجلي».

ضّحك (فراني)، «أعلم تمامًا أنّ ماما وبابا (كينغ) لم يقوما بأيّ رهان من أجلك».

هززت رأسي بالنّفي، «لم يكونا هما».

«إذا من؟».

«هذا لا يهم (فراني)».

كلّا، إنه يهمّني، أريد أن أعرف».

«ما الذي كنت تَفعله في منزلي، على كل الأحوال؟ أتعتقد أنك تستطيع الدخول إلى هنا متى تشاء؟ بدون موعد مسبق؟ تأخذ حمامًا، أو تأكل لقمة من المطبخ، أو تسرق حقيبة شخص ما من أسفل سريره؟».

هزّ (فراني) كتفيه، «نسيت بعض الثياب في منزلك، وشاحن هاتفي، طرقت الباب، لكن أحدًا لم يكن في المنزل، مما بدا أفضلًا لي، لم أكن أريد أن أرى...، لقد بدا أفضل لي، أخذت المفتاح الاحتياطي من تحت الصّخرة».

اللعنة عليك يا مخبأ المفاتيح الاحتياطية الذي خرب خطتي لإنقاذ (كيت)!

«فقط أعطني المال وسوف...».

«ماذا؟ (جاك)؟».

«سأنسى كل قصة اختراقك للمنزل هذه».

«لتبدو ذكيًّا، أحيانًا تكون غبيًا جدًا، من أين لك الأموال (جاك)؟ أخبرني وسننتهي من كُلّ هذا».

«كان والدك، حسنًا؟ خذ! والآن أنت تعرف! هل أنت سعيد الآن؟».

هزّ (فراني) رأسه، «كنت أعرف مسبقًا يا رجل، كنت أريد أن أسمعها منك.» ركل الحقيبة نحوي، انزلقت على السجّادة الغير مستوية. «خُذ أموالك وابقَ بعيدًا عني».

«(فراني)...».

«أُقسم بحياة جدتي إن لم تنزل السلّم الآن، سأطرحك أرضًا وسأبرحك ضربًا بنفسي».

وقد صدّقته.

كان قسم منّي يريد أن يقف على السّلم لأثير أعصاب (فراني) ويقوم بتلقيني الدّرس، الذي وجب عليه أن يعطيني إيّاه منذ زمن بعيد، الدّرس الذي ما كان عليه أن يؤجّله.

«ماذا أتعتقد بأني أكذب؟ بأنني لا أفعلها؟» بصق على الأرض، عصر وجهه وقبضتيه بغضب.

«كلّا،» قُلت له، «إنني أصدّقك».

قولوا ما تشاؤون لكن (فراني) رجل لا يثني كلمته.

وهو أمرٌ ليس بالإمكان قوله عني.

رميت الحقيبة أسفل السلّم، ونزلت.

•••

أتى حفل التخرج بسرعة.

حفل التخرج كان ممتعًا مع (جيليان)، رقصنا كلُّ الليل، لكني أمضيت الليل متسائلًا ما الذي سيحصل إن أتى (فراني) إلى الحفل، لكنه لم يظهر أبدًا.

أخذتُ استراتيجياتي بتفادي (فراني) مهما كلف الامر إلى مستوى عالٍ.

إنه يلعب نفس المباراة، نحن بالكاد نرى بعضنا.. تقدم فريق «البانثرز» أكثر بنتيجة المباراة النهائية، وتساءلت ما دخْلُ خصام (جاك وفراني) في ذلك، بالطّبع، ربّما الجواب هو لا شيء على الإطلاق.

وصلتُ و(جيليان) إلى الشوط الثالث من المباراة النهائية، لوّحت (جيليان) لِـ(فراني) من المُدرّج خلال الإحماء، ورمقها بابتسامة صغيرة.

(ريتا ماركيز)، التي قالت الإشاعات إنها حبيبته الجديدة، كانت تحتنا بثلاثة صفوف في المدرج، وكانت تحمل بيدها ملصقًا كبيرًا قد خربشت عليه بالقلم اللماع وجهًا مدوّرًا سعيدًا يملك سهمًا زهريًّا كبيرًا يشير إلى رأسها عليه كتابة تقول، مشّجعة (سيسكو).

لوّحت بالملصق وكأنها تهوّي بالمروحة على الحشود، وتبرّد الملعب.

لعب (فراني) بطريقة مجنونة، قاطع كل الرميات المرتدّة وهزم بها الدفاع، كان نجم المباراة في الهجوم، سجّل خمسًا وعشرين نقطة، وساعد في خمسة أخرى.

كان المتسبب في انتصار ثانويّة «إيليتاون».

تجمهر زملاؤنا وزملاؤه حوله وسط الملعب، فكّرت بأن أهنّئه لكن لم أرد أن أجرب حظّي.

شقّ طريقة عبر الحشود إلى أعلى المدرّج واحتضن (ريتا)، وهنا سيكون من الغرابة ألا أقول شيئًا.

«مباراة جيّدة، يا رجل» قُلت.

هزّ رأسه، «جيّدة؟».

«مباراة عظيمة»، صححت قولي.

«لا أحد يستطيع إيقاف حبيبي، أليس كذلك؟».. قالت (ريتا)، أمسكت وجهه وقبّلا بعضهما، وتساءلتُ إن كان علينا أنا و(جيليان) المغادرة.

عندها قال (فراني)، «أنتم قادمون للاحتفال، أليس كذلك؟».

«آمل أنه لا مشكلة في ذلك، أعني إنه عند منطقة الساحة التي على شكل شمعة في المدينة، لذا لن تعرف.» قالت (ريتا) وأضافت، «لحظة، ألا تعيش هناك؟ (جاك)؟».

لم أعرف تمامًا كيف أردّ على سؤاله، «بعد عدّة بنايات هناك في الحقيقة».. أجبتُها.

ابتسمت (جيليان)، «أنا متأكدة أنكم ستكونون أكثر سعادة، تعلمون، دوننا حولكم، لكن شكرًا، (فراني)، هذا لطف كبير منك».

غمزني (فراني) بخبث وقال، «الزمن يشفي جميع الجراح، أليس هذا ما يقولونه (جاك)؟»

«صحيح» قُلت له.

وأعلم أيضًا أن الزمن قد يُفتق الجراح.

قررت (جيليان) بأن دعوة (فراني) هي دعوة للسلام.

«بعد كل شيء، كيف لنا ألّا نذهب؟،» ردّت لتبرر الذهاب.

قفزت إلى سيّارة والدي، تفاجأت بـ(فراني) يركب بجانبي، ويضع حزام الأمان.

«ريتا تستطيع القيادة أيضًا، لذا طلبتُ من (جيليان) أن تصعد مع (ريتا)، ارتأيت أن تركب الفتيات مع الفتيات والفتيان مع الفتيان».

«آه، حسنًا» قُلت له.

«كما أنه علينا أن نتحدّث».

«نعم، بالطبع، التحدّث جيّد».

ساد الصمت في أول دقائق من بدايتي للقيادة، بعدها بدأ بالنقر على النافذة مشكلا نغمة، «كيف الفرقة؟» سألني أخيرًا.

لعبت بمفاتيح الراديو لكنني لم أشغّله، حاولت ان أفكر بالكلمات المناسبة، «ليست كالمعتاد دونك».

«همم...،».. قال لي.

«اسمع، (فراني)... أنت... أنا، أنا متأكد من أن هذا ليس مفاجئًا، لكن دائمًا ما كنت غيورًا منك».

«ماذا قُلت؟» وأطلق ضحكة.

«أنا جاد، قبل أن تكون أنت و(جيليان) سويّة، قضيت شهرًا استجمع شجاعتي لأطلب مواعدتها».

«لم تقل أي شيء عن هذا سابقًا».

«ما الذي كان على قوله؟ (فراني) أنت، لقد سرقت حبيبتي؟».

«كان يجب عليك قول شيء ما، تعلم، قبل أن أعجب بها كثيرًا».

«ربّما»، اعترفت وأضفت «أظن بأنني كنت آمل أن أتجاوز الأمر».

«لكنك لم تفعل، عوضًا عن ذلك، قُمتَ بفعل مُشين وخُنت مَن المُفترض أن يكون أعز أصدقائك».

«لم استطع أن أرى لم كنت أصلًا تريد (جيليان)، كنت تستطيع الحصول على أيّة واحدة».

«إن لم تستطع أن ترى لم كُنت أريدها، إذًا لست هو الشَخص الذي كان يستحقّها».

إنه مُحقّ، كنت أتظاهر بأنني الشخص الوحيد في العالم، الذي يستطيع رؤية مدى روعة (جيليان)، وكأنني أمتلك امتيازًا لشهادة (جيليان) إنسان رائع.

غير آبه أنه ربّما (فراني) يرى بنفس الوضوح ما أراه، كنت أخبر نفسي كل الوقت أن أحدًا لا يستطيع رؤية التوافق والتناغم بيني وبين (جيليان)، لكن ربّما شعر (فراني) بنفس الأمر.

«وكأنّ موضوع (جيليان) لم يكن سيّئًا كفاية، فأصبحت تقضي الوقت مع الـ»كوبون» من وراء ظهري، ماذا عن هذا يا رجل؟ عدا أنك استخدمته ليجلب لك المال؟».

«آه، فقط، أنت تعلم، سمعت أنهم أطلقوا سراحه و... لا أعرف، أظنّ أنني كنت أريد مساعدتك...،».

«تقصد كنت تردي مساعدة نفسك، كل شيء تفعله هو لمصلحتك، يا رجل، توقف عن الكذب على نفسك».

«كنت أريده أن يعلم كم كنتَ رائعًا، رغمًا عنه، أنه كان مجنونًا بقضاء الوقت بعيدًا عنك كل تلك السنين، وأنت تستحق أفضل من هذا (فراني)».

«فقط ابقَ بعيدًا عن عائلتي».

«(فراني) لم أكن أحاول أن...»، ولم أعرف كيف أنهي الجملة، ما الذي كنت أحاول فعله؟ القضاء على علاقتنا؟ جعله بحالة مزرية؟ لأنني وبالتأكيد كنت سأفعل أفضل من هذا إن لم أكن أتصرف على ذلك النحو.

«توقف عن مناداتي بـ(فراني)، أنا (فرانسيسكو) بالنسبة لك، يا رجل».

«أنا آسف».

«كنت استطيع قتلك، خاصة بعد أفعالك الجريئة تلك يا رجل، لكنني لم أفعل، كان يجب على أن أعبث بك قليلًا، لكن...، لا أعلم، أعتقد أنني أقدّر الولاء، لذا أعطيتك فرصة، لكنك الآن استهلكت فُرصك، يا فتى، انت ما تزال تعقّد الأمور التي لا دخل لك بها، وسأقوم بفعل ما يجب على فعله، هل تفهمني؟».

أومأت برأسي، «أنا أفهم».

«من الأفضل لك».

«أنا آسف (فران)...،(فرانسيسكو)، أنا حقًّا آسف».

«كلّا، أنت لست كذلك، أنت تشعر بالذنب، تعلّم الفرق».

«أنا آسف ومذنب أيضًا، أظن».

«كان كل فريق كرة السلّة يريد أن يبرحك ضربًا لكنني منعتهم من ذلك».

«لا أعرف ما الذي تريد مني قول،» توقفت عند إشارة المرور أكثر من المعتاد، لأنظر إلى وجهه، لاستطيع أن أسمعه.

«لا شيء تستطيع قوله».. فتح الباب وذهب في الليل البارد.

«الى أين أنت ذاهب؟ مازال هناك خمسة أو ستّة شوارع لنصل».

هزّ (فراني) كتفيه، «أشعر بأنه على السير، لن أستطيع تحمل كل هذا الهراء بليلة واحدة».

«(فراني) لم صعدت معي في السيارة إن كنتَ لا تطيقني؟».

هزّ (فراني) كتفيه، «ظننت أنه ربما هناك شيء يستحق الإنقاذ، أنت تعلم، بعد كل مدّة الصداقة تلك، لكني من الواضح أنني كنت مخطئًا».

«بحقّك، أنا استوعب، وكل شيء قلته كنتَ محقًّا فيه، فقط دعني أقلّك إلى الحفلة ومن ثم...، إن كنت لا تريدني أن أتحدّث اليك مجددا...، حسنًا... أتمنى... على أن أقبل بهذا».

تقدّم (فراني) إلى المقعد بجانبي وأمال نفسه، وصنع ذلك الوجه الذي لم أره من قبل، عادةٌ قبل أن يقذف أحدًا إلى المجرة التالية.

«كنت تقول بأنك كنت تغار مني؟ (جاك)؟ تغار مني؟ عندما كنت تمتلك حرفيًّا كل شيء؟ والدين يعتنيان بك وكانا حولك كل حياتك، منزل جميل في حيّ آمن، طعام على لم يكن عليك معرفة كيف وصل طاولتك، ثياب أكثر مما تستطيع عدّه، حرفيًّا، حقيبة مليئة بالنقود، وأنا ماذا كنت أملك؟ يا رجل، لا أعتقد أنني أعرف، لكن على الأقل كنت أمتلكك، صديق مقرّب كان يجعل عالمي أقل سوءا وبرودة، أنت تعلم، ومن ثم أصابني الحظ، وحصلت على شخص جيّد آخر في حياتي،...، (جيليان)...، وجعلت كل شيء من الممكن احتماله، كل شيء أفضل...، وأنت أخذتها منّي بنفس الطريقة التي أخذ مني الجميع الأشياء الجيدة...، وأسوء جزءٍ هو...، لم أكن لأفعل نفس الشيء بك

إطلاقًا، أبدًا، طالما كنت اعتبر، أنني وأنت أخوة، يا رجل، لكني اعتقد انها كانت كذبة؛ لأن الأخوة لن يفعلوا مثل هذه الأشياء لبعضهم.

جلست هناك عند إشارة التّوقف، منتظرًا منه أن يلتفت، منتظرًا منه أن يعيد التفكير، لكنه لن يعود، وضع قبّعة قميصه على رأسه واستمرّ بالمشي.

أخذت وقتي لأصل إلى الحفلة، معتقدًا أنه شيء جيد لأعطي (فراني) وقتًا ليهدأ، اعتقدت أن قُدّت لفترة طويلة كفاية، سأخرج بحلٍّ ما لجعله لا يكرهني بهذه الشدّة، لكن عندما وصلت هناك، لكن يكن قد جاء بعد.

«أين (فراني)؟».. سألت (ريتا).

«كنت على وشك سؤالك نفس السؤال»، قالت، «إنه لا يرد على هاتفه».

استطيع رؤية القلق على وجهها، وعلى وجه (جيليان) أيضًا.

كنت أريد أن أقول شيئًا لنشر الرّاحة، لكن في النهاية لم أتذكر أنني قلت أي شيء على الإطلاق.

مما كان أفضل، لأنني على الأغلب كنت سأقول شيئًا غبيًّا مثل، أنا متأكد من أنه بخير.

والذي ليس صحيحًا.

(فراني) لم يظهر أبدًا في الحفلة.

تبيّن لاحقًا أنه اتخذ طريقًا مختصرًا، وفي النهاية، لم يكن مختصرًا كثيرًا.

•••

الأسوأ على الإطلاق

مع اقتراب الحفلة على الانتهاء وصلتنا الأخبار، خفضَ (مايك ويتني) صوت الموسيقى واعتلى اريكة وأشار للجميع بأن يصمتوا قبل أن يعلن الخبر «لقد تعرض فرانسيسكو لإطلاق نار».

•••

امتلأت غرفة انتظار الطوارئ بالكثير من الناس الحزانى؛ لكن يبدو أننا كنا الأكثر حزنًا، هرعت الجدة عبر الأبواب المنزلقة مضطربة تلهث انفاسها، فحاولنا ثلاثتنا تهدئتها قدر الإمكان، تحدث والدي مع الشرطة عما جرى وعرض عليهم رسالة صغيرة.

يبدو أن جارة شكاكة لاحظت (فراني) يدخل فناء بيتها المسيج وطلبت الشرطة.

قررت أن تلحق به مرتدية قميص النوم وخفًا، ثم صاحت لـ(فراني) قائلة:

«لقد اتصلت بالشرطة». هذا وفقًا للتصريح التي أدلت به للشرطة الذي قد يكون صحيحًا أو ملفقًا.

هز (فراني) كتفيه مستهجنًا، أو هز رأسه، أو قام بتصرف ما أثار سخطها وقال: «دعيهم يأتون سيدتي».

«ضع يديك بعيدا عن جيبيك واجلس على الأرض».

«سحقًا لهذا، أنا عائد إلى المنزل».

«ضع يديك حيث يمكن أن أراهما».

«أنتِ لست من الشرطة فتوقفي عن قول هذا».

ثم بحركة مفاجئة أخرج شيئا لامعًا من جيبه.

قالت: «لقد كنت خائفة على حياتي، لقد كانت ردة فعل لم أكن افكر، أطلقت عليه النار في صدره ورقبته فانهار على الأرض مع ابتسامة غريبة تعتلي وجهه» ثم قالت: إنها سمعت بعد الحادثة صوت عزف موسيقى، ظنت أنها سمعتها من قبل لكنها لم تميز الصوت إلا بعد إطلاق النار، لقد كانت فرقة (بي جيز)، نغمة مدتها ٢٠ ثانية أصدرها هاتف يحمله فراني في يده.

سألت الضابط: «فرقة (بي جيز) هل أنت متأكد؟».

أجاب: «نعم»، بعدما تفحص دفتر ملاحظاته «هذا ما ادعته بأي حال» أومأت برأسي موافقًا لأنني كنت أعلم لم (فراني) كان تواقا للرد على ذاك الاتصال لقد كانت النغمة الخاصة بوالده. لقد منعنا من رؤيته لكنهم أخبرونا أنه خرج من العمل الجراحي وبأنه يرتاح في غرفة الاستشفاء، وإذا مضى كل شيء على ما يرام سيتم نقله إلى العناية المشددة.

•••

لم تتوقف الجدة عن النحيب.

وأخيرًا أتى والد (فراني) وعيناه محمرتان وكأنه كان يحتسي الشراب أو يبكي، ولربما كلاهما.

عبر غرفة الانتظار قال «كيف حال ولدي»، وقفت وأجبته «إنه يتعافى ونحن ننتظر رؤيته».

أومأ «الكوبون» برأسه وعانق أمه ثم ابتعد وقال «أريد كوبا من القهوة»، فقلت «سأمشي معك». كانت مسافة قصيرة لآلة البيع لكني لم كان مهتمًا بكوب القهوة بالحليب ذي الـ ٨٥ سنتًا سألته، عندما ابتعدنا عن مجال إصغاء الآخرين «أين كنت هذه الليلة» أجاب «عذرًا؟»، «لقد فوّت مباراته».

«لقد اتصلت به».

«نعم، ومن ثم؟» عندها رغبت بأن أقول له نعم لقد اتصلت به وهذا سبب وجوده في المستشفى يتعالج من جرح إطلاق نار لكن الأسباب الأخرى المسؤولة عن الحادثة ظهرت أمامي على زجاج الآلة اللامع لذا أعرضت عن القول.

قال «الكوبون»: «لحظة أيها البطل، ما أقوم به مع ولدي ليس من شأنك».

تسلل صوتي من حنجرتين رغمًا عني «ما يحدث للأشخاص الذين أحبهم هو من شأني، وهذا الأسوأ، أنت تظهر وتختفي من حياته، هذا متعب وأناني ومؤذي. أنت لا تعلم روعة ولدك بل لا ترغب بمعرفة هذا حتى، أليس كذلك؟ لأنك عندها ستكون أبًا حقيقيًا للمرة الاولى منذ ١٧ عامًا».

أمسك (الكوبون) رأسي ودفعه باتجاه آلة البيع، انتظرت أن يتدخل شخصٌ ما، لكن الممر كان خاليًا، « أنا أبٌ فاشل أهذا ما تريد سماعه؟ ها قد قلتها يمكننا، الآن، جميعًا أن نعود إلى أعمالنا، أليس كذلك؟ لقد أفشينا السر.» أزاح «الكوبون» قبضته على صدري، ثم ابتعد عني وفجأة توقف وقال «هل لديك أية فكرة عن الشعور بأنك تجوب العالم عارفًا بأنك لست سيئًا، بأن كل شيء قمت به لا قيمة له عندما تنظر إلى السماء ولا ترى الأفق اللامتناهي، عندما السماء لا تسطع لك فيما تفعل لبقية البشر، عندما تعلم.. عندما تعلم بأنه لا يوجد شيء تتطلع له لأنك خسرت كل الاشياء الحسنة التي توجب عليك رعايتها، لم استيقظ بسعادة منذ الازل (جاك) لم أعد أعرف إن كانت السعادة شيئًا حقيقيًا أم لا، تعتقد باني رجل قاس وبارد؟ أنت على حق، أنا كذلك.. هذه الطريقة الوحيدة التي تجعلني أمضي أيامي، هكذا استطعت أن أخلص نفسي اثناء السجن وأن اتحمل كوني والدًا سيئًا وابنًا سيئًا وزوجًا سيئًا».

أجبته: «ربما إذا اخبرت فراني عن كل هذا لربما...».. اتجه نحوي وعيناه مليئة بالبغض وقال: «اخبره ماذا؟ أتعتقد أنه لا يعلم أن والده فاشل؟ يا لها من أخبار، لطالما عرف بذلك».

«لم يفت الاوان بعد».

«لقد فات الأوان كليًا، لن احظى بفرصة معه. أعلم ما يجول في رأسك لأنني فكرت بهذا الامر مسبقا، إذا حاولت مرة ثانية لحصلت على ما ابتغيه لكني لم أحاول قد يا جاك انت تنظر إلى ملك الفرص الأخيرة يا صديقي.

ضحك وربت على كتفي، وكأنه أنهى إلقاء دعابة بينما عيناه ابتلتا بالدموع «سحقًا، هذا ليس صحيحًا، أنت لست جزءًا من هذا، عندما يتعلق الامر بذلك الصبي فلم أحاول قط لذا لا داعي لإخباري كم يعني هذا لولدي، لقد عشت مع هذه الخيبات طيلة حياتي ولن أنسى ذلك يومًا».

وقبل أن انبس ببنت شفة ابتعد والد فراني دافعا بجسده عبر الباب الألي حتى قبل أن يفتح بشكل كامل ثم انعطف إلى الزاوية التالية.

عدت إلى غرفة الانتظار ووجهي تعتليه علائم الغضب والحزن لقد فكرت في صديقي المستلقي متوجعا وحيدًا بعيدًا عن كل أحبائه.

أريد أن أحاول، أريدأن أكون معه سواء حصلتُ على فرصة أم لا.

لقد كان المطعم مغلقًا لذا جلبت أمي وجبات سريعة من آلة البيع، مع مرور كل نصف ساعة هرع أبي إلى المكتب ليسأل عن اي تطورات ولكنهم أخبروه كل مرة لا جديد على الحالة.

قال والد فراني «لا أخبار يعني أخبار جيدة»، وهذا القول يبدوا نموذجيا من شخص مثله مساويًا لا شيء بالشيء الجيد.

ارتشفت (جيليان) قهوتها ويداها ترتجفان فما فتئت القهوة تنسكب على يديها وكرسيها

(ريتا) استخدمت هاتفها واتصلت بوالديها ثم بأختها.

لم أستطع إنقاذ الجميع، بل لم أستطع إنقاذ أحد.

سمحوا لنا أخيرًا برؤيته كل واحد على حدة.. هذا ما طلبته منا الممرضات عشر دقائق كحد أقصى فهو يحتاج إلى الراحة.

وقفت بجوار الباب مراقبا عيناه ترمشان لقد هدرت دقيقتان أو ربما ثلاث من وقتي وقال لي بضعف: «العب».. دخلت إلى الغرفة ومشيت بجوار سريره.. بدت ساقاه طويلتان قريبتان من طرف السرير.. أجبته: «لم أفهم، ماذا تريديني أن أفعل؟».

لقد شُد صدر فراني بشاش معقم بشكل محكم وانبثق من ثيابه أنبوب رفيع ناقلا ما يشبه الدم إلى وعاء بحجم القبضة أظنّه المفجّر، الذي ذكره الجراح مسبقًا، هز فراني رأسه متأوهًا ومتألمًا.

قال فراني وهو مغمض العينين «قلت اذهب».

بالطبع لن يرغب بتواجدي فأنا من تسبب بدخوله إلى المشفى.. وقفت هناك وعقلي يبحث عن الكلمات المناسبة لأقولها لكن عبثًا: «سأذهب يا (فراني)، لكن أعدك أنني لن أرحل».

•••

الفصل الخامس

اللمسة الخامسة

إلغاء الحفل

قرر أمي وأبي تغيير موعد الاحتفال بذكرى زواجهما، فقد رأت أمي أنه لا يمكننا أن نحتفل إن لم تكن كل العائلة موجودة.. لم أخبرهما أن فراني لن يحضر على أية حال، قررت ألا أخبر أحدًا بأنه يبغضني، لم أهتم لهذا أردته فقط أن يكون على ما يرام سواء كرهني للأبد أم لم يفعل.

بدأنا بتناول النبيذ وبدا من الواضح أن الجميع مشغول، لقد كان الجميع يتصرف وكأن شيئًا لم يحدث قال والدي وهو يسكب كوبا اخر من النبيذ «لم يعُد الأمر كما كان».. كان عليّ حق والجميع مدرك لهذا.

أردتُ فرصة ثانية أكثر من أي شيء في هذا العالم، رحلةً إلى الماضي لإلغاء هذه المأساة.

لكنني لم أستطع الاعتماد على قدرات خارج المنطق والمعقول، ليس هذه المرة.

ولو كانت هذه المرة الأخيرة، فهل على أن أقضي حياتي في التصالح مع هذه الفكرة؟ أن (كيت) قد تعيش ويموت (فراني).. ماذا لو كنتُ قد قايضت حياة (فراني) بحياة (كيت) دون علمي؟ كيف يمكنني أن أتعايش مع ذلك؟

استاذنتُ للذهاب، وتوجهت إلى غرفتي وأغلقت الباب.. أمسكت المنبه المتوضّع على مكتبي ووضعته بقرب رجل السرير وحدقت فيه مطولًا وانتظرت.

وقبل أن تبلغ الساعة الواحدة صباحًا، قمتُ باتصال، وأخبرتني العاملة أن (كيت) في المستشفى بالفعل، وأن الوقت غير مناسب ولا يمكنها أن تحوّلني اليها.. أجبتها: «لا مشكلة، سأحاول الاتصال لاحقًا».

تسللت عبر الدرج الخلفي ثم صعدتُ إلى سيارة والدي، كان الطريق السريع خاليًا، وكأنني الوحيد المستيقظ في تلك الليلة.. ركنت السيارة وحاولت الدخول من الباب الرئيسي لكنه كان مقفلًا بالطبع، لكنني لم أهتم لذلك.. انتقلت إلى الجهة الأخرى من المبنى؛ حيث يقع المكتب ورميت حجرًا عبر النافذة فانطلقت صفارات الإنذار بشكل جنوني، لكنني لم أعرها انتباهًا. تسلقت عبر النافذة، ومشيت عبر فتحة التبريد، وجدتُ علبًا عديدة متوضّعة فوق بعضها، ولم أكن متأكدًا أيًا منها على أن آخذ، لذا أخذتها كلها.. أخرجتها من النافذة واحدة تلو الأخرى ثم جلبت سيارة والدي ووضعتها فيها. وبعد دقيقتين اتجهت إلى الطريق السريع؛ حيث اعترضتني ثلاث سيارت شرطة بأصواتها المخيفة وأضوائها التي عبرَت خلال الضباب.

توقفَت سيارة من نوع كروزر بجانب باب سيارتي؛ لكنني لم أهتم. هرعت عبر الباب هاربًا، لكنني اصطدمت بجدار بشري، ثم سمعت ضابطًا يتحدث عبر

جهاز اللاسلكي: «أمسكتُ به». ثم طلب مني البقاء في الخارج واضعًا يده على قبضة مسدسه «هيا، تحرّك».

لقد فشلت.. لا يهم ما فعلته، لقد حاولت بالتأكيد. لم يكن هذا ما أردته، لكن كان كل شيءٍ منتهيًا قبل أن يبدأ.

(فراني) مصاب، (كيت) تحتضر، وأنا اقتحمت مكتب الدكتور(سوونمي) ومن أجل ماذا؟

لم أقم بما كان على فعله مرة أخرى.

حاولت أن أتجاوز الضابط والقيد لكن قبضته كانت محكمة صاح الضابط: «لا ترغمني على إلقائك أرضًا».

«لعله من الأفضل أن تفعل».. باعدوا ساقيّ وانهرس خدّي على صندوق سيارة الشرطة.

رجوتهم: «رجاءً حبيبتي تحتضر.. من فضلكم خمس دقائق أليس لديكم قلوب؟ دعوني أراها خمس دقائق، بعدها خذوني إلى السجن إلى الأبد إن شئتم».

حاولت الركوع على ركبتي لأتضرع لهم، لكن جسدي كان مقيدًا، نظر الضابط الذي وضع القيد على يدي إلى الضابط الاخر امرأة شقراء ذات عينين محمرتين، تنهدَت وأمأت برأسها ثم أزالوا القيد عن يدي.

بدأ المصعد يخط طريقه إلى طابق (كيت)، سلكنا طريقًا آخر؛ لأن الأرضية كانت مبللة، ثم أخبرتنا الممرضة أن ساعات الزيارة قد انتهت لكن الضابطة الشقراء تدخلت. أذعنَت الممرضة رغمًا عن إرادتها، وسمحت لنا بالمرور، كان الوقت متأخرًا جدًا، وقد لا أجد (كيت) هناك.

قلت بهدوء «(كيت)»، فتحت عيناها، ثم ذُعِرت: «من أنت؟ ماذا تفعل هنا؟».

أجبتُها: «لم أخبرك بهذا من قبل يا (كيت)، أنا أحبك».

«ماذا..»، وقبل أن تُنهي كلامها، اقتربت وسحبت الحقنة وغرزتها في فخذها.. ارتجف جسدها وكأنها صعقت بتيار كهربائي.. صرخ ضابطا الشرطة وشتماني وأمسكا بي ألقيا بي أرضًا، فارتطم انفي بالأرضية وتحطم، ثم دخلت العديد من الأقدام إلى الغرفة وعلا الصراخ بالسؤال عما حقنته، عن محتويات الحقنة، لكنني لم استطع الشرح حتى لو أردتُ ذلك، كان ذلك كل ما بوسعي فعله، الشي الوحيد المتبقي لأفعله. أغمضت عيني وانتظرت.

•••

للأبد.

ماذا كان (بيل موري) ليفعل؟

«عذرًا أنت تسد الطريق يا رجل».

استدرت إلى (كيت) وابتسمت لها من أعماق قلبي، رؤيتها على تلك الدرجات تعني أنني فشلت مرة أخرى؛ ولكن الأهم أن هذا يعني وجود محاولة أخرى أيضًا.

شاهدت الفيلم الكوميدي «يوم غراوندهاج» لسببين، أولهما: أن البطل هو (بيل موري) والثاني: هو أنني أدركت وجود حكمة من مشاهدة رجل يقدر أن يحيا يومه مرتين.

وتعلمت ما الذي على ألا أفعله، ما يجب ألا يكون أسلوب حياتي.

لا أريد أن أمضي طيلة حياتي محاولًا تلميع نظرة الآخرين لي.. لستُ الأروع ولا الأذكى، إذا استطعت أن أتجنب بعض الأخطاء الباهظة وخاصة تلك المتعلقة بإيذاء الأشخاص، الذين أحب فنعم أنا أرغب أن أحيا حياتي مرة أخرى.

لن أستخدم قدراتي أو سمها ما شئت، لأبحث عن التركيبة المناسبة من الكلمات والذكريات لأجعل (كيت) تقع في حبي، لأنني على يقين أن حبنا هو الحقيقة الوحيدة الصامدة مهما تكررت حياتي، وأنه مهما حدث فمقدر لنا أن نحب بعضنا الآخر، ربما أنا رومنسي أو لربما أحمق، لكنني لم أكن بحاجة لأن أعيش يوما ألف مرة لأتيقن من حبي لـ (كيت) ومن أنني سأفعل أي شيء لأبقى بالقرب منها بقية حياتي مهما طالت أو قلت.

إن الذي جعلني انتظر على الدرج شيء عظيم جدًا أعظم من أي شيء عرفته، مقدر لي أن أكون هنا مع (كيت) وليس في أي مكان آخر، وسأنتظرها على هذا الدرج لأقول لها سامحيني حتى تصفح عني.

•••

نصيحة جيدة

أخبرت والدي أنني سأجنح عن رغبتي بالكتابة، وسأكرس نفسي لأكون عالمًا أو باحثًا، وسأبذل جهدي لأكتشف علاجًا للأوبئة الضارة، بدا أبي سعيدًا بما قلت وتأكدت من هذا عندما بدء يصدر أصواتًا من حنجرته، وهذا شيء لم أمانعه، على الرغم من أننا كنا في بقالية؛ حيث تمتد صناديق من علب الحليب والأواني على مد النظر.

سأل والدي «هل من المعقول أن هذا له صلة بـ (كيت) « أومأت برأسي وقلت: «أعتقد أن التعرف على (كيت) جعلني أعيد النظر في الكثير من الأمور».

«أرى أن ما تنوي فعله هو أمرٌ رائع يا (جاك)، أحيانًا نضطر لإعادة تكوين ذاتنا،

لنقرر ما علينا فعله في حياتنا، يردد الناس أنه على المرء أن يجد سعادته قبل أن يقدر على إسعاد الآخرين، وفي هذا شيء من الحقيقة، لكن الأكثر قربًا من الحقيقة هو أنه على المرء أن يجد ذاك الشخص الذي يذكرك كيف يمكن للحياة أن تكون جميلة، عندما تجد مثل هذا الشخص فعليك بالتشبث به، تملك والدتك بعض الآراء، التي قد لا تعجب البعض، لكنها لا تزعجني بتاتًا، هذه طبيعتها، وهكذا كانت عندما صادفتها أول مرة، لكنها أيضا من يخرج الأفضل مني.. لذا إن كان عليّ الاختيار بين شخص يتكلم عن أي نوع من حبوب الفطور يملك أكثر نسبة ألياف مفيدة، وأن أكون شخصًا وحيدًا بائسًا وبأمعاء متأزمة، فاحزر ماذا أختار. سأختار أن أكون سعيدًا وبحركة أمعاء منتظمة. ومع بزوغ فجر كل يوم أنا أختار والدتك».

وبينما نتبادل أطراف الحديث يبدو أن أمي لم تكن في الخلف تبحث في السيارة عن القسائم بل كانت تسترق السمع لنا، وصاحت: «يا إلهي يا (أبي) وأنا سأختارك أيضًا»، قال أبي «أعطني قبلة يا حلوتي».

«ماذا تفعلون؟ في قسم الألبان! هذا مبتذل».. كأنني لم أعنِ ما قلتُه، فإن كان هناك شيء أقدره بعد كل هذه الاحداث فهو التعبير عن الحب أنّى استطعنا، يجب ألا نقلل من شأن الوقت أو الحب أبدًا.

تجاهلت أمي ما قلت وطبعت قبلة على جبين والدي بكل شغف.

«لم تتغير أبدًا يا (آبي)،» قالت أمي.

أبتسم أبي وقال: «أنتِ زهرة شبابي يا عزيزتي، (جاكي) عليك بتنظيف الممر الخامس».

ثم راقبت بذهل كيف تعانقا والتحمت أجزاء جسديهما المستندين على ثلاجة الحليب.

•••

كل ما هناك

سألت (فراني) إن كان بإمكاني التحدث مع والده.

«حول ماذا؟».

«بصراحة، أنا أحتاجه في معروف».

«معروف! من الكوبون».. استهجن (فراني) ثم أكمل: «لك الحرية لتطلب منه ما تريد إن أردت ان تصاب بالخيبة».

«أمتأكد أنه لا مانع لديك؟».

«معروف من أجل ماذا؟».

«رهان».

«رهان على ماذا؟».

«على الحب».

«جاك؟!».

«نعم!».

«يا لك من شخص مبتذل».

«سأرهن أموالي على فريق «ماندريك».

سأل والد فراني «أأنت متأكد يا (جاك)، أنه مبلغ كبير لتخسره، لن أستطيع أن استرجعه، لن أقدر على السيطرة على الأمر».

.... يا إلهي هل تمزحون فريق «ماندريك»، يحتل الصدارة في آخر ٢٠ ثانية، إنها أعظم عودة في تاريخ الرياضة والعالم أنتم تشهدون لحظة تاريخية لن تتكرر....

حقق الفريق نجاحًا هائلًا وأخيرًا.

حددتُ موعدًا للتقييم مع الطبيب (سوونمي) الذي قال: «لا أعدك بشيء يا (جاك)، قد لا ينجح هذا العلاج مع (كيت)، هل تعي هذا؟!».

طمأنته بقولي «أنا أثق بك أيها الطبيب».

أجابني وهو يمد يديه ليصافحني «إذا آمل أن أكون عند حسن ظنك».

أخذت كيت الحقنة الأولى.

بقيت مريضة لعدة أيام، ظلّت تشعر بالغثيان معظم الوقت لكن مع نهاية الأسبوع بدأت تعود عافيتها، قالت وهي مبتسمة الثغر «لا أعلم إن كان العلاج نافعًا أم أنني أؤمن بهذا وحسب، لكني أشعر بأنني أفضل حالًا، أفضل من قبل بكثير».

وكانت تمارين الفرقة الموسيقية أفضل من أي وقت.

اصطحبت (كيت) إلى حفل التخرج، تبادلنا القبل، كانت قبلة ساحرة كما لو انها أول قبلة، رقصنا رقصتنا الرهيبة، حركات غير منظمة، كنا نبدوا وأننا اكتشفنا أن الرقص السيئ ينقذ الأرواح، وأننا مصرّان على إنقاذ الجميع.

صحنا ونحن نقدم أسوأ رقصة في مرقص صيني «لن نترك أحدًا وراءنا».

توسل (فراني) «رجاءً أخبراني أنكما تعاطيتما شيئًا ما».

صاحت (كيت) وهي تقف: «لقد تعاطينا السعادة».

وللتعويض عما فات، قدت السيارة إلى منزل (فراني) وأحضرت والده وقال: «هل أنت واثق من هذا يا (جاك)، لأني لست واثقًا إطلاقًا» .

«(فراني) يعلم بقدومك، إنه يرغب برؤيتك، لقد كان ينتظر حضورك طول هذا الوقت».

حاول فراني إخفاء حماسته لكن من يعرفه بحق سيعلم كم هو تواق لهذا، أنا أعرفه منذ غابر الزمن ولا أذكر أنه ابتساماته كانت بهذا الوسع والتكرار من قبل.

قال (فراني): «لقد أتيت أخيرًا» .

أومأ والده وقال: «لا أريد أن أفوت مباراة أخرى، آمل أنه لم يفت الأوان بعد».

تخرجت في الثانوية، وصافحت كل من وجد على منصة التكريم، ورقصت على المنصة، التقط والدي الكثير من الصور، لنا جميعًا ولـ(كيت) أيضًا.

قدمت (جيليان) الخطاب الأروع في التاريخ.

«لقد قلنا وفعلنا، إن الوقت الذي أمضيناه هنا في ثانوية «إليتاون»، لا يُقاس بالساعات التي قضيناها في الصفوف أو خارج الصفوف»، ضحك الحضور وتابعت: «إنها لا تُقاس بالإنجازات التي حققناها أو الاخفاقات التي تعرضنا لها، إن ما شعرنا به هذه السنوات لا يتعلق بالمدرسة حقا، فالسنوات الأربع الماضية تعني لنا النضوج وتعلم أن نتحدى، وأن نبذل ما بوسعنا حتى لو فشلنا، أن ننهض في كل مرة وألا نستسلم، تعني لنا الصداقة، ذلك النوع من الأصدقاء الذين يساندونك عندما تكون بحاجتهم، الذين يتصلون بك ويراسلونك حتى لو لم ترغب بذلك، يبقون بجانبك يومًا بعد يوم وأسبوعًا بعد أسبوع، فصلًا بعد فصل مرة بعد مرة، هذا النوع من الصداقة هو أسمى آيات الحب الذي لا ينضب».

وعندما انتهت، علا التصفيق، (فراني) وأنا قمنا من مقاعدنا واقتربنا عدة صفوف مصفقين بحرارة وهللنا باسم (جيليان) التي أرسلت قبلًا إلينا ثم انحنت للجمهور.

ما زال أخو (كيت) الصغير(ريجي) يضايقني، إلا في هذه المرة فلم نجتمع على عشاء عائلي بوجود والديه الذين اعتادا على ضبطه، بل ذهب برفقتنا إلى السينما وجلس بيني وبين (كيت) وضع علبة الفوشار، التي ابتعتها في حضنه وأفسد كل مشهد في الفلم، وظننته ذاك الأديب القادر على توقع حبكات الأفلام لكني علمت فيما بعد أنه قد شاهد الفيلم من قبل، وأنه مفسد للبهجة وحسب.

«إذا، أخبرني يا (جاك)، ما هي نواياك تجاه أختي؟».

أجبته «تروى يا صبي، أنوي أن أمضي معها وقتًا طويلًا جدًا»؛ لكن هذا لم يجلعه يصمت بل تمسّك بدوره الذ يفرض أن يكره كوني معجبًا بأخته؛ لكن هذا لا يضايقني فلهذا خلق الأخوة الصغار، وأحترمه لهذا.

حقق (فراني) الكثير من النقاط في التصفيات وقاد فريق البلدة إلى النصر، وقدم لوالده قميص المبارة الذي خلع قميصه وارتدى قميص (فراني).. على الرغم من أنه ضيق و، لكنه لم يعر ذلك أي انتباه، بل ومشى حول النادي

سعيدا يقول لكل من يصادفه «نعم هذا صحيح هذا ولدي»، وحتى الجدة كانت موجودة ولم تتأخر وقالت باندهاش: «ماذا؟ لقد أتيت على الموعد مرة سابقة.» ولكن أحد منا لم يتذكر ذلك.

انطلقنا جميعا للاحتفال، وأثناء تناولنا للمقبلات نقر (فراني) كأسه «انتباه أيها العائلة والأصدقاء لدي خبر لأعلنه».. وقف مبتسما ونظرنا جميعا إليه « تنظرون الآن إلى طالب في جامعة «ويتير». وعلامات الفخر تعلو جبينه.

قفزت (جيليان) من سعادتها، وعانقته بشدة وقالت «يا إلهي، هل أنت جاد عزيزي؟ كنت واثقة انك ستقبل هناك لقد عرفت ذلك»، وعانقته (جيليان) عناقًا مليئًا بالحب وكادت توقع المقبلات أرضًا. لم يُصَب (فراني) بطلق ناري، بل بسهام حُب (جيليان) وحسب.. أعرف أنها جملة مبتذلة، لكنني سعيد، فليسمح لي القارئ بقول ما أشاء.

اتضح فيما بعد أن أخت (كيت) حامل. تحمس (فراني) كثيرا للخبر؛ لأنه تكهن أنه سيحصل على مقاعد أمامية لكل حفلات فرقة «مايتي موت».. لمدى الحياة.

في هذه الأثناء فرقتنا استمرت بالتدريب.

ذكرى زواج والدي كانت خارقة،)كيت(و)جيليان(و) فراني(، وأنا لم نتحرك من جوار بعضنا وبعد مرور ٤ فصول صيف من التدريب (مكثفة في صيف واحد)، وبالرغم من هذا ما زالت أخطئ في بداية العزف؛ لكن يبدو أن أحدًا لم يلحظ هذا.

سألت أمي» هل تذرفين الدموع يا أمي؟» ليس لأنني لم أكن واثقًا أنها تبكي، بل كي لا يرى الآخرون أنني أبكي بدوري.

تشاركنا زجاجة نبيذ ثم نظفنا المكان قال (فراني) ممسكا يدي «سنرحل الآن» ثم عانقني، (جيليان) أحاطت (كيت) بذراعيها ثم طبعت قبلة على وجنتيّ وقالت «أحبك يا رجل».

أجبتها «وأنا أحبك أيضًا».

(كيت) وأنا أوصلناهم إلى سيارتهم، وراقبناهم يقودون تحت سماء ليلة مليئة بالنجوم، ثم قلت «تريدين الذهاب أيضًا أم....؟»، فلامست يدي وقالت: «أختار الخيار الثاني» .

•••

وعلى أريكة القبو اتكأت كيت على ومالت بجسدها الدافئ وتبادلنا القبل لكنها ابتعدت، وسألت «أهناك خطب ما؟».

«ماذا!».

«من الأرض إلى (جاك) حوّل، بماذا تفكر؟».
قبلتُ جبينها ثم ابتعدت عن الأريكة.
قلت «تعالي» مادًّا يدي نحوها.. «علينا الرحيل».
«إلى أين؟».
«ليس لدينا متسع من الوقت».

•••

«لم نحنا في المشفى؟».
«لأنك مريضة يا كيت».
هزت رأسها «لكني أشعر أني بخير بل أفضل بكثير أن العلاج نافع يا (جاك)».
«هل تثقين بي؟».
ظهرت علائم الامتعاض على وجهها.
«ثقي بي، رجاءً».
تفاجأت الممرضة في الإسعاف عندما أخبرتها أن (كيت) مريضة؛ لكن بلا أعراض ظاهرية، وأنها ستصاب لم تصدّني الممرضات أو الطبيب المناوب، ولم يجريا أية فحوصات حتى.
أجابوا: «نحن نقدر مخاوفك أيها الشاب».. وكنت أعرف أنهم لا يفعلون حقًا.
«لا أظنكم تقدّرون مخاوفي، إن كنتم تفعلون فعلًا فعليكم بإجراء فحوصات وعليكم إبقاؤها هنا و...».
قال (كيت): «(جاك)، أنا بخير، أنا فعلا بصحة جيدة».
لكني توسلت ولم أهتم بكبريائي: «رجاءً.. رجاءً أجروا الفحوصات هذا كل ما أطلبه منك».
«أيها الشاب..».
« رجاءً أنا أملك المال..».
«الأمر لا يتعلق بالمال».
«يمكنني أن أدفع مقابل الفحوصات، يمكنني أن أكتب لكم وصلًا الآن، أعطوني قلمًا وحسب».
«سنضطر لأن نطلب منك المغادرة الآن».
«أنتم لا تصغون لي.. ستموت إن لم تتصرفوا، ستموت، هذا ليس احتمالًا أو فرضية أنها حقيقة، ستموت».
استداروا نحو (كيت) وسألوها: «هل يخضع حبيبك لعلاج ما؟ هل توقف عن

تناول أدويته؟».
قالت (كيت) بحدة: «ليس مجنونا».
«لا نتّهم أحدًا بالجنون، لكن...».
«أنا لست مجنونا أنا أعلم أنها ستموت لأن...».. كان بإمكاني قول الحقيقة، إنني قادم من المستقبل، أعلم هذا لأنني مررتُ به مسبقًا، لكنني على يقين بأنني سأمضي الليلة في مشفى المجانين إن فعلت.
قالت كيت ويدها تشبك يدي: «(جاك)».. وقادتني من خلف ستارة غرفة الفحص إلى غرفة انتظار الطوارئ ثم إلى الخارج حيث البرد والظلام وقالت: «هيا بنا».
أدمعت عيناي ولم أستطع منعهما وقلت: «لا يمكننا المغادرة يا (كيت).. اسمعيني رجاءً، أنا لست مجنونًا».
«أعرف، لكنني لا أفهم شيئًا».
«أتمنى لو أقدر أن أشرح لك كيف عرفت أنك...».
«كيف عرفت؟».
وجه الممرضة كان قاسيًا كما الصخر وذراعاها متصالبان.
قلت: «لا يمكنني أن أخبرك.. آسف، لكنني لا أستطيع».
قالت الممرضة «حسنًا لقد انتهى وقتك أيها الشاب».
سأفشل ثانية.
استنفدت كل خياراتي، ربما عليّ أن أتقبل حقيقة أنه لا يمكنني تغيير شيء، لكني رفضتُ أن أفعل.
قالت (كيت): «ماذا تفعل يا (جاك)؟».
«ما عليّ فعلُه».
صاحت الممرضة عبر البهو: «نحتاج رجال الأمن هنا».
لكنني لم أتوقف.. أعادت (كيت) سؤالها: «(جاك)، ماذا تفعل؟ لا أفهم».
«ثقي بي، أنا لا أفهم أيضًا، لكن علينا المحاولة».
وقبل أن يظهر رجال الأمن، أغلقتُ غرفة الفحص بكل التجهيزات التي وجدتُها، بحاملات أكياس المحاليل الوريدية، وآلات مراقبة نبضات القلب، وآلة الرنين لمغناطيسي.. لكن أحد الحراس كان ضخما، وتمكن من الدخول ورفعني وحملني عبر الممر.. تمسكت بالستارة فصاح: «دعها» محاولا إبعاد يدي عنها.. الحارس الآخر كان ذا شعر رمادي، وأقل تحمسًا للتعارك معي فقط استخدم جهاز اللاسلكي وبقي بعيدًا في البهو. لعلني أثبتُّ تهمة الجنون على نفسي تلك اللحظة، صرخت: «إنهما يحاولان قتلي!».. واتّخذت وضعية قتالية،

فلم يعد يهمني كيف يراني الآخرون أو ما سأتعرض له، كنت سأفعل أي شيء لأنقذ (كيت) وأبقيها بمأمن.

وأثناء قتالي مع الحارس (ليرد) (عرفت اسمه من بطاقته التعريفية) في الممر بدأت (كيت) تعاني من ضيق في التنفس، فوضعوا لها حقنة وريدية وزودوها بالسوائل والأكسجين، ثم تحققوا من علاماتها الحيوية مرة أخرى، وقاموا بالفحوصات اللازمة، ثم قادوني إلى غرفة الانتظار.. بعد ساعة خرج الطبيب وهو يهزّ رأسه: «أنا لا أعلم كيف عرفت بحالتها، لكنك أنقذت حياتها».

نظرتُ إلى الساعة في غرفة الانتظار وقلت: «لم أنقذها بعد،» أمتعض الطبيب وقال «حسنًا لقد نقلناها إلى غرفة المراقبة سنبقيها هنا الليلة، تأكد من بقاء الهيموغلوبين مستقرًا، سنسحب دمًا منها في الصباح، يمكنك الآن رؤيتها».

شكرت الطبيب وقاومت رغبتي في مراقبة الوقت مرة أخرىن وانطلقت إلى غرفة (كيت)، نظرت إليّ وأنا بجوار الباب وابتسمت وقالت: «أهلًا وسهلًا بك أيها البطل الخارق».

ثم ضغطت الزر بجوارها لترفع السرير قليلًا.

ضحكت وسألتها: «كيف حالك؟».

«جيدة الآن على ما أظن.. لكني لم أعلم أني لست بخير منذ قليل بينما علمت أنت».

«كان تخمينًا موفقًا».

«لا أظن ذلك».

«أترغبين بمعرفة الحقيقة؟».

«هذا سيكون رائعًا».

«أنا من المستقبل، وكنت أعلم متى ستمرضين بالتحديد».

«حسنًا، هذه كذبة».

«أنها ليست كذلك».

«أترغب في معرفة كيف عرفت أنها كذبة».

«نعم، لكنها ليس كذبة».

«من سيهتم بي لدرجة أن يرسل أحدًا من المستقبل لأجلي؟ ما المميز حولي، هل سأكون رئيسة الولايات المتحدة الأمريكية؟ أم سأكتشف علاجا للسرطان؟ ما الأمر المميز بشأني؟».

هززت كتفي، وقلت «صراحة لم أذهب إلى المستقبل لهذا الحد، أعتقد علينا اننا سنكتشف هذا سويًا».

طقطقت أصابعها، وشبكت ذراعيها.
قالت «أتعدني؟».
«بماذا؟».
«بأننا سنكتشف المستقبل سويًا».
«إما هذا أو سأعود عبر الزمن مرة بعد مرة حتى أحقق ذلك».
«ستفعل هذا لأجلي؟».
«ربما».
مدت لسانها وقالت: «حسنًا يا سيد، سأبني لك آلة سفر عبر الزمن، والآن تعال إلى الفراش وعانقني».
تذمرت أثناء صعودي على الفراش قائلًا «يكاد هذا السرير لا يتسع لشخص واحد، وتعلمين أن الممرضة ستشتمني عندما تدخل إلى هنا، وأنا واثق أن الجميع هنا يبغضني».
«اسألني أن كنت اهتم بهذا».
ابتسمتُ، فأصرت «بجدية، اسألني».
«كيت هل تهتمين بما يقولون؟».
«حتمًا لا، الآن أسألني إن كنت أكرهك؟».
«كيت، هل تكرهينني؟».
«لا أقدر على كرهك».
ليس بإمكاني وصف ما شعرت، عندما تناهت هذه الكلمات إلى مسمعي،
«كيت؟».
«نعم!».
«إن كان لديك الخيار بين أن تعيشي الشهور الأخيرة الماضية معي مرة بعد مرة، أو أن تعيشي بقية عمرك بدوني، ماذا ستختارين؟».
«يا له من سؤال غريب.. أنت فعلًا تلعب دور العائد من المستقبل بجدية أليس كذلك؟».
«هيا، جاريني».
«تقصد أن نعلق في حلقة لامتناهية؟».
«نعم».
«هل ستكون حلقة من أربعة أشهر جميلة على الأقل؟».
«ستكون الأروع على الإطلاق».
أومأت برأسها وقالت: «أحب وقع عبارة حلقة جاك وكيت الأبدية».

قبلتُ جبينها وقالت: «دعني أسألك شيئًا آخر الآن».
«اسأليني».
«سيبدو هذا غريبًا بعض الشيء، لطالما رغبت أن أكون من أولائك الأزواج الذين يدمجون أسماءهم سويًا، كدليل على الحب.. مثل (بينيفر) و(كيمي).[6]»
قلت «اتمزحين؟!».
«لا، لقد فكرت بهذا طويلًا ولدي بعض الأفكار إن كنت ترغب بسماعها».
«ما هي؟».
«حسنا»، قالت وأراحت رأسها على المخدة وشاركتها إياها وتلامس خدّانا.
«الأول هو (كاك)».
«لا أعلم».
«أعتقد أنه لطيف، يبدو اسم شخص تلقى لكمة في صدره»
«لم أعتقد أنكِ عنيفة هكذا».
لوحت بيدها وقالت: «عليك أن تكون حذرًا يا (كينغ)».
«كان عليك إخباري بهذا قبل أن نرتبط».
«أن تصل متأخرًا خير من ألا تصل أبدًا، هل أنت مستعد للاسم الثاني؟».
«نعم».
«سيعجبك هذا».
«كفى مماطلة، هيا قولي لي الاسم».
«حسنًا استعد».
«مستعد».
«(جيت)».
«هل هذا ما كنت أترقبه بشوق؟».
لكمتني وقالت: «اسمانا قصيران، لن نحصل على اسم مناسب، اسمعني اقتراحاتك؟».
أمعنت التفكير بكل الاحتمالات الممكنة «أنتِ على حق، هذان الاسمان أفضل الخيارات».
«أخبرتك بذلك».
«نعم لقد فعلتِ».
«عليك أن تسمع كلام حبيبتك في المرة المقبلة يا عزيزي».
«نعم المرة المقبلة، المرة المقبلة».

•••

الألم والذعر

استيقظت مذعورًا تحسست الأغطية ونظرت إلى الساعة على الحائط.. كانت الغرفة معتمة باستثناء ضوء جهاز الحقن الوريدي، ولم أستطع أن أخمن ما الوقت، كيت بالقرب مني ظهرها على ظهري، ولم أعرف لم أحسست بشيء غريب ومختلف وكأنني في مكان جديد غير مألوف، قلت بصوت ناعم «(كيت)؟» لم يأتيني أي رد سوى طنين جهاز الحقن الوريدي وتدفق السوائل في يدها، كررت ندائي «كيت»، ومررت يدي على كتفها لقد كانت بشرتها باردة همست بأذنها «(كيت؟)»، وهززت جسدها بلطف، حاولت سماع صوت تنفسها لكنني لم أسمع إلا صوت أنفاسي ناديتها مرة أخرى «كيت».

ثم جلست ثم تنفست الصعداء عندما رأيتُ علبة حبوب فطور في سلة مهملات المشفى، ثم بدأتُ بالضحك والبكاء معًا، وفهمت قصد (كيت) حين سألتني عما يجعلني «أبحث».

•••

كادت النهاية تقترب

حسنا، طالما أصبحتم مدركين أن جاك وكيت بقيا على قيد الحياة، سأكون صادقًا هذه الاعادات الأربعة لم تكن هي الوحيدة؛ بل هناك مجموعة كبيرة من الإعادات لم أتابع العد بعدما تجاوزوا العشرات، وحتى الآن لا أعلم سبب كل هذا، وحتى لو عرفت لن يكون هناك جوابًا شافيًا لي وكأنها حكاية شارع سمسم، فعندما تقراها للمرة الثانية والثالثة والرابعة، وعندما تعلم أنه لن يبقى في النهاية إلا الوحش (غروفور) فإن هذا لا يقلل من جمال بقية القصة أو اهميتها، ما يسعني قوله إني حاولت ما استطعت إليه سبيلًا أحيانًا، حاولت مرة واثنتين وثلاثًا.. أحيانًا لم أكلف نفسي عناء المحاولة على الإطلاق.. أحيانا كنت متعبًا جدًا أو حزينًا للغاية.

لقد كنت كأني أعيش أسوأ سكرة على الإطلاق سكرة لا يمكنك الهروب منها مهما شربت ماء، أو توسلت الله ليوقف دوران العالم.

شكوك تهلك العقل، خوف يملأ الأحشاء، كل شيء يصعقني من الداخل، لم أعتقد أني سأنجح ولم أقدر أن أجعلكم تخوضون غمار هذا، مشاهدتي أفشل مرة بعد مرة مشاهد كيت تموت في كل مرة ليس على أحد عيش هذا، لكني شاكر لتلك المرة التي كان عليّ أن أكون بجانبها متسائلًا: إن انتهيت وتوقفت إعاداتي إن كانت نهايتي.

أعتقد أن سبب إخباري لكم بهذا هو رغبتي بألا تسيئوا فهم القصة، عليكم أن

تدركوا أني لست بطلًا لم أنقذ كيت لم تحتاج لذلك بل هي أنقذتني، لقد علمتني أن عدم تحقيق الهدف ليس شيئًا سيئًا يكفي أنك بذلت كل ما بوسعك، بالنهاية أن أبسط قراراتنا وأتفه خياراتنا هي الأهم، أن نكون صادقين مع من نحب ومع أنفسنا، أن نسّلم لتلك الأمور التي تقع خارج إرادتنا، بعض الأحيان يكون من الصعب إدارك معنى هذه الأشياء، لكنها مجتمعة تعني كل شيء.. خذوا هذه النصيحة من شخص عاش المسقبل.

النهاية الحقيقية

سألت «هل أنت متأكدة من أن والديك لا يمانعان بقائي هنا في منزلهما في غرفة نومك».

ابتسمت كيت: «سؤالك متأخر، لكن على كل حال أنا واثقة أنهما سيكونان سعيدين إن كنت سعيدة».

تناثرت حولنا أغطية تعود لطفولة كيت، مغطية بطنها وساقيها وقدمي وخصرينا، لم تتفارق عينانا، أنفاسها تحط على وجهي، شممت رائحة عطر تفوح من ثغرها، رمشت لثانية. لم أشأ أن تفوتني هذه التفاصيل ولا حتى لحظة سألتني «هل تخيلت أن الأمور ستؤول إلى هذا؟».

«حلمت بهذا ولكنني سأكون منافقًا إن قلت إنني توقعت حدوث هذا فعلًا».

«هذا ما يخيفني، أعتقد أنني كنت أحلم».

«أعتقد أنك جميلة يا كيت هذا كل ما أعرفه».

«توقف أنت تجعلني أحمر خجلًا».

مررت كفي على كتفها، «السود لا يحمرون خجلًا» وضحكت ضحكة فاتنة من أعماقها «ولمَ لا نفعل»، أنا نفسي احمرت وجنتاي لربما نحمر خجلًا فعلًا «قلت أقصد بصريًا».

هزت رأسها واتكأت على مرفقها وعيناها تراقباني «أعلم ما تقصد أيها السخيف، أحببت أن أربكك فقط».

«لقد أربكتني فعلًا» ومسحت جبينها بأناملي واستلقينا هناك بهدوء وسكينة واستمعت لدقات الساعة.. «حسنًا هل ستخبرينني؟».

«بم؟».

«هل نحمر خجلًا؟».

«أنت تنظر إليّ الآن قل لي».

حدقت بها للحظة ثم قبلتها على جبهتها.. أغمضت عينيها بشدة.. وكأنها تحاول العودة إلى حلم ما.

قالت: «أعتقد أن الاحمرار خجلًا شيء لا نراه بل نشعر به».

قلت لها: «أنا أشعر به يا كيت بكل تفاصيله».

قالت «تعال»، وفتحت عينيها وباعدت ساعديها «لا أعتقد أنه يمكنني الاقتراب أكثر من هذا». بالرغم من أن طلب القرب هو ما أنشد.

«بلى يمكنك».. ساحبة رأسي نحو وجهها «أرأيت».

لقد كانت على حق، ثم سألت كيت «هل تعلمين ما أحب في نهايات أفلام السود العائلية؟». قالت: «لو أنك شخص آخر فستكون طريقة عنصرية، لبدء حديث لكنك أثرت فضولي فتابع حديثك».

«الرقص، دومًا توجد تلك الحفلة العائلية الراقصة، وكأنها عرس أو أيًا يكن، بعد أن يجلس الجميع سويًا، بغض النظر عن اختلافاتهم؛ حيث يشعر الجميع بالحب.

أحب فكرة أن كل شيء ينتهي على هذا المنحى، ناس سعيدة باسمة ترقص بكل شغف».

بدت غير موافقة على ما قلت وهزت رأسها ضاحكة.. «وأنا أيضًا، وأنا أيضًا»، التقطت (كيت) هاتفها وشغلت سماعات البلوتوث، وجرتني بعيدًا عن السرير، ونظفنا بقعة من الغرفة ركلنا الملابس المجعدة وكتب المدرسة بعيدًا، شبكنا أيدينا وسألتها: «هل تمنحينني شرف الرقصة»، انحنَت بتهذيب مفتعل وبدأنا بالرقص.

قالت (كيت) «ليكن لديك علم، أنا لا أحبك أبدًا».. وبدأنا نلهث من الرقص، اعترافات من صميم القلب بلا هدف، وبطريقة غريبة.

«وأنا لا أحبك أيضًا، ليكن لديك علم بدورك».

قالت «هذا جيد»، وتمايلت كأنها حققت انتصارًا «كنت آمل أنك تشعر بنفس شعوري».

كررت قولها «هذا جيد»، وأنا أقوم بحركة أحب أن أطلق ع.....

حسنًا لقد اخترعت هذا الاسم للتو، هذه الحركة إحدى الحركات الفنية الأساسية التي أتقنها.

تابعنا رقصتنا، تمايلت أجسامنا بطرق غير مألوفة، رقصة الرجل الآلي مع رقصة عبثية أخرى.

لم يكن رقصنا بارعًا، ولا حتى مقبولًا، ولا مثيرًا للإعجاب بأية طريقة، لكننا رقصنا.

•••

ألقاب الثنائي (بين) و(جينيفر)، و(كيم كارداشيان) و(كاني ويست).